د. محمود إبراهيم السعدني

حضارة الرومان

منذ نشأتها وحتى نهاية القرن الأول الميلادي



كنّا ... وكـــانوا

(قراءة فى التاريخ القديم)

(١)

حضـــارة الرومـــان

« منذ نشأة روما وحتى نهاية القرن الأول الميلادى »

دكتور

محمود إبراهيم السعدنى

الأستاذ المساعد للتاريخ والحضارة اليونانية - الرومانية

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

١٩٩٨

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

تصميم الغلاف . منى العيسوى

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٦ شارع يوسف فهمي - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

- ٥ شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: ÈIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

5, Maryoutia st., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء :

إلى أعز الناس : زوجتى وأولادى
هبة ، ومحمد ، ومى ، وإنچى

ad meam carissimam uxorem
et meos liberos :
Heba , Mohammed , Maï et Engi

الفهرس

صفحة

تقديم الطبعة الأولى

(أ) تقديم طبعة الرياض ، السعودية : -

يقـول المولى ، عز وجل ، : " وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين " . هذا ما خطر ببالى وأنا أقرأ بروفات هذا الكتاب بعد عمل إضافات كبيرة وتعديلات كثيرة على طبعة القاهرة الأقدم . ذلك لأن لى - حتى الآن - بالرياض أربع سنوات ، ولم أفكر لحظة فى طبع كتبى هنا ، إلا هذا العام ، ولاسيما بعد تشجيع الرئاسة العامة لتعليم البنات على طبع الكتب وإقرارها كمادة علمية ، بدلاً من المذكرات الجامعية ، إلا عند الضرورة القصوى .

الكتاب ، فى فصوله البسيطة المباشرة ، هو استعراض شامل لأخطر مراحل تطور التاريخ الرومانى القديم : وهى البدايات الأولى لروما ، وقمة إزدهارها ، وبداية انهيارها ... وكعادتنا حرصنا على إضافة الأسماء والمصطلحات اللاتينية بين أقواس زيادة فى تأصيل المعلومة . وكذلك يلاحظ القارئ أننى أميل إلى إبراز المعالجات الحضارية فى ضوء النصوص التاريخية ، وذلك بدلاً من المنهج القديم فى سرد الأحداث التاريخية فقط ... ولعل ما يجده فى " بداية عهد جديد " ، وكذلك فى " الخاتمة الحضارية " ، ما يؤكد هذا الاتجاه الأحدث فى الدراسات التاريخية .

وإننى بما أقدم هنا - عن روما القديمة فى أخطر مراحل تاريخها الطويل - لا أدعى أننى قد غطيت كل شيء ، بل أعترف صراحة بأن ما بأيدينا ليس سوى إطار عام يأخذ بيد الدارس إلى أهم رؤوس الأقلام والأحداث والموضوعات فى واحد من أغنى وأخصب موضوعات التاريخ القديم قاطبة ، وذلك لكثرة مصادره الأدبية على وجه الخصوص .

هذا ، وعلى الله قصد السبيل ...

الرياض ١٤١٧ - ١٩٩٧

(ب) تقديم الطبعة الأولى بالقاهرة ، مصر : -

وأخيراً ، وبعد حوالي ربع قرن من تخرُّجى عام ١٩٧٣ ، وبعد أكثر من (١٥) عامًا من حصولى على درجة الدكتوراة من جامعة أثينا ، باليونان ، يشاء العلى القدير أن يظهر لي

كتاب متخصص ، فى السوق المصرية ، أرضى عنه شكلاً وموضوعًا ، بعد محاولات شتى فى إخراج هزيل على هيئة محاضرات جامعية طيلة كل تلك السنين الماضية . ولعلى أكون قد وُفقت ، بعون الله عز وجل ، فى تقديم نفسى إلى القارئ العربى آملاً فى تحقيق خطوة هامة تجاه فهم سياسات روما القديمة ، التى ، للأسف ، لاتزال دروسها فى الهيمنة والاستغلال والجبروت ، الصادرة عن الأقوياء فى عالم اليوم ، هى المؤثرة والمتحكمة فى مصائر ملايين البشر من دول العالم النامى ، الذى يرتِّبونه كتصنيف ثالث بين فئات المجتمعات المعاصرة . وذلك باستعراضى ، وفق المنهج التاريخى المتكامل ، لتاريخ روما القديمة وحضارتها منذ نشأتها وحتى قمة ازدهارها ، وبداية النهاية فى الانهيار الداخلى ، حيث أمكننا الإجابة بوضوح عن أهداف الدراسة التاريخية التعليمية - كما أكدها پوليبيوس أحد أشهر المؤرخين القدماء - وعرفنا المضامين المختلفة للثلاثية الاستفسارية : متى ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ استطاعت روما أن تهيمن على كل دول العالم القديم الواقعة حول حوض البحر المتوسط ، وتفرض عليه سيطرتها الكاملة ، ومن ثمَّ حقَّ لها أن تسميه " بحرنا :Mare Nostrum " ، وتفرض عليه سلام المنتصرين الرومان ، الذى عُرِف ، فى التاريخ القديم باسم « السلام الأوغسطى : Pax Augusta » ، وفق أولويات الاستراتيجية الرومانية وأطماعها القديمة .

ولقد حاولت ، قدر الإمكان ، أن أحقق فعلاً ، لا قولاً فحسب ، أهم ما تعلمناه من دروس وعبر من تاريخ وحضارة روما القديمة ، مثل قولهم فى أمثالهم وحكمهم : -

١ - بمعنى « كُن مباشراً ! » 1 - ad hoc !

(فجاءت مادتنا العلمية مختارة بعناية ، تستند إلى المصادر القديمة نفسها ، بدون الاعتماد على الأساطير والحكايات ، ومن ثمَّ قلَّ فيها السرد والاستطراد وعدم ترجيح الآراء الأحادية المصدر) .

٢ - 2 - Rem tene, verba Sequentur !

بمعنى « تَمسَّك بلب الموضوع ، تأتيك التبريرات » .

(ذلك لأنه إذا لم يركِّز المتحدث أو الباحث على هدفه الرئيسى ، ضاعت منه أسانيده ، وتاه وسط التفاصيل واستغرقته التفريعات ، ومن ثم فقد المقدرة على الإقناع القوى السريع المباشر) .

٣ - بمعنى « سأعطيك بقدر مايمكن أن تعطينى » 3 - Do ut des !

(وكما حسبنا حساباتنا الآن ، فى شكل ومضمون كتابنا ، مقدِّرين ظروف وإمكانات القارئ العربى المعاصر ، ومن ثم كانت الموضوعات مختارة ، والمادة قليلة فى مجملها ، والعرض مباشر ، فى لغة سهلة ميسورة ، كذلك كان الرومانى القديم ، لا يؤمن إلا بكل ماله فائدة عملية مباشرة فى الحياة ، بل ووصل إلى آخر مدى فى مشوار تلك المادية الحياتية ، وأصبحت المصلحة والمنفعة هى هدف كل سلوك له ، حتى أنه لايبادر أبداً بالعطاء ، ولكنه ينتظر مثل تلك المبادرة من الآخرين !) .

هكذا كان الرومان ، وهكذا أصبحنا نحن كذلك اليوم . فهل كنا نحن موفقين فى عرضنا لمادتنا التى بين أيدينا ؟ نرجو ذلك

والله ولى التوفق

القاهرة ١٩٩٨

(جـ) كنا ... وكانوا (قراءة فى التاريخ القديم) : -

هى محاولة منا ، لا ندعى فيها سبقًا أو ريادة بقدر ما نطمع فى تسجيل قراءة وطنية متخصصة لصفحات التاريخ القديم بعامة ، وتاريخ شرقنا القديم بخاصة ، بعد أن ظللنا سنوات طويلة نردد آراء علماء الغرب والشرق فى تراثنا الماضى ، دون أن يكون لدينا الوقت الكافى لتمرير تلك الأفكار والآراء من خلال فلتر ومرشح جيد ، ينضح وطنيةً وعلميةً ومنهجيةً ، بلا تشنج أو ديماجوجية ، حتى تقف الأجيال القادمة على حقيقة أحداث الزمن الماضى وانجازاته الحضارية الرائعة على أرض شرقنا الرائد ، وصولاً إلى تحديد حجم التأثير الشرقى على حضارات الغرب القديم .

سنبدأ باستعراض تاريخ اليونان القدم وكذلك الرومان ، ثم يتلوهما قراءة فى تاريخ مصر القديمة والعراق وسوريا ، ونختم مشوارنا بملاحظات على تاريخ العرب القديم فيما قبل الإسلام.

وندعو الله أن يطيل الآجال حتى تكتمل الحلقات ، ومفردين ، بعد هذا كله ، لدراسات وبحوث متخصصة فى بعض جزيئات هذا التاريخ أو ذاك .

وهاكم باكورة إنتاجنا فى هذا الصدد ، راجين المولى عز وجل ، أن ينال ترحيبكم وأن يجد صدى طيبًا فى نفوسكم ، وأن يسد فراغًا معرفيًا لدى القارئ الشغوف بماضى الأجداد ، والمعتز بتراث حضارتنا الرائدة على أرضنا الطيبة .

محمود السعدنى

القاهرة ١٩٩٨

تمهيد

أولاً : أيها القارئ الكريم :

بماذا أقدم إليك كتابى هذا فى التاريخ القديم ؟ سؤال حيرتنى إجابته . وبعد طول تفكير ، هدانى الله إلى ذلك المدخل المنطقى الذى لا يمر العام الدراسى دون أن أسمعه من طلابى وطالباتى فى أولى محاضراتى لهم . إنه السؤال التالى :

لماذا ندرس التاريخ والحضارة اليونانية والرومانية ؟

عندئذ ، غالبًا ما تكون إجابتى عن هذا السؤال تتلخص فى عدة نقاط لعلى أكون موفقًا فى عرضها كالآتى :

١ - لا أحد ينكر (ولا يمكن أن يدّعى غير ذلك إلا كل متعصب جاهل بأصل الحضارات القديمة فى تلك المنطقة الحساسة من العالم القديم) أنه لا توجد حضارة قديمة بدأت ونشأت من العدم ، أيًا كانت هذه الحضارة أو تلك . ولابد أنها تعلمت أو نقلت أو قلدت حضارة أخرى فى بعض مظاهرها الحياتية ، ذلك لأن حضارات التاريخ القديم ، بصفة خاصة (وبالرغم من صعوبات الاتصال وبدائية وسائله فى تلك الآلاف الأولى من السنين فيما قبل الميلاد) لم تكن تعرف الاستقلال التام عن جيرانها ، لأنه كان فى الاتصال والتنسيق مع الجيران (حتى ولو كان الأمر قاصراً على التوجهات السياسية أو العسكرية - الأحلاف - فقط ، دونما قيام عمليات تجارية لصالح الحضارتين) أمان للمستقبل القريب لكل حاكم بعيد النظر .

٢ - إن أقدم الحضارات التى عرفها العالم القديم نشأت وازدهرت فى المنطقة ، وهى متصلة الإتساع ، لا فواصل بينها ولا عوائق تحول دون التأثير والتأثر بين هذه وتلك ، وهى المعروفة باسم « منطقة الشرق القديم » حيث عرفنا حضارات بلاد الرافدين (السومرية والبابلية والآشورية) ، وحضارات سوريا القديمة (الحيثية والفينيقية) ، وحضارة مصر القديمة فى وادى النيل . فى هذا المثلث الهندسى على أرض شرقنا القديم ، وهو مثلث القوة والمنعة والثراء والازدهار ، على مر العصور والقرون ، فهل يحق أو يجوز - تاريخيًا - أن نسأل عن أقدم تلك الحضارات ؟ وأيتها هى صاحبة الفضل على الأخرى ؟ .

نجيب ، نعم يمكن تاريخياً ، إذا ما رصدنا أقدم الأدلة الأثرية فى تلك الحضارة أو تلك... ولكن ، تلك المحاولة ، لن تخرج عن كونها رصداً لأقدم محاولات آدمية إنسانية للعيش على أرض هذه البقعة من الأرض أو تلك ، ولن يتحقق مفهوم الحضارة الواسع ، كما نعرفه .

إن الواقع التاريخى القديم لتلك المنطقة الخالدة ، يؤكد أن المعنى الحضارى الواسع الكبير ، لا نعرف له وجوداً فى كل حضارات الشرق القديم ، إلا منذ الألف الثالثة قبل الميلاد: حيث اللغة الواضحة ، والإدارة الحازمة ، والنظام السياسى الثابت ، والرموز الدينية الراسخة فى قلوب الملايين من أبناء شعوب كل حضارة من حضارات ذاك الماضى الخالد وتراثنا المجيد .

٣ - و بينما كان الشرق فى قمة ازدهاره وقوته ، بدأت الحضارة اليونانية مشوارها الحقيقى، الكامل المعنى ، عندئذ نظرت إلى الشرق نظرة تمنى وأمل ، ولذلك حرصت - طيلة مراحل تطورها العديدة (الحضارة المينوية الكريتية ، والحضارة الميكينية الهيللادية ... إلخ) على إستمرار الاتصال بحضارات الشرق كلما كان ذلك ممكنًا .

ولكن تلك الحضارة اليونانية ، ومن بعدها الحضارة الرومانية (بالرغم مما نقلته وقلدته عن الأصول الشرقية الحضارية) إلا أنها كانت متميزة فى نتاجها الحضارى النهائى ... ومع ذلك فلا يمكن أن يتم الفهم السليم لتلك المراحل الأولى من عمر الحضارة اليونانية دون الرجوع إلى الأصول الشرقية . وهكذا تصبح دراسة الحضارة اليونانية ، وكذا الحضارة الرومانية (بالرغم من استقلالية تلك الحضارة لاختلاف العنصر المؤثر الأول فيها وهو الشخص الرومانى ذاته) ، هو إستكمال تاريخى لحلقة حضارية هامة من تاريخ حضاراتنا القديمة ، ولكن على أرض أجنبية، مما يؤكد اتساع رقعة التأثير الحضارى الشرقى القديم على الجيران .

٤ - وإذا صحّ ، من منظور معاصر ، أن الحضارة اليوم هى حضارة أوروبا وأمريكا (والحق أنها ليست إلا تفوقًا تكنولوجيًا نرزح نحن تحت صولجانه وهيمنته وجبروته ونلهث وراء خطواته) ، **فالأولى بنا أن توجه ناظرينا إلى باعث تلك النهضة التى تأخذ بألبابنا وتسحر أفئدتنا فى كل حين . إنها روما القديمة صاحبة الفضل الأول على أوروبا :**

١ - فى اللغة .

٢ - فى القانون والدستور .

٣ - فى إقامة تجمعات وقوميات كبيرة .

٤ - فى الديانة (المسيحية) .

ولكن الدرس الأقوى وهو عبرة الزمان ، هو ما تعلمته أوروبا ووعته جيداً ، إنه زوال روما وإنهيار إمبراطوريتها العظمى العالمية ، كما قال پلامپ (Plump) (١)فى تقديمه لكتاب دونالد دادلى :

" Rome's greatest influence on Europe, and perhaps on the world arose from decline and fall, from indeed her failure as an imperial power . "

درس ، حفظته أوروبا عن ظهر قلب ، بينا ، نحن العرب ، لانزال نتخبط ونتكلم أكثر مما نعمل ، ونقع فى الأخطاء ذاتها التى أطاحت بأحلام السابقين من زعماء أمتنا المخلصين . ألم نتعلم بعد ؟ !! أما كفانا أحلامًا وانفعالاً ؟ !! إلى متى سنعيش وسط ضباب الكلمات ومعسول الشعارات ولحظة الانفعالات ؟ !! .

ثانيًا :

عندما كانت روما (Roma) مدينة صغيرة كان حكامها ملوكًا (reges) ويمكننا تأريخ ذلك فيما بين ٧٥٣ ق.م . وحتى ٥٠٩ ، أى منذ نشأة تلك المدينة وحتى آخر ملك من ملوك روما القديمة وهو تاركونيوس المتغطرس (Tarquinius Superbus) وهو آخر تواجد للإحتلال الاتروسكى لروما .

بعدها مرت روما بنظام جمهورى (Res Publica) منذ ٥٠٩ وحتى عام ٣٠ ق.م. ، مارست خلال تلك القرون الخمسة تقريبًا ، كل إجراء من شأنه تحقيق مصلحة الوطن ككل ، أى روما ومعها كل حلفائها من إيطاليين وغيرهم ، مثل إغريق جنوب إيطاليا (Magna Graecia). ثم شكلوا مجالس نيابية من عشرة شيوخ ، ولكنها لم تكن تستمر لأكثر من عامين متتاليين ، وعرفت خلالها كذلك فترات حَكَمَها ضباط عسكريين صغار ، وطبقًا لترتيبات مؤقتة فى ظروف خاصة ، ثم أعطت زعماء القبائل الحق فى الوصول إلى منصب القنصلية والذى كان مقصوراً على رجالات مجلس الشيوخ " سناتوس " (Sentatus) .

كما عاشت روما لفترات زمنية قصيرة ، نظام حكم الفرد ، ثم الجماعة العسكرية وإئتلاف القادة وصولاً إلى يوليوس قيصر (Julius Caesar) الذى ملك زمام الأمور فى يده لمدة قصيرة ودخل فى خلاف مصيرى مع رجالات السناتوس الأقوياء الذين لم يغفروا له خطيئة

1 - D . Dudley, Roman Society, Great Britain 1970, p. XXIII .

زواجه من كليوباترا السابعة التى تحدّت الرومان فى عقر دارهم مما قرّب نهاية قيصر بمقتله عام ٤٤ ق.م . لقد كانت القوة العسكرية فى ازدياد مستمر مما أهّلها لأن تقوم بالدور الأول فى تحديد سياسات روما فى تلك الفترة من ناحية ، ومما أسفر - نتيجة للأحقاد ولاختلاف المصالح الشخصية - عن صراعات بين القادة أنفسهم كما عرفنا ما كان بين أنطونيوس (Antonius) وبين أوغسطس وما سبقه من تنافس فريقى يوليوس قيصر وپومپى من ناحية أخرى .

وجدير بالذكر هنا أن نقول أن أوغسطس (Augustus) كان محظوظًا عندما ساعدته الظروف وساعد هو نفسه فى أن يخرج منتصراً على عدوين اثنين فى وقت واحد عام ٣١ ق.م. وبذلك خلت الساحة السياسية والعسكرية على السواء من منافس قوى يثير فيه التحدى فراح يفكر تفكير الساسة المحنكين ، حيث برع تمامًا فى أن يُدَعِّم مركزه العسكرى بشكل سياسى قوى وعلى دعائم دستورية ثابتة أجدها لنفسه وذلك بعد أن نجح فى خلق أرضية مشتركة للتفاهم مع الزعماء السياسيين من رجالات السناتو الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر إعلان أوغسطس عن نواياه ، بعد أن توقفت الحروب وأصبح اكتاڤيوس (Octavius) هو الحاكم الواحد الأوحد للإمبراطورية الرومانية (Imperium Romanum) مما جعل ذلك النظام يعرف باسم : المواطن الأول (Princeps) .

إننا باستعراضنا لتاريخ العصر الإمبراطورى الأول فى عهد مؤسسه العظيم ، سنتأكد من حقيقة جديدة تمامًا على التاريخ القديم كله ، وهى ذلك النجاح الكبير الذى يحققه قائد عسكرى فذ فى الميدان السياسى . وبذلك يكون أوغسطس هو أول شخصية عسكرية تكسر قيود المقولة بأن العقلية الحربية لا يمكنها ممارسة السياسة بنجاح . إننا - حقًا - أمام عبقرية أجادت فى ميدان الحرب والسلم كذلك ، وتركتنا أعمال أكتاڤيوس هذا ، فى المجالات العسكرية والمدنية على السواء ، أمام حقيقة فرضت نفسها على كل دارس للتطورات التاريخية لروما الإمبراطورية ، تلك هى عبقرية أوغسطس الحربية والسياسية .

إننا - وفقًا لأحدث نظريات دراسة التاريخ - سنقوم بإلقاء مزيد من الضوء على وضع الإمبراطورية الاجتماعى وكذلك الإقتصادى وبصفة خاصة وضع مدينة روما العاصمة ومشاكلها المختلفة ، وذلك من خلال الكتابات المعاصرة أدبًا كانت أم تاريخًا ، بهدف إبراز هذه الخلفية التى أغفلها دارسو التاريخ القديم ، يومًا ما . وآن الأوان ، فى ضوء الاكتشافات الأثرية الحديثة ، أن نتعرف على صورة المجتمع الرومانى فى نظر الكُتّاب الرومان أوحتى اليونان ، سواء من كان منهم معاصراً أو سجل لنا أحداث التاريخ الرومانى بعد ذلك بعدة قرون .

وإذا ما سأل سائل لماذا توقفنا عند نهاية القرن الأول الميلادى ؟ فإننا نرى أن هذا الحد من تاريخ روما الطويل فيه الكفاية لدارس تاريخ تلك الحضارة للوقوف على مظاهر القوة ومواطن الضعف فى جسد تلك الأمة التى بدأت ككل الأمم فأخذت بأسباب النهضة وحافظت عليها لمدة طويلة وصلت لأكثر من خمسمائة عام بقليل منذ بداية النظام الجمهورى إلى قمة إزدهارها فى عصر أوغسطس (أى من حوالى ٥٠٩ وحتى عام ١٤ م) وهى فترة ليست بالقليلة لأن أسهم روما كانت فى تزايد مستمر وحققت لنفسها مكاسب جمة ، كانت فى المقام الأول متمثلة فى شخص زعمائها ، وعادت ببعض النفع على عامة الشعب الرومانى .

ولكنها ما أن انحرفت عن جادة الصواب وحاد القادة الرومان عن الطريق القويم – طريق ومنهج السلف الصالح (Mos Maiorum) وغلّبوا مصالحهم الذاتية على مصلحة البلاد العليا ، فكان أن دَبَّ الخلاف بينهم وبدأت بذور الشك تنمو وتترعرع داخل النفوس الضعيفة التى راحت تتآمر ضد بعضها البعض فأجهز ذلك سريعًا على البقية الباقية من أخلاق الأوائل مثل الإيثار والتضحية بالنفس (Devotio) فى سبيل الصالح العام ... وهكذا حقت عليهم كلمة ربك بالحق ... وكانت بداية النهاية منذ أول خليفة لأعظم رجالات روما فعالية وهو الإمبراطور أوغسطس ، ولذلك رأينا أن نسير معهم طيلة قرن من الزمان تقريبًا حتى نتعرف على أشكال الفساد فى الإمبراطورية الرومانية . وعرف أن التاريخ القديم – **بعامة – هو تاريخ أعظم الرجال والقادة** ، فمنهم وعلى أيديهم تغيرت نظم وقامت ممالك وزالت أمم ودويلات وأقاليم ... أى أن الفرد ، القائد والزعيم ، كان هو الأساس ، وصاحب البنيان الأعظم ، وباعث الشرارة الأولى لكل تغيير ... وعلى النقيض تمامًا ، يصح العكس ..... **فالقدوة الصالحة هى خير الطرق لإقناع الشعوب لانتزاع مشاركتها الإيجابية واستمرار تلك المشاركة بالقوة ذاتها والحماس ذاته** ... وأما ماعدا ذلك ، فلن يدوم وسيكشف الشعب زيفه ، وسرعان ما ينفض من حوله ، وبالتالى تُصاب الشعوب بأزمة وحالة من الإحباط واللامبالاة .

إن الدرس المستفاد من روما الجمهورية وحتى بداية النظام الإمبراطورى (عل يد المؤسس الأول أوْجستوس)[١] إن النظام المتمثل فى قدوة صالحة تمثلها حكومة مخلصة لمبادئها

---

١ – هذا نطق لاتينى لاسم القائد العظيم نفسه ، أوكتافيوس ، أو أوغسطس – كما شاع عندنا فى مراجعنا العربية ، وإن كان النطق الذى أمامنا هو الأصوب وفق الهجاء الحرفى للفظة اللاتينية لهذا العلم (Augustus) .

ولشعبها هو أقرب الطرق وأقصرها لإقناع كل الناس بنزاهة أداة الحكم وإعلاء للمصلحة القومية فوق كل الاعتبارات وبالتالى سمعنا عن النجاحات فى فترة وجيزة أذهلت العالم القديم كله وأثارت تعجُّب بوليبيوس .

لقد اعتمدت روما – ككل القوى القديمة فى حوض البحر المتوسط – على المبادئ الأخلاقية القديمة قبل أن يكون هناك قانون وضعى ، وحققت بذلك نجاحات تلو نجاحات . ولكنها بمجرد أن سارت فى موكب الإغراق فى الماديات وتناست مبادئ الانطلاقة الأولى ، انعدم الصبر الجمعى وتقلص الصالح العام ، وتضخمت « الأنا » عند القادة والزعماء ودَخَلت روما فى حرب أهلية ، دَفَعَت ثمنها غاليًا ، لتكالبها على المكاسب المادية الشخصية ... وهكذا اشترت الدنيا ونسيت الآخرة ... ولم تعد للرحمة مكانة بين الرومان .. وزادت أعباء المديونية واستفحلت ديون الفقراء وازدادت أعداد العبيد ، حتى انفجروا فى بركان هادر ، تمثل فى ثورة العبد السورى يونوس ، أولاً ، (١٣٦ – ١٣١ ق.م) ، ثم ثانيًا فى ثورة سبارتكوس (Spartacus) وأوْمأت الأرستقراطية الرومانية برأسها لتمر رياح الغضب بسلام ... وكسبت طبقة العمال والعبيد إحدى جولات الصراع ، واكتفت ببعض المكاسب المادية المحدودة . ولكن السيطرة السياسية ظلت كما كانت وبات مصير البلاد معلقًا بين يدى كبار رجالات روما الذين دفعوا ثمن أنانيتهم غاليًا ودفع الرومان جميعًا ، معهم ، بسبب سلبيتهم وسيرهم على دين ملوكهم . ولهذا كان عهد خلفاء أوجوستوس بداية النهاية الحقيقية فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، حيث تنوعت أشكال الفساد وتغلغلت مظاهره حتى النخاع فى حياة روما والرومان. ولم تكن القرون الأخرى – الثانى والثالث وحتى الرابع الميلادى ، إلا عزفًا على وتر واحد ، وهو المحاولات الفردية من بعض الأباطرة الرومان لإحياء الماضى المجيد فى بعض مناحى الحياة . ولكن هيهات أن تدوم فقد كانوا يبنون على أساس هش ، وكأنهم ينشأون القلاع فوق رمال متحركة ... وكانت النهاية الفعلية على أيدى أقوام آخرين ، بدأوا نهضتهم مما نسيته روما والرومان بعد أكثر من خمسمائة عام من بزوغ نجمها ، فما كان إلا أن هوى وتكسر على حافة القانون الأزلى وحكمة التاريخ والحياة معًا ، فالحياة دائمًا للأصلح والأفيد للمجموع الذى يعيش وسطه ... ولا خلود للأنا إلا أنا الشعب كله ، كما عرفنا ذلك وتعلمناه من درس تاريخ الإمبراطورية الرومانية ولا سيما بعد أن تهاوى نظام الجمهورية الرومانية (٥٠٩ – ٢٧ ق.م.) على أثر الحروب الأهلية وتضارب مصالح فئات الشعب

المختلفة مع السلطة العليا الحاكمة ، صَاحِبة الحول والطول فى تحديد سياسات روما العليا ، أى بسبب ذلك الصراع الطبقى بين العامة (Plebs) والأشراف (Patricii) . إنه درس يجب أن تَعِيه كل الأمم عبر العصور .

وهكذا يظل التاريخ درسًا وعبرة للأجيال ، فى كل الحضارات القديمة ، اختصاراً للزمن ، وتقليلاً لألم التجارب الفاشلة ، وسعيًا لاستثمار القوى الخيِّرة ، على الطريق القويم ، أملاً فى غدٍ أفضل للناس أجمعين ، حكامًا ومحكومين .

محمود السعدنى

الباب الأول

مدخل عام: التاريخ القديم وروما

الفصـــل الأول

(١) حقيقة مصادر التاريخ القديم :

التاريخ القديم اصطلاح واسع ، تضم مادته أحداثًا كثيرة ، مضى عليها الزمان وانقضت قرون وعصور وانطمست معالم المكان والأشياء وأصبح من الصعب بل يستحيل على غير المتخصص أن يستنتج أى شئ فى غياب الدليل الأثرى القاطع . ولايمكن الاكتفاء بما كتبه البعض من انطباعات أو ما سجّله من مواقف وأحداث لأن ذلك لن يخرج عن كونه وجهة نظر شخصية إلا فيما ندر ، حيث يتجرد الكاتب من عواطفه وميوله ، ويعرض للموضوع من جوانبه المختلفة ملقيًا الضوء على أبعاده الإيجابية والسلبية على السواء وليس على جانب واحد فقط ذلك يعبر عن رأيه الشخصى ويخدم مصالحه هو فقط أو مصالح من يخدمهم قلمه .

إن تاريخ شعب من الشعوب ، يختلف فى بدايته ونهايته من منطقة إلى أخرى ، كنتيجة طبيعية لاختلاف مقومات الشعوب ومدى الإنجاز الحضارى الذى خلّفته عصور نهضتها ، ثم تبعًا لظروف المنطقة التى قامت عليها مراحل ذلك التاريخ القديم ووقعت أحداثه ، ولهذا نجد أن التاريخ الفرعونى (المصرى القديم) يبدأ فى فترة تختلف عن بداية التاريخ اليونانى القديم كما تختلف بداية التاريخ الرومانى القديم عن كل من التاريخين السابقين . وهذا شئ منطقى جداً ويؤكد على خصوصية كل حضارة وتفردها عن غيرها بسبب خصوصية كل مقومات تلك الحضارة وتميزها الواضح عن الأخرى . نفس الشئ يمكن أن يُقال عن عوامل تدهور وإنهيار ونهاية كل حضارة من الحضارات السابقة الذكر وكيف أنها تختلف طولاً وقصراً وتعليلاً.

- فإذا نظرنا نظرة فاحصة إلى كل ما وصل إلى أيدينا من مصادر تاريخية قديمة فى أى فرع من فروع التاريخ القديم . ولأى أمة من الأمم نجد أن تلك المصادر لاتخلو من معلومات وأخبار موجهة ومقصودة بغرض إعلام الآخرين بأشياء معينة بغض النظر عن مدى حقيقة تلك الأمور ومصداقية وقوع تلك الأحداث . أى أن تلك المصادر ما هى فى حقيقة الأمر ، إلا بوق دعاية مغرضة خرجت من القصور الملكية أو من بيوت الأمراء ورجالات الدولة آنذاك لتوضيح بعض المواقف للعامة أو لتسجيل ما هو فى صالح تلك الفئة الحاكمة ، واختفاء كل دليل على إدانتها . ناهيك عن كتابات الشعراء المنافقين الذين يتكسّبون ويحترفون عملية الخلق الفنى ولا يهمهم إلا ما يغدقه عليهم الملك والأمراء من هدايا ومنح .

هل نتوقع إذن ، طالما أن الأمر يتعلق بمصالح معينة ، أن تكون الحقيقة التاريخية هى هدف تسجيل الوقائع فى حوليات مثلاً ، أو داخل أرشيف الدولة فى فترة من الفترات ؟ .

إنك لتذهل حقًا عندما تسمع عن تفاصيل طرق وأساليب الحكام والأمراء والقادة العسكريين فى الوصول إلى كرسى الحكم . لقد كان أسلوب المؤامرات والدسائس هو الطريق الوحيد الموصِّل حتمًا إلى العرش فى التاريخ القديم ، إلا إذا كان ذلك العرش وراثيًا بين أبناء الأسرة الواحدة . وحتى فى هذه الحالة التى تستبعد العناصر الأخرى ، غير الملكية ، عن الدخول كأطراف فى الصراع العائلى من حول العرش ، ألم نسمع عن أفظع الجرائم التى يرتكبها الأبناء ضد آبائهم ، والأخوة ضد بعضهم البعض طمعًا فى الانفراد بالحكم ؟ عندئذ من ستخدمه الحقيقة التاريخية إذا سُجِّلت ؟ إنها ستخدم عدو السلطة . وكيف يسمح الحاكم بذلك ؟ هنا يؤخذ أخطر قرار وهو ضرورة طمس معالم الحقيقة وتسجيل أى شئ آخر غيرها وإيهام الناس بصدق الروايات الجديدة عن تفاصيل الوقائع والأحداث وبمرور الزمن يصبح ما يصل إلى الآخرين من أجيال لاحقة فى صورة حوليات أو وثائق محفوظة أو مادة أثرية من نقوش[١] أو شواهد قبور (Steale) أو عملات ونقود[٢] (Coins) هى المصدر الوحيد للحكم على عصور التاريخ القديم . **فأين الحقيقة المجردة فيما هو مكتوب عن فترات التاريخ القديم ، سواء بأيدى المعاصرين أو اللاحقين ؟ للأسف الإجابة : لا نعرف ! .**

ولذلك نجد أن الدراسة التاريخية اليوم - وبعد تقدُّم علم الآثار وتحديث طرقه وأساليبه فى الحفر والتسجيل والتأريخ - لايمكن أن تكون كاملة بدون الاستعانة بنتائج الكشوف الأثرية التى إما أن تؤكد كتابات الأدباء والمؤرخين القدامى وتثبت مصداقية ما نقلوه إلينا عن عصرهم أو عصور من سبقوهم من الأمم وإما أن تكشف النقاب عن عدم دقتهم ومبالغاتهم وحتى عن جهلهم بالموضوعات التى كتبوا عنها وعن اختلاقهم لأسباب وهمية لايمكن لنا اليوم أن نجزم بحقيقتها التاريخية وواقع حدوثها فى وقت ما ، بل يجب علينا عندئذ أن نأخذ حذرنا وألا نرددها كما جاءت ، ونتحفظ عند عرض تفاصيلها .

---

١ - تدخل النقوش الأثرية على سطح أى مادة صلبة ضمن مجالات علم كبير يسمى (Epigraphy) له قواعده وأصوله فى كل حضارة .

٢ - تعتبر العملات النقدية على اختلاف المعادن المصنوعة منها ، أحد أهم المصادر التاريخية القديمة والتى تنتمى إلى علم الآثار ، فرع المسكوكات ، باليونانية (Nomismatiké) وبالإنجليزية (Numismatics).

(٢) مصادر التاريخ الرومانى :

إنه لمن المعروف لدى دارسى لتاريخ والحضارة الرومانية أن العنصر اللاتينى من سكان إيطاليا القديمة ، والذى كان يحمل هذا الاسم (Nomen Latinum) كان قد وصل إلى إيطاليا حوالى أوائل الألف الأولى ق.م، أى فى عام ١٠٠٠ ق.م تقريبًا وبعد حوالى قرنين من الزمان ، كان اللاتين (Latini) قد استقروا فى أقليم واحترفوا مهنة الزراعة والرعى ، وأقاموا أماكن لآلهتهم وهياكل مقدسة لمعبوداتهم ولتأدية صلواتهم ولتقديم قرابينهم (طمعًا فى ترضية الآلهة وكسبًا لرضاها ودرءًا لغضبها وشرورها) .

هنا وكما قلنا ، إن دليلنا على ذلك القدر من المعلومات الأولية البسيطة عن أولى مراحل **العمران والتحضر فى إيطاليا القديمة ، ليس إلا ما قدمته الحفائر الأثرية فى إقليم نوڤا (Villa Nova)** بالقرب من بولونيا حيث تم العثور على مخلفات أثرية من آنية فخارية مستديرة ، وأسقف مثلثة الشكل والألواح الخشبية ، ولتوابيت تحفظ رماد الموتى ، فضلاً عن العديد من أدوات مصنوعة من البرونز والحديد . **وجدير بالذكر أن هذه الآثار تم الكشف عن أشياء مثلها فى مواقع كثيرة من أقليم لاتيوم** . ولهذا فإننا نستطيع أن نستنتج باطمئنان كبير أن **" اللاتين الأوائل " كانوا شعبًا رعويًا يُربُّون الماشية والأغنام والماعز والخنازير ، ويعيشون فى قرى مبعثرة داخل أكواخ مستديرة مصنوعة من روافع خشبية تحوطها الجوانب المصنوعة من القش المجدول بالطين . كما كانوا يتكلمون بلغة من أصل هندو – أوربى**[١].

أما عن نشأة مدينة روما نفسها والتى اتفق على أنها وقعت فى عام ٧٥٣ ق . م بل والمذهل حقًا ، أن يصل التحديد إلى القول بأن روما أنشئت – طبقًا للأسطورة – **فى يوم ٢١ أبريل عام ٧٥٣ ق.م لكننا إذا عرفنا أن هذه التواريخ ليس لها أى سند بهذه الدقة والتحديد ، فإنه ليس من المنطق أن نصدق ذلك تصديقًا تامًا ونهائيًا** . وإذا ما عرفنا – كذلك – أن الدليل الأثرى فيما قبل الميلاد – على اختلاف أدواته ووسائله فى التأريخ – به مدة سماح للخطأ الزمنى تصل إلى ما بين ٥٠ – ١٠٠ عام ، كان لنا الحق فى ألا نجزم جزمًا قاطعًا بأى تاريخ محدد ، وعلى وجه الخصوص فى فترات ما قبل التاريخ لأى حضارة ما [٢].

---

١ – عصور ما قبل التاريخ فى حضارة روما هى الفترات التى لم تعرف فيها شعوبها الكتابة والتسجيل ولم تكشف الحفائر عن أى أثر مكتوب بلغة محددة واضحة .

٢ – نستطيع أن نعتبر هذه اللغة فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ إقليم لاتيوم ، أول صورة للغة اللاتينية (Proto - Latin) وأقدمها شكلاً . أما اللغة التى وصلتنا وهى التى كانت لغة العصر الذهبى اللاتينى للحضارة الرومانية فأقدم صورها جاءت فى أقدم نقوش لاتينية ، التى يمكن تأريخها بنهايات القرن السادس ق.م .

إن كل ما كشفت عنه الحفائر الأثرية فوق تلال روما القديمة هى بقايا لوجود مجتمعات رعوية بدائية وبصفة خاص فوق تلال بلاتينوس (Palatinus) والتى يمكن تأريخها بحوالى ٧٥٠ ق . م والحقيقة التارخية تفرض علينا أن نقول أنه من الصعب أن نحدد متى اتحدت هذه التجمعات الرعوية لتصبح تجمعًا واحداً أكبر تحت اسم " روما " (Roma) وكانت تدفن موتاها فى جبانة واحدة حتى حوالى عام ٦٠٠ ق . م .

ولهذا كان استنتاج أستاذ الكلاسيكيات والمؤرخ الإنجليزى (D . Dudley) فى محله عندما قال : "At some date we cannot determine " These " scattered communities released into a larger unit, then for the first time, the name of Roma may be given ."

إذن فإن الحديث عن روما قبل ذلك التاريخ هو ضرب من الخيال أو من الأساطير للشعب الرومانى وتراثه الذى لا يمكن أن يخضع لضوابط علم التاريخ والآثار . وبالتالى فإن ذكر أية تفاصيل عن أعياد السبعة تلال (Septimontium) أو عن ملوك روما قبل عام ٥٠٩ ق .م أى ما جاء عند ليڤيوس من ذكر لأسمائهم وكذلك أعمالهم بما فيهم الملك نوما (Numa) والملك سابينا (Sabine) لا يمكننا أن نعتمد عليه كمادة تاريخية طالما أن علم الآثار هو مصدرنا الوحيد فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ روما ، لم يستطع إلى الآن أن يضيف شيئًا أو يكشف لنا عن هوية أولئك جميعًا (١).

وفى ضوء المعيار نفسه فإننا لا نستطيع أن نكوّن صورة عن شكل الحياة السياسية لروما اللاتينية ومؤسساتها التى لابد أنها كانت تشتمل عل مجلس الشيوخ ، كنموذج لما عرف فيما بعد باسم السناتوس (Senatus) وبالتالى على جمعية عمومية أو مجلس برلمانى . ولكننا لانعرف شيئًا عن علاقات روما ، فى تلك الفترة ، بالتجمعات السكانية الأخرى فى إقليم لاتيوم (٢).

لقد عرفت إيطاليا القديمة فى القرن الثامن ق . م ثلاثة عناصر بشرية هامة ، كان لها دورها فى تطوير الحضارة فى شبه الجزيرة الإيطالية ، إذ كانت لهم اسهامات واضحة فى تاريخ تلك المنطقة . فكان الأتروسيكيون فى شمال إقليم لاتيوم (Latium) والذين تعلم اللاتين

---

1 - Dudley, Roman Society, (Pelican books) , Great Britain 1970, p . 8 .
2 - Ibid., p. 9 .

منهم الأبجدية ، وكانوا أصحاب حضارة شرقية فى معظمها ، ثم اليونانيون الذين احتلوا جنوب إيطاليا وشمال صقلية ، حيث عاشوا حياتهم فى مستعمرتهم الجديدة - خارج بلادهم - والتى أسموها «اليونان الكبرى» (Magna Graecia) . وبعد ذلك بحوالى قرنين من الزمان دخل إلى شبه الجزيرة الإيطالية من الشمال عند نهر الدانوب عنصر سكانى جديد فى موجة غزو حملت معها مهاجرين كلتيين (Celts) إلى وادى نهر " بو "(Po) .

وهكذا فإن التقييم العام للوضع فى إيطاليا القديمة فى الربع الأول من الألف الأولى من قبل الميلاد ، يمكن أن يتلخص فى - وذلك بفضل الدليل الأثرى وحده كمصدر من مصادر التاريخ الرومانى فى تلك الفترة المذكورة - أنه : **كانت هناك جماعات بشرية صغيرة ، فى مناطق متفرقة ودونما أن يجمع بينها أى نوع من أنواع الوحدة القومية**[١] **وبالتالى ليس هناك على أرض إيطاليا القديمة فى الفترة الآنفة الذكر ، أى أثر لحضارة يمكن أن يقارن بما عرفته كريت أو موكيناى فى اليونان وناهيك - بالطبع - عن الحضارات العظيمة فى الشرق القديم**[٢] **وعلى النقيض تمامًا ، وهذا أمر طبيعى كذلك لأى حضارة من الحضارات القديمة ، فإننا نسمع عن تراث شفهى غنى ليس أمامنا من سبيل إلى تصديقه تمامًا ولا حتى نفيه كلية.**

فالتراث الأدبى للرومان يحكى عن ملوك إتروسكيين حكموا روما لمدة تتجاوز ١٠٠ عام بقليل ، وذلك منذ احتلال تاركوتيوس الأول عام ٦١٦ ق.م وحتى طَردْ الأخير من ملوكهم وهو تاركونيوس المتغطرس عام ٥١٠ على يد بروتوس ، مما وضع نهاية للنظام الملكى وأرسى دعائم النظام الجمهورى الذى كان بداية للتاريخ الرومانى الحقيقى وللإنجازات الرومانية العظيمة فى ميادين الحرب والسلام . ولكن كل ما نعرفه عن روما تحت الاحتلال الاتروسكى من بناء المعابد وصناعة تماثيل للآلهة المعبودة واتخاذ روما كمركز تجارى هام للتجارة المارة بها من أقليم إتروريا شمالاً إلى إقليم كمبانيا جنوبًا ، ليس هناك ما يؤكد تلك المعلومات بالدليل الأثرى [٣].

وإذا أردنا استعراض نوعيات مصادرنا عن التاريخ الرومانى ، بتسلسل تاريخى ، فإنه بدايةً ، يجب أن يكون واضحًا للدارس المعاصر أن تاريخ الرومان القدماء ، كما وصل إلينا ،

---

1 - Ibid., p. 9 .

2 - Dudley, D., op. cit., p 5 .

٣ - لمزيد من تفاصيل ذلك التراث الأدبى . راجع ديون كاسيوس ، التاريخ الرومانى فى سلسلة (loeb Classical Library) Dio, Roman History, vol. I, book, Lond. 1954 (Rep), pp. 5 - 133 .
وبإيجاز عن علاقة روما بالاتروسيكين راجع . Dudley, D., op cit., pp. 15 - 19 .

تحوطه بعض المحاذير التى تثير فى النفس الحذر والشك إزاء تفاصيله التى جاءت فى تلك المصادر المسماة ، عادة ، بالمصادر الأدبية وذلك لعدة اعتبارات أهمها :

١ - التاريخ الرومانى لم يتم تدوينه إلا على يد أول مؤرخ رومانى ، وهو فابيوس پيكتور (F . Pictor) ، حوالى عام ٢٠٠ ق . م[١] أو قبل ذلك بقليل [٢].

وبالتالى فقد جاء ذلك متأخراً جداً ، بما لا يقل عن ٥٠٠ (خمسمائة) عام من بداية تاريخ الأحداث التى يسردها مما يزيد من إحساسنا بالحذر والشك بسبب هذا الفاصل الزمنى الكبير بين تاريخ وقوع الأحداث وبين تاريخ كتابتها وتسجيلها .

٢ - جاء أول مؤلَّف لاتينى على أيدى كاتو (M.P. Cato) متناولاً أصل المدن الإيطالية وتاريخ روما القديمة حتى عام ١٤٩ ق.م . إلا أنه لم يصلنا منه كلمة واحدة[٣] .

٣ - تعتبر أقدم كتابات تاريخية وصلت إلينا فعلاً بأيدى رومانى ، هى ما تركه لنا تيتوس ليڤيوس (Titus Livius) « ٥٩ ق.م - ١٧ م » ، وسماه (Ab Urbe Con- dita) : « منذ تأسيس المدينة » أى روما .

ويصف أستاذنا د . الناصرى دوره في تسجيل التاريخ الرومانى لنا ، بقوله : " **وبالرغم من أنه أدرك أن التاريخ الذى كتبه من سبقوه تطغى عليه الرومانسية والخيال الشاعرى فتلوث الحقيقة التاريخية** " ، ولكنه يجد عذراً لذلك فى قوله : " **علي المرء ألا ينتظر الدقة عندما يعالج موضوعات حدثت فى وقت ضارب فى القدم كهذا** " [٤].

٤ - روح الفخار والمبالغة السائدة فى تلك الكتابات مما يخرجها عن حيدتها ونزاهتها فى محاولة من الرومان لتأصيل البدايات الأولى لتاريخهم ولزرع روح الانتماء فى قلوب الأحفاد .

إذن وباعتراف أقدم مؤرخ رومانى وصلتنا أعماله ، عَزَّت عليه الدقة في السرد ، آنذاك ، بعد حوالى سبعة قرون فقط من التاريخ التقليدى لنشأة روما (٧٥٣ ق.م) ، **فما بالنا بالعشرين قرنًا التى تفصل بيننا وبينه هو ، وكيف لنا بالدقة الموضوعية للمعالجة التاريخية حول بداية وتطور تاريخ روما والرومان القدماء ؟ !** .

---

١ - عبد اللطيف أحمد على ، مصادر التاريخ الرومانى ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٦ .

٢ - سيد الناصرى ، تاريخ وحضارة الرومان ، ١٩٨٢ ، ص ٤٣ حيث يذكر عام ٢٢٥ ق.م كفترة ازدهار لهذا المؤرخ .

٣ - المرجع نفسه .

٤ - المرجع نفسه ، ص ٤٤ .

ولذلك كان منطقيًا أن نبدأ مصادرنا بنتاج الحفائر الأثرية والدليل الأثرى لمعرفة بعض المعلومات الأكثر تأكيداً ، على الأقل ، بعيداً عن الخيال الآدمى واللاموضوعية الإنسانية والهوى والغرض الفردى عند الكتابة التاريخية . لاسيما أن المادة الأثرية تغطى لنا فترة زمنية طويلة ، تغيب عنها ولم تسجلها لنا الكتابات اللاتينية كمصادر معاصرة ، لأن هذا لم يحدث لتأخر اللغة اللاتينية وانتشارها فى منتصف القرن ٣ ق.م فقط[١] . وكان كارى (Cary) محقًا حينما قال :

" Knowledge of the eariest histoiy of Italy is very largely dervied from archaeological research, which every year adds a little more information "[٢].

المصادر الوثائقية[٣] (الأثرية)

تقديم :

فى عام ١٨٩٩م ، تم العثور على عمود حجرى مكسور عليه كتابة باللاتينية القديمة (أقدم صورة لها) ، والتى ربما كانت جزءًا من قانون جنائزى للطقوس الدينية ، وبينما تؤرخ الأشياء التى اكتشفت معه ، تحت الحجر الأسود " Lapis Niger " فى موقع السوق العامة الرومانية (Forum) بمطلع القرن السادس ق . م[٤]، فإن النقش ذاته يمكن تأريخه ، بمرحلة لاحقة قليلاً نوعًا ما ، بحوالى الربع الأخير من القرن السادس ق.م بصفة عامة ، أو حتى النصف الأول من القرن الخامس ق.م . وكان هذا النص اللاتينى يشتمل على كلمة " recei " التى تساوى " regi " بمعنى : « إلى الملك » ، ويبدو أنه كان يشير إلى أحد ملوك فترة العصر الملكى من تاريخ روما القديمة ، ولكنه يمكن أن يشير ، كذلك إلى وظيفة « ملك الطقوس الدينية : Rex Sacrorum » التى كانت موجودة مع مطلع النظام الجمهورى (منذ عام ٥١٠ / ٥٠٩ ق.م)[٥] .

---

١ - عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص ٣ .

2 - Op cit., p. 57 .

٣ - هى ما تسميه مراجعنا العربية " المصادر غير الأدبية "، راجع : عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٢ أو عند الأجانب Documentary Sources .

4 - Cary-Scullard, op. cit , 43, 57 .

٥ - حول دراسة النص نفسه ، واحتمالات تفسيره ، راجع :

Palmer, R.E.A., The King and the Comitium, 19 .

كما تم الكشف عن نصوص لمعاهدات قديمة أو نسخًا من الأصول ، كان الرومان يضعونها عادة لتحفظ داخل المعابد أو بعض المبانى العامة . ومن أمثلة ذلك ما نعرفه عن أقدم معاهدة بين روما وقرطاجة فى بداية علاقتهما ببعض ، وهى المعروفة باسم : معاهدة كاسيوس (Foe-dus Cassianum)[١] ويمكن تحديد هذه المصادر كالتالى :

١ - الألواح الإثني عشر :

وهى نصوص أقدم تشريع رومانى فُقِدَ أصله ، ووصلتنا نسخ منه ظلت محفوظة كتراث مقدس عبر القرون ويُعمل به كذلك فترة ليست بالقليلة بل لمدة عدة مئات من السنين وكان قد تم جميعها لأول مرة حوالى عام ٤٥٠ ق.م ، وبالتالى صياغتها وانتشارها منذ ذلك التاريخ ، ونقل عنها كثير من المؤرخين اللاحقين مقتطفات عديدة فى كتاباتهم ولاسيما منذ عهد شيشيرون (Cicero) ولقد كانت مصادر رئيسية فى إعادة صياغة تاريخ روما المبكر فى عصرها الجمهورى[٢].

٢ - القوانين الشخصية :

وهى مجموعة الإجراءات التى كانت المجالس الشعبية تصدرها باسم " Acta populi " وكانت تُحفر - فى العصور اللاحقة - على ألواح من البرونز وتوضع فى معبد الإله ساتورنوس. ولكنه كان من المحتمل ألا يعرف الشعب الرومانى نوعًا من التشريع أو أنه عرف القليل منه فقط ، قبل القرن الرابع ق .م . وفوق ذلك فقد كانت رعاية تلك الوثائق فى مكتب السجلات الرومانى غير كاملة وبالتالى فقد أضيرت وأصابها التلف أو فُقدت كلية في القرون اللاحقة . وتجدر الإشارة إلى أنه لم يتم العثور إلا على القليل من تلك القوانين (التى كانت تُسمى بأسماء الذين أصدروها سواء أكانوا قناصلة أو نقباء للعامة ، ولهذا وصفت بأنها شخصية ، وذلك حتى نهاية العصر الجمهورى ، كما أننا ينتابنا شك حول دقة معلومات الكُتاب الرومان فى أواخر العصر الجمهورى ، ومدى معرفتهم بهذه القوانين الجمهورية المبكرة لأن النصوص الفعلية لهذه القوانين قليلاً ، بل نادراً ، ما كان يشار إليها حرفيًا ، ولكن بطريقة إجمالية أو جزئية شديدة .

---

1 - Cary-Scullard, op cit., 57, 66

٢ - كانت هناك محاولات للتقليل من قدم تلك الألواح ، وتأريخها بحوالى عام ٣٠٠ أو ٢٠٠ ق.م ولكنها فشلت ، وحول الترجمة والتعليق لها ، راجع :

Johnson-Coleman-Norton, Bourne,Ancient Roman Statues, 1961, p. 9 ff .

٣ – قرارات مجلس السناتوس :

ويوجد منها نسخ تؤرخ بعام ٤٤٩ ق.م وليس قبل ذلك وهى معروفة باسم : (Senatus Consulta) أى استشارات مجلس السناتوس ، مما يؤكد على حدود وظيفة ذاك المجلس ، وبأنه كان استشاريًا ، وليس تنفيذيًا . ووفقًا لما جاء عند ليفيوس فقد كانت صور تلك القرارات تُسلم إلى الأيديليس (aediles)[١]، لحفظها فى معبد الربة كيريس (Ceres) – إلاهة الحصاد والزروع[٢] – على تل الأفنتيوس[٣] بينما كانت تحفظ تلك القرارات فى القرنين الأخيرين من النظام الجمهورى فى معبد الإله ساتورنوس .

ومع ذلك فإنه ليس لدينا دليل مع أن مصادرنا الأدبية (التى سنتناولها بعد ذلك) كانت قد استفادت ونقلت عن تلك القرارات المبكرة لمجلس السناتوس .

٤ – السجلات التنفيذية :

وهى عبارة عن أجندة الأعمال والمشروعات التى تمت بالفعل ، والضوابط والقواعد التى صدرت خلال عملية التنفيذ (Commentarii) تلك التى أصدرها القادة الرومان والكهنة وأرادوا حفظها للرجوع إليها وقتما شاءوا . ولهذا قاموا بجمعها وتسجيلها على لفافات عـرفت باسم (Libri magistatuum pontificum) وكان بعضها قد حُفظ لدى أرشيفات بعض الأسر الكبيرة والبعض الآخر كان قد تم حفظه – على الأقل فى العصور المتأخرة – فى الخزانة العامة (Aerarium) ، أو عند بعض المكاتب التى يقررها رجال الحكم .

وهناك نوع معين من الأعمال الحكومية والتى كان له أهمية خاصة بالنسبة لكتابة التاريخ الرومانى ، ألا وهو سجلات التعداد (Census) حيث توجد إحصائيات حول أعداد المواطنين وثرواتهم منذ الفترة المبكرة من تاريخ الجمهورية الرومانية . وكثيراً ماكان المؤرخون الرومان ينقلون عنها (أى عن تلك القوائم : Censorum tabulae) بعض معلوماتها .

وتجدر الإشارة إلى أن الأرقام التى نقلوها عنها صحيحة ومؤكدة لازيف فيها ، بالرغم من أن ماكان منها ويرجع إلى ما قبل عام ٣٠٠ ق.م سيظل موضع نقاش واختلاف[٤] .

---

١ – يقابل – اليوم – وزير الداخلية فى العصر الحديث .

٢ – تقابل الربة Demeter اليونانية .

3 - Liviu s, IV. 55, 13 .

4 - Cary-Scullard, op. cit., 58 .

٥ - **السجلات القنصلية :** (Fasti Consulares + Fasti Tiumphales)

هنا يقول Cary - Scullard ما يلى :

" Nevertheless, despite their impressive grandour, these fasti are second-hand compilations from literary sources and have no independent documentary value (١) " .

الكتابات المعاصرة(*) أو اللاحقة : -

وإذا ما انتقلنا إلى النوع الثانى من المصادر الرومانية الرئيسية والأساسية للباحث التاريخى في هذا النوع من التاريخ القديم ، كان لزامًا عليه أن يكون متسلحًا بأقدم لغتين أوروبيتين وهما اليونانية القديمة وكذلك اللاتينية وذلك لاعتبارين اثنين هامين :

الأول : أن أقدم كتابة عن التاريخ الروماني المبكر - ونقصد القرون الأولى من عصر الجمهورية - جاءت على أيدى مؤرخ يونانى وهو پوليبيوس (Polybius) وباللغة اليونانية القديمة ، وغطى الفترة من ٢٢٠ - ١٦٨ ق.م بصفة خاصة ، إذ كان هو شاهد العيان الوحيد - الذى وصلتنا كتاباته أو بعضها - لتاريخ روما القديمة فى تلك الفترة.

الثانى : تمتلئ هذه الكتابات - نظراً للظرف التاريخى الذى ظهرت فيه - بالمغالطات الكثيرة والزيف والمجاملة للحاكم على حساب الحقيقة التاريخية ، وربما يجب علينا أن نلتمس العذر لأولئك الكُتّاب والمؤرخين ، أمثال ڤرجيليوس (Vergilius) ، شاعر البلاط الإمبراطورى المأجور لكتابة أقدم ملحمة لاتينية تُسبِّح بحمد الإمبراطور أوْجوستوس وعصر السلام ، والإنجاز الرومانى الكبير بهدف قومى محدد وهو غرس الانتماء الوطنى لروما وزيادة روح الفخار القومى بالأسلاف العظام وأخلاقهم (mos maior-um) ، ولمن جاء من بعده ، أمثال تاكيتوس وديوكاسيوس وكوينتوس روفوس، ولمن سبقهم أمثال شيشرون (Cicero) { ١٠٦ - ٤٣ ق.م }(٢) الذى كان قد انغمس فى

---

١ - Ibid., p. 59 .

* لم نُفضّل أن نصف تلك الكتابات بأنها أدبية ، سيراً وراء ترجمة المصطلح الأجنبى (Literary) وذلك لما يمكن أن يسببه ذلك من محدودية المعنى كما يمكن أن يُفهم في اللغة العربية ، في وقتنا الحاضر .

٢ - راجع كتاب أستاذى العظيم د. عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص ١٦ - ٢١ .

السياسة الرومانية وقدم من خلال مقالاته العديدة فلسفة سياسية تجمع بين النظرية المثالية والتجربة العملية المستمدة من واقع النظم الرومانية [١].

وكذلك نري پوليبيوس وهو - فى رأى العلامة الألمانى مومسن (Mommsen) - الشمس الساطعة فى حقل التاريخ الرومانى[٢] يحاول تبرير السيطرة الرومانية والاستعمار الرومانى للولايات الخارجية بأنه نعمة على العالم (؟!) ، وأن الإنجاز الرومانى لم يأت من فراغ أو بالحظ (Tyche) - كما كان يُظن فى البداية - بل بفضل خصالهم القومية القوية ونظمهم السياسية المرنة الدقيقة[٣] ومن بعد پوليبيوس نجد أسيلليو (Asellio) يكتب تاريخًا تحليليًا منظمًا للفترة من ١٤٦ - ٩١ ق.م ، وكذلك أنتيپاتر (Antipater) أول من يكتب بحثًا تاريخيًا عن الحرب اليونية ، بعد عام ١٢١ ق.م ، ثم يجئ كورنيليوس سيسينا (C. Sisenna) وصراعه مع ماريوس (٩٠ - ٨٢ ق.م) ، وإن كان هذا التاريخ (Historiae) يعوزه الترتيب التاريخى وسرد الأحداث ، وتغلب عليه الصبغة الأدبية .

ولما كان الأمر - هنا - ليس لاستعراض دور كل مؤرخ وأديب رومانى ، أو يونانى فى كتابة تاريخ روما القديم ، كما أنه يصعب تحقيق ذلك فى إيجاز لكثرة ما كتب عنهم[٤] ولذلك انتهز الاستفادة من خلاصة بحث أستاذى العظيم أ.د/ عبد اللطيف أحمد على ، والذى يَخلُص من ذلك كله بقوله :

" وبالإجمال لم تحرز الكتابة التاريخية بسبب التزييف والتحريف وتشويه الحقائق ، والنعرة الوطنية ، والتعصب الطبقى أو الحزبى ، إلا تقدمًا ضئيلاً حتى العصر الذهبى اللاتينى ، عصر شيشرون وقيصر (القرن الأول) وكان المثقفون من الرومان فى ذلك العصر يدركون ما تحتويه الحوليات (Annales) عن تاريخ روما الغابر من زيف ، بحيث لايمكن الوثوق بها ، ويلمسون ما فيها من قصور فى المنهج والأسلوب " [٥].

ولهذا السبب كان ضروريًا بل وحتميًا على الباحث التاريخى أن يركن أولاً إلى المصادر غير الأدبية ، أو ما سميناه نحن بالمصادر الوثائقية نتاج الحفائر الأثرية : من نقوش ، وعملة

---

١ - د . عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ٢٠ .
٢ - المرجع نفسه ، ص ٥٨ .
٣ - المرجع نفسه ، ص ٥٧ .
٤ - المرجع نفسه ، ص ص ١٣ - ٦٩ .
٥ - المرجع نفسه ، ص ١٠ .

وأوراق بردى وأوستراكا وشواهد القبور (Stelae) والتماثيل والتمائم وغيرها[١] حتى يستنطقها ، بأمانة وموضوعية ويحذر أيضًا ما تنقله لنا عن أوضاع وملابسات المجتمع الرومانى القديم .

(٣) مؤرخو التاريخ الرومانى (مثال) : -

لما كانت اللغة اللاتينية وليدة هى فقط من مواليد القرن الخامس قبل الميلاد ولم تكشف لنا الحفائر الأثرية عن أى أثر لها دُوِّن ببعض أشكال وتراكيبها إلا ذلك اللوح الذى سجل كلمة "Rex" فحسب مما أوضح - دون شك - نوع النظام السياسى الذى كان موجوداً مع نهايات القرن السادس ق.م وبدايات القرن الخامس ، فإننا أمام مصدر واحد لاغير ، وهو التراث الأدبى، والذى سجله اللاحقون من الأدباء والمؤرخون ، حتى تستطيع أن نملأ به تلك الفجوة بين تاريخ نشأة مدينة روما وبين ظهور استخدام الكتابة اللاتينية أى لمدة تصل إلى حوالى قرنين ونصف من الزمان .

ولما كانت " تواريخ " پوليبيوس[٢] قد كتبت فقط فى القرن الثانى قبل الميلاد وهو بحق أقدم وأعظم من كتب تاريخ روما منذ نشأتها وحتى تدمير قرطاجة فى عام ١٤٦ق.م : وكان حاضراً هذه الواقعة الهامة بالنسبة لتاريخ الرومان وحضارتهم فإننا لايمكن أن نعتمد اعتماداً كليًا على الأدباء الرومان قبل پوليبيوس وذلك لأن الدليل الأدبى لايُعتد به كمادة تاريخية غالبًا ، فى وجود مصدر تاريخى معاصر .

دراسة فى تاريخ پوليبيوس :

تكونت تواريخ پوليبيوس من أربعين كتابًا ، أى جزءاً . وكان هدف هذا الكاتب اليونانى، الذى عاش فترة رجولته فى روما وعاصر أخطر أحداث تطور تاريخها ، هو كتابة تاريخ روما فى الفترة الواقعة بين عام ٢٢٠ - وعام ١٦٨ ق.م ، أى من حروب الرومان مع هانيبال (Hannibal) أعظم قادة قرطاجة وحتى معركة بدنا (Pydna) والتى على أثرها أصبحت روما سيدة العالم القديم كله .

---

١ - المرجع نفسه ص ص ١٠٤ - ٢٤١ حيث أول وأوفى معالجة بالعربية عن البردى القديم .

٢ - مواطن يونانى من ميغالوپوليس فى أركاديا بالپلوپونيز ، جنوب اليونان . نشأ فى أسرة تمارس السياسة ، إذ كان هو يتولى منصبًا هامًا فى الحلف الآخى .. كان واقعيًا فى كتابته وكان صديقًا حميمًا للقائد الرومانى سكيپيو (Scipio) وأتاحت له هذه الصداقة زيارة العديد من الولايات الرومانية . ومن هنا كان يؤكد دائمًا على الأحداث المعاصرة (٢٠٠ - ١١٨ق.م) .

كانت فصول هذه التواريخ كما وصلتنا كالتالى :

الفصل ١ - ٢ : تناولت تقديم (Prólogos) للحرب البونية الأولى ٢٤٦ - ٢٢٠ ق.م ، ويبدو أن الفصول ١ - ٦ ، قد تم نشرها على القراء حوالى عام ١٥٠ ق.م، بينما لا نعرف متي تم نشر الفصول الأخرى من هذه التواريخ .

الفصول ٣٠ - ٣٩ : تناولت تطورات الأحداث عقب هزيمة قرطاجة عام ١٤٦ ق.م ، وسيادة روما من خلال وجهة النظر الرومانية .

الفصل ٣٤ : كان موضوعه الجغرافيا .

الفصل ٤٠ : تناول عرضًا تاريخيا .

وجدير بالذكر أن للتاريخ ، عند بوليبيوس وظيفتين اثنتين أولهما : تدريب رجال الدولة ، وثانيهما : تعليم القارئ العادى كيف يواجه المصائب . فقد كان هدفه الرئيسى من كتابة التاريخ هو هدف تعليمى من خلال عرض الوقائع المعاصرة والأحداث كما وقعت ، أى التاريخ الحقيقى : ومعها تحليل عن أسباب وعلة حدوثها .

لقد أرجع پوليبيوس النجاح الرومانى إلى عوامل هامة تكمن فى :

(أ) الجيش الرومانى .

(ب) التوسع القديم لروما ونموها .

(جـ) الدستور الرومانى { وفق ترتيب الأهمية التاريخية وتطورها } .

لقد كان پوليبيوس أحد معاصرى الأحداث المصيرية فى تاريخ روما القديمة لأنه شاهد وعاش نتائج الحرب البونية الثانية (Second Punic War) والتغيرات التى تمخضت عنها هذه السلسلة من الحروب بين روما وقرطاجة ، أقوى القوى العالمية فى تلك الفترة التاريخية بالقرن الثالث ق.م والتى وقفت أمام توسع روما . إنه مع مطلع القرن الثانى ق.م وبالتحديد فى عام ٢٠٢ ق.م استطاع القائد الرومانى الكبير (Scipio Africanus) أن يهزم هانيبال فى موقعه زاما (Zama) ويؤكد سيادة روما دون أدنى شك ، فى حوض البحر المتوسط . لقد عاش پوليبيوس أعظم لحظة لروما ، وهى نصرها النهائى على قرطاجة عام ١٤٦ ق.م .

وجدير بالذكر أن رحلاته العديد مع القائد الرومانى الشهير سكيبيو أفريكانوس ، السالف الذكر ، قد أمدته بمادة تاريخية كبيرة لكتابة " تواريخه " كما كان قربه من مجلس ذلك القائد

الرومانى الكبير كأحد الشخصيات الأساسية لإثراء سكيبيو بالثقافة اليونانية ، أثره فى معرفة المزيد من مسائل السياسة الرومانية العليا .

أما من ناحية سنوات عمره فليس هناك ما يدعونا لإظهاره فى الروايات التى وصلتنا وتحكى أنه عاش ٨٢ عامًا مات كان على أثر وقوعه من فوق صهوة جواده أثناء رحلة صيد .

ومما يذكر لهذا المؤرخ وضوح هدفه وأسلوبه فى الكتابة التاريخية ليس بفضل الدارسين له بل الفضل يرجع له هو لأنه هو الذى حدد كل شيء .

إنه هو الذى كتب يقول(١) :

" إن هدفى وموضوعى الوحيد عندئذ لكل ما كتبتُ هو أن أوضّح كيف ، ومتى ، ولماذا وقعت كل أجزاء العالم القديم والمعروف آنذاك تحت سيطرة روما " .

ويبدو أن هذا الموضوع وهو سيادة روما على العالم القديم فى فترة زمنية وجيزة كان قد ملك عليه عقله ، مما جعله يردد نفس الفكرة فى كتابة الأول كذلك ، حيث يقول(٢) :

" هل يستطيع أى شخص ألا يهتم أو يتكاسل عن معرفة بأى الوسائل وتحت أى نظام دستورى سيطرت روما – تلك المدينة بمفردها – على معظم العالم القديم فى مدة لا تتجاوز ٥٣ عامًا ؟ " .

---

1 - Historiae, I .1.

2 - Ibid., 3 . 1 .

الفصـــل الثانى
مقومات الحضارة الرومانية

إنه لكى تتكون حضارة ما تفرض نفسها على مجريات الأمور فى منطقتها بل وتبسط سلطانها على أمم أخرى مجاورة وينجح أهلها فى إقامة إمبراطورية لهم خارج حدودها الجغرافية ، عبر البحار ، لابد وأن تكون قد هيأتها الظروف ، من كل جانب ، بمقومات كانت دعامتها الأساسية لازدهار ذلك المكان ، فى ذلك التوقيت من الزمان ، وعلى أيدى أولئك الأفراد ومن بنى ذلك الجنس البشرى ، الذى كان يسكن تلك البقعة من الأرض .

وأنه ، لمن البديهى أن تكون لحضارة الرومان مقومات أو دعامات أساسية ، كانت السر وراء التفوق الحضارى ، فى فترة من الزمان الغابر ، تلك الفترة التى عادة ما يسميها المؤرخون بالتاريخ الرومانى أو بالأحرى تاريخ الرومان(*) أو تاريخ روما القديمة .

كما أنه ، من الطبيعى ، أيضًا أن يكون :

١ - المكان : أى جغرافية إيطاليا كجزء من حوض البحر المتوسط .

٢ - الإنسان : أى آثاره وإنجازاته القديمة وأساليب حياته وتراثه القديم .

هما العنصران الرئيسيان الفاعلان فى تكوين التاريخ الرومانى القديم على شاكلة معينة .

(١) جغرافية إيطاليا القديمة :

أولاً : جغرافية حوض البحر المتوسط :

١ - هى جغرافية حوض البحر المتوسط الذى كان همزة وصل وليس فصل بين أجزاء الإمبراطورية الرومانية ، والذى أسموه ، عن جدارة " بحرنا " (Mare Nostrum) .

---

* آثرت ترجمة " Historia Romana" باللغة العربية .. بصفة المضاف إليه أى : تاريخ الرومان كما لو كانت " Historia Romanorum " بدلاً من الترجمة الحرفية : " التاريخ الرومانى " وذلك حتى لا يخلط البعض من القراء العادين بين الرومانيين الحاليين ، أهل دولة رومانيا وبين الرومان القدماء ، أصحاب التاريخ المعروف لدارسى التاريخ القديم ، ولقد أصاب الأستاذ الفاضل الكبير د. إبراهيم نصحى ، عندما اختار لكتابه (المكون من جزئين) عنوان " تاريخ الرومان " وليس التاريخ الرومانى وإن لم يكن قد علّل ذلك فى تقديمه لكتابه الممتاز عن حضارة إيطاليا القديمة وروما المجيدة ... الكتاب من منشورات الجامعة الليبية - كلية الآداب ، الجزء الأول ١٩٧١ ، والثانى عن دار النجاح ببيروت (د.ت).

٢ - كانت مياه البحر المتوسط لا تصلح للإبحار فى الفترة من أكتوبر - أبريل من كل عام ، فى العصور القديمة ، ولكن شهور الصيف كانت هى أنسب الأوقات لرحلات السفن(١) ، حيث الأمان وهدوء التيارات والأمواج .

٣ - المناخ : كان مناخ البحر المتوسط ، فى العصور القديمة ، هو ذات المناخ الحالى فى معظم ملامحه(٢) .

ويُعتقد أن مناخ البحر المتوسط كان قد تغير فى الفترة من عام ١٢٠٠ - ٨٥٠ ق.م مما تسبب عنه جفاف ومجاعة . كما أن مستوى سطح البحر ، فى بعض المناطق ، كان أكثر انخفاضًا عما عليه اليوم .

ولكن ذلك أُتْبِع بفترة كان فيها المطر غزيراً ، ولذلك ربما كان المناخ ، آنذاك ، أكثر برودة وأكثر رطوبة لاسيما فى العصر الكلاسيكى اليونانى (القرنين ٥ - ٤ ق.م) . وإذا كان الأمر كذلك ، كما تعتقد كاربنتر ، فإن أثر تلك التغييرات لابد وأنه كان محسوسًا في إيطاليا القديمة ، البلد المجاور إلى الغرب من اليونان . ربما للسبب ذاته يعتقد بروكس (C.E.P. Brooks)(٣) أن الاتصالات بين مناطق حوض البحر المتوسط كانت قد وصلت إلى ذروتها فى الفترة من ١٢٠٠ - ٩٠٠ ق.م ولكن التغيرات ربما ترجع إلى أسباب وظروف محلية : مثل قطع الغابات وأثر ذلك علي سقوط الأمطار وتجريف التربة وتآكل مصبات الأنهار كما هو الحال فى ميناء روما القديم ، أوستيا (Ostia) الذى يوجد الآن على مبعدة ميلين من مكانه القديم إلى الداخل فى الأرض الإيطالية .

ولكن الآراء الحديثة ، مثل رأى(٤) C. Vita-Finzi ، تقول :

" Climatic conditions in Roman time were not effectively different from those of today "

---

1 - M. Cary-H. Scullard, a History of Rome, 3rd edition 1975, Great Britain, p. 3 .

2 - Ibid,. "Was substantially the same as the present time. " Cf. Rhys Capenter, Continuity in Greek Civilization, 1966,p. 1899 .

3 - Climate Through The Ages, 1926 .

4 - The Mediterranean Valleys, 1969, p. 113 .

وحول الخلفية الجغرافية للتاريخ اليونانى والرومانى فى ضوء الكتابات التاريخية والجغرافية القديمة ، راجع :

M. Cary, The Geographic Background of Greek and Roman History, 1949, p. 2 . ff .

ويغلب القول بأن مناخ البحر المتوسط ينقسم إلى فصلين رئيسيين ، لكل منهما خصائصه المتميزة والتى تختلف كلية عن الآخر :

ففى الشتاء نجد شهوره تسيطر عليها رياح قوية وعاصفة تكون غربية ، فى أغلب الأحوال، ومحملة بعواصف ممطرة من وقت لآخر . وهى عندما تغير اتجاهها وتصبح شمالية ، تكون " لفحة البرد " قد بدأت وينتج عنها انخفاض فى درجة الحرارة بالشكل الذى نعرفه فى شتاء إنجلترا . ولكن تلك الرياح المطيرة سرعان ما تذهب بمجرد أن تأتى ، ونادراً ما يمر الشتاء دون أن تظهر الشمس من خلال كتل السحب . إن البرد القارس والضباب والسماء الداكنة المظلمة والتى تظهر فى شتاء المنطقة الشمالية من حوض البحر المتوسط هى ظواهر غريبة وأجنبية على بلدان البحر المتوسط ، لأنه إذا كان شتاء تلك المناطق رطبًا وعاصفًا ، فإنه أيضًا ذو جو صحو معتدل .

وفى شهور الصيف ، فإن الرياح المهيمنة على مناخها عبارة عن نسيم شمالى دائم الهبوب، وهو الذى يجعل السموات نظيفة من السحب ، إذ يفرقها ويشتت تجمعاتها ويفتح الطريق فسيحًا لأشعة الشمس . وبتأثير الأشعة الشمسية المنبعثة فى الأجواء باستمرار فإن درجة حرارة الصيف فى بلدان البحر المتوسط ترتفع إلي مستويات استوائية ، كما أن جفاف الطقس فيها يجعله صحيًا لحياة الإنسان . ولكن ندرة الأمطار الصيفية ، تسبب الجفاف الذى يطول أكثر فأكثر كلما اتجهنا جنوبًا ، فهو فى الشمال يستغرق شهراً واحداً ، فى إيطاليا مثلاً ، ولكنه مستمر مابين ستة (٦) شهور إلى عشرة شهور فى طرابلس (ليبيا) أو مصر ، مما يكون له آثار مدمرة على المزروعات .

ومع كل ما سبق من مظاهر مناخية ، مالها وما عليها ، فإن كمية إشعاع أشعة الشمس على بلدان البحر المتوسط ، والتى تميز مناخه - وهى التى لاتقل نسبتها السنوية ، فى معظم الأحوال عن (٢٠٠٠) ألفين ساعة ، أى حوالى ٥٠٪ من إجمالى ساعات النهار في العام الواحد تعتبر ، عمومًا ، خيراً عظيمًا لتلك المنطقة من العالم { حيث يصل ذلك الإجمالى إلى حوالى ٤٠٣٢ ساعة دون حساب الفوارق بين ساعات النهار صيفًا وشتاءً } .

ولذلك فإن رياحها المنعشة والخفيفة ، وسماؤها الصافية والصحوة ، حيث تبدو أشكال الأشياء بوضوح تام فى خطوط كاملة وناطقة المعالم ، كما أن ألوانها تبدو حقيقية ، كل ذلك ساعد على تكوين ذهن صافى لسكان تلك المنطقة ، كما هيأ له مناخًا يجعله أكثر نشاطًا فى

جسم أكثر حيوية ، وحقًا أجْمَل (Cary)(١) (كارى) نتيجة ذلك كله وتأثيرها على المنطقة فى جملة واحدة : « إن بلدان البحر المتوسط كانت هى الموطن الطبيعى لحضارة عظيمة »
"The Mediterranean lands were a natural birthplace of high civilization "

٤ – السلاسل الجبلية :

وأشهرها : جبال الألب والإبنين وبيرين وسيرانيفادا وسلسلة مرتفعات شمال إفريقية ، ومعظمها حديث التكوين الجيولوجى ، نسبيًا ، ونادراً مايزيد ارتفاع أعلى قممها عن ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف قدم) كما أنها سريعًا ما تفقد رؤوسها الثلجية قبل منتصف الصيف . وكذلك فإن تكويناتها الجيرية السائدة لصخورها لا تحتفظ بمياه الأمطار المتساقطة عليها عليها طيلة فصل الشتاء ، بل تُسرِّبها إلى التربة التحتية والطبقات الدنيا ، حيث تتجمع فى خزانات أرضية ، يستفاد منها عن طريق حفر الآبار فى الأراضى المنخفضة وتنبثق العيون الطبيعية . ولكنه بصفة عامة ، هناك حقيقة غير سارة لأهل بلدان البحر المتوسط وهى أن مياه أمطار الشتاء والثلوج لا تعوضهم ، بصورة كافية ، أمام جفاف الصيف .

٥ – المزروعات :

تنمو فى الوديان ـ الأراضى المنخفضة الأشجار الدائمة الخضرة وعلى المرتفعات تنمو أشجار البلوط والصنوبر بشكل كثيف على هيئة غابات موجودة حتى الآن ، ومن أشهر وأهم مزروعات حوض البحر المتوسط الغلال (Cereals) أو الحبوب . وهى النباتات التى تغل محصولاً وافراً فى ظل نظام رى جيد ، وتنضج تلك المحاصيل فى الصيف (يونيو أو يوليو) وذلك قبل أن يصيبها فصل الجفاف بأضرار . كما أن نقص المطر فى الصيف يقلل من تنوع حدائق الفاكهة . وجدير بالذكر أن الفواكه الأوربية – فى وسط وشمال أوروبا – نجدها تنمو بالقرب من العيون أو الأنهار أو قنوات الرى . ولذلك نجد أن الأنواع الثلاثة من المحاصيل الشهيرة في حوض المتوسط هى الزيتون والتين والعنب ، هى أكثر تلك الأنواع تكيفًا مع الطبيعة والمناخ : سواء مع درجة الحرارة الملائمة صيفًا لإنضاج العنب والتين ، أو مع كمية المياه المتاحة شتاءً ، حيث زودها الخالق بجذور طويلة تستطيع بها أن تصل إلى مستوى الماء أسفل سطح التربة حينما يعز الماء على السطح ويزداد الجفاف فى الصيف .

---

1 - Op. cit., p. 4.

ثانيًا : جغرافية إيطاليا :

(١) التعريف باسم شبه الجزيرة الإيطالية :

كان الإغريق ، اليونان القدماء ، هم أول من أطلق على الطرف الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة الإيطالية اسم (Italia)[١] وذلك إبان القرن الخامس ق.م . وظل هذا الاسم ينتشر استخدامه حتى أصبح مسمى البعض هذا يجوز على الكل ، أى يطلق على كل شبه الجزيرة وليس على جزء صغير منها فقط ، وذلك قبل نهاية القرن الأول ق.م .

(٢) طوبوغرافيا[٢] إيطاليا :

تعتبر سلسلة جبال الإبنين (Appeninus) هى العمود الفقرى لشبه الجزيرة الإيطالية حيث تقها تلك السلسلة ، من الشمال إلى الجنوب ، من وسطها ، تاركة سهولاً ساحلية ضيقة على الجانبين الشرقى والغربى . ولكن تلك السلسلة لا ترتفع كثيراً ، فإن أعلى قمة بها ، وهى جران ساسو (Gran Sasso) ، أقل من عشرة آلاف قدم (١٠,٠٠٠) . أما فى الشمال ، فهناك جبال الألب ، وهى أغزر ماء (مطراً) من جبال الإبنين وتفيض أنهارها شتاء . وهذه الجبال هى التى تحد إيطاليا من الشمال مع بقية الدول الأوربية كما أنها لا تمثل - من الناحية الاستراتيجية العسكرية - حاجزاً مانعًا للمعتدين ، بالإضافة إلى أنها لاتصل إلى إرتفاعات شاهقة ، فى كل اتجاهاتها ، فضلاً عن مجرى نهرى الراين والرون بها وهما يمنحان الغازى من الشمال ممراً سهلاً صوب الجنوب . ولذلك صدق كارى (Cary) عندما قال : "It has accordingly been affirmed that the history of Italy is the history of its invaders"[٣]

والتاريخ الرومانى يسجل لنا صفحة أخرى ، تخالف تلك الصفحات المعروفة عن غزاة إيطاليا القديمة ، وهى تلك الصفحة الخالدة باسم الجيش الروماني المنتصر والفاتح لبقية أنحاء أوروبا ، حيث خرجت القوات الرومانية ، منذ منتصف القرن الثالث ق.م من تلك المعابر ذاتها فى جبال الألب وحققت الانتصارات الكبرى خارج أرضها .

---

١ - يذكر أستاذنا الدكتور إبراهيم نصحى ، (تاريخ الرومان جـ ١ ، بيروت (د.ت) ص ١٢) أن هذا الاسم اشتقه اليونان من مفردة قديمة هى " ڤيتيليو " (Vitellio) التى تعنى : أرض العجول ، وهى كناية عن غنى المراعى الإيطالية ووفرة ثروتها الحيوانية .

٢ - كلمة طوبوغرافية كلمة يونانية الأصل (Topografia) وتعنى تضاريس السطح .

3 - Op. cit, p. 5.

أما السواحل الإيطالية فهى على العكس تمامًا مما نعرفه عن السواحل اليونانية الكثيرة الخلجان الطبيعية . ولم يعرف الساحل الشرقى إلا ميناء برنديزى (Brindisi) . أما الساحل الغربى فكان ميناء أوستيا (Ostia) - على مصب نهر التيبر (Tiberis) ، هو الميناء الأوحد لعاصمة إيطاليا القديمة ، روما (Roma) . هذا بالرغم من أنه لانهر بو (Po) ولا نهر التيبر كانا صالحين لدخول السفن الكبيرة وذلك لكثرة الترسيبات الطميية في مدخل المصب ولم يكن البحر وأمواجه بقادرة على إذابة تلك الترسيبات .

وجدير بالذكر فى هذا المقام أن تربة إيطاليا تتمتع بنسبة خصوبة عالية ، حيث أنها نتاج لبراكين قديمة ، كان أشهرها بركان ڤيزوڤيوس (Vesovius) عام ٧٩م الذى أخفى مدينة بومبى (Pompeii) وأهلها من على وجه الأرض . وقد سجل التاريخ الرومانى عبر القرون أحداث براكين فى جنوب إقليم إتروريا (Etruria) ولاتيوم (Latium) .

كما أنه من المعروف ، كذلك ، أن إيطاليا بها فائض من المراعى الخضراء الطبيعية (Saltus) الصيفية ، فوق المرتفعات ، بينما السهول تتبادل تلك الوظيفة فى الشتاء حيث تنمو عليها الأعشاب الخضراء .

(٣) المناخ :

وهو مناخ البحر المتوسط بصفة عامة بالرغم مما يعتريه من تغييرات محلية عديدة :

فالشتاء : معتدل ولكن الإقليم الشمالى ، حيث جبال الألب ، تشتد فيه البرودة إلى درجة انتشار الثلوج كوسط أوربا .

والصيف معتدل مع بعض الجفاف ، حيث لايزداد فصله ، فى روما مثلاً ، عن شهر واحد .

وختامًا ، فإيطاليا ، مقارنة بالبلدان الأخرى بحوض البحر المتوسط ، **هى بلد محظوظ أرضًا ، ومناخًا وكذلك موقعًا ، في وسط البحر المتوسط** ، مما سهل عليها الاتصال ببلدانه وتحقيق طموحات أهلها الرومان ، في السيطرة والهيمنة العالمية ، وعندئذ حق لهم أن يسموه : بحرنا : "Mare Nostrum " ، كما قلنا ذلك آنفًا .

(٤) الثروات الطبيعية : وتتمثل فيما يلى من معادن وخيرات : -

أ) النحاس : من إتروريا وسردينيا .

ب) الحديد : من جزيرة ألبا (Alba) .

جـ) الرخام : فى أماكن عديدة .

د) الصلصال : من لاتيوم وإتروريا وغيرهما .

(٢) أصل سكان إيطاليا القديمة

أولاً : عصور ما قبل التاريخ الرومانى :

لما كانت الكتابة اللاتينية لم تنتشر فى إيطاليا القديمة قبل نهاية القرن السادس ق.م ، فإن الفترة الواقعة قبل ذلك من تاريخ إيطاليا يمكن ، تسهيلا علي الدارسين ، أن نسميها (كما جرت العادة مع الحضارات الأخرى من حضارات حوض البحر المتوسط) باسم : عصور ما قبل التاريخ ، أى ما قبل الكتابة والتسجيل بلغة مفهومة ، بالطبع لنا نحن الآن . إذ لايتطرق أدنى شك إلى أن تلك الأقوام القديمة التى عاشت فى تلك المناطق كانت تتحدث لغة ما حتى ولو لم تصلنا آثارها إلى يومنا هذا . ولما كان من المنطقى ، كذلك ، أن السكان الأول - مهما تضاءلت درجة تحضرهم الأولى - كانوا قلة ينتشرون على مساحة ضيقة جداً من الأرض الإيطالية إبان عصور وجودها المبكر ، فلاشك أنهم ، كبقية أجزاء العالم القديم ، عرفوا طريقهم إلى أجود المناطق الإيطالية ، بل عدة آلاف من السنين قبل أن يختلطوا ببعض وتوحدت أهدافهم ولغتهم ونمت مداركهم السياسية فى العيش داخل قري منظمة مستقرة .

ولذلك وجب علينا أن نتعرف علي أقدم مراحل التواجد الإنسانى البدائى على الأرض الإيطالية فى ضوء المادة الأثرية المكتشفة - وهو مصدرنا الوحيد عن تاريخ تلك الجماعات الأولى - حتى يمكننا إدراك مدى التطور (ومدته) - الذي طرأ على حياة أولئك السكان الأول لإيطاليا القديمة ، ولاسيما في منطقة إقليم لاتيوم (Latium) حيث مدينة روما صاحبة الفضل الأول على التاريخ الإيطالي القديم وحق لها أن تسمى حضارة تلك البلاد باسمها هى وتفرض نفسها علي بقية الأقاليم الإيطالية ، طوعًا أو كرهًا حتى غدت سيدة على إيطاليا كلها ومن ثم سيراً على المبادئ نفسها والسياسة ذاتها ، دخلت كل البلدان الواقعة على حوض البحر المتوسط تحت سيطرتها وهيمنتها فكونت - عندئذ - أعظم إمبراطورية قديمة عرفها التاريخ القديم .

١ - العصر الحجرى :

أ) رصدت المادة الأثرية المتاحة ، حتى الآن ، أن أقدم أثر لتواجد الإنسان فى إيطاليا القديمة يمكن تأريخه بحوالى ٢٠٠٠٠٠ عام تقريبًا من الآن ، أى فى العصر الحجرى القديم ، الباليوليثى (Palaeolithic) ، وذلك بالقرب من منطقتى خيتى (Chieti) وڤينوسا

(Venosa) ، كما تم الكشف عن مساكن لأقدم جماعة بشرية سكنت إيطاليا القديمة ، وذلك بالقرب من مدينة روما ، في غربها ، في موقع يُسمى الآن « توريمپيترا » (Torrimpietra) . هذا بالإضافة إلى أنه تم الكشف عن جماجم لإنسان " نياندرتال " في منطقة تدعى " ساكو باستورى (Saccopastore) ، على مقربة من مداخل مدينة روما وفى داخل كهوف جبل تشيركيو (Circeo) . كما تم الكشف عن رسومات لحيوانات على حوائط لكهوف ، ولعاج وتماثيل پاليوليثية ، لإلهة أنثوية ، ربما للإلهة ڤينوس (Venus)[١] بالقرب من بحيرة تراسيمينى (Trasimene) .

ويصف كارى[٢] الحالة التي كانت عليها تلك الجماعات البشرية الأولى التي سكنت وسط إيطاليا ، حيث إقليم لاتيوم الخصب بقوله :

" Indeed its population must have been very sparse, continually on the move , hunting and gathering food where best it could, and life was poor, nasty, brutish and short " .

وهى شهادة تعنى حرفيًا ما يلى : -

" وفى الواقع فإن السكان كانوا قليلي العدد متناثرين وفى حركة دائبة ، يصطادون ويجمعون غذاءهم ، حيث وجدوه أفضل ما يكون ، كما كانت حياتهم فقيرة وكريهة وبهيمية وحشية وكذلك قصيرة " .

ب) ولكنه فى حوالى عام ٥٠٠٠ ق.م (أى مطلع الألف الخامسة قبل الميلاد) حدث تغيير جذرى ، حيث لوحظ تحول نشاط السكان من صيادين فى السابق إلي مزارعين الآن ، وهذا التحول يتوافق مع العصر الحجرى الحديث النيوليثى (Neolithic) ، وربما كانوا قد جاءوا عن طريق البحر وعبروا البحر الأدرياتيكى واستقروا فى منطقة كوپا نيڤياجاتا (Coppa Neviagata) . وقد أدخلوا معهم - لأول مرة فى تاريخ إيطاليا القديم - بذور الغلال والغنم والأبقار ، كما قاموا بصناعة الآنية الفخارية وبنوا الأكواخ ، وبذلك عاشوا حياة أكثر استقرارًا .

---

١ - لايمكن أن يكون منطقيًا في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الإنسان الأول على الأرض الإيطالية أن يُتعبَّد إلى الإلهة ڤينوس ، إلهة الجمال والحب ، بل الأقرب أن تكون تلك التماثيل للآلهة الأم رمز الخصوبة والخير العميم ، أى تعبيراً عن الأرض ، من ناحية ، والنوع ، من ناحية أخري ، : (Theá-Mêtér) .

2 - Op. cit., p. 7 .

وبمرور الوقت ، وتعاقب القرون انتشرت تلك المظاهر الحضارية الجديدة إلى مناطق وأقاليم إيطاليا الجنوبية الشرقية . وتؤكد بقايا الهياكل العظمية لأولئك المهاجرين أنهم كانوا من أصل سكاني ينتمى إلى جنس البحر المتوسط فهم قصار القامة ورؤسهم طويلة . وظهر تطور على فخارهم بأن أصبح أكثر جمالاً ومهارة فى أشكاله وصناعته . كما انتقل البعض وسكنوا القرى بينما ظل البعض الآخر يسكنون الكهوف . وتم الكشف عن أكبر قرية ، يرجع تاريخها إلى تلك الفترة المبكرة ، أى إلى الألف الخامسة ق.م ، وكانت تحتوى على حوالى مائة تجمع من الأكواخ - كل منها محاط بخندق - على مساحة تقدر بـ ٥٠٠ × ٨٠٠ ياردة [١].

وفى ضوء حفائر كهوف جريمالدى (Grimaldi) عرفت إيطاليا نوعين من السكان :

أ) الأقدم : يحمل سمات زنجية (Negroid) أى عنصر إفريقى .

ب) الأحدث : ينتمى إلى حوض البحر المتوسط ، والمعروف باسم عنصر « كرومانيون : (Cro-Magnon) .

بالإضافة إلى وصول عناصر سكانية أخرى جاءت فى هيئة جماعات مهاجرة آتية من الشمال الأوربى قاصدة شمال إيطاليا ، فالبعض جاءوا من أسبانيا ، وسكنوا الشمال الغربى من شبه الجزيرة الإيطالية والبعض الآخر وفدوا من أواسط أوروبا وأقاموا فى وادى « بو : (Po) عن طريق ممرات الألب [٢].

وهكذا فسكان إيطاليا - حتى بداية العصر الحجرى الحديث ، مطلع الألف الخامسة ق.م - كانوا عناصر متفرقة ، إذ يختلف ساكن الشمال عن ساكن الوسط ، وبالتالى لم تمتزج تلك العناصر ببعضها البعض لأنها من أصول شتى .

ومع ذلك كان النتاج الحضارى لتلك الفترة يتمثل فى الآتى :

١ - مهارة عالية فى صنع الأدوات الحجرية : كرؤوس السهام مثلاً .

٢ - صناعة الآنية الفخارية اليدوية ونسج الأقشمة .

٣ - انتشار حرفة الزراعة وزيادة الاستقرار واستئناس الحيوان .

---

١ - وقد قامت بذلك الكشف القوات البريطانية الملكية الجوية عام ١٩٤٣ ، ومن خلال التصوير الجوى لإقليم تافوليرى (Tavoliere) فى شمال إقليم أبوليا (Apulia) جنوب شرق إيطاليا . وهذا يذكرنا بآثار أقدم تواجد لجماعات بشرية متحضرة فى اليونان ، حيث قريتي ذميني وسيسكلو (٥٠٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م) ، راجع كتابي/ تاريخ الحضارة الهيللينية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٩٠ ص ص ٤٠ - ٥١ .

٢ - راجع نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ٢٥ - ٢٦ .

وهنا ندرك قيمة هذا التطور فى مشوار الحضارة الإنسانية فى إيطاليا القديمة بالقياس لحياة التنقل وعدم الاستقرار السابقة لإنسان العصر الحجرى القديم ، ولذلك كان أستاذنا الدكتور نصحى معه كل الحق عندما أطلق على إجمالى ذلك النشاط الجديد : « إنقلاب اقتصادى »(١) لأنه ترتب على هذا شيئان :

أ) قيام القرى المحاطة بالحقول والمراعى .

ب) نمو عدد السكان نمواً كبيراً .

ويؤرخ أستاذنا لهذه الفترة بحوالى عام ٣٥٠٠ ق.م ، ويعزو فضل إحداث ذلك الانقلاب الاقتصادى إلى قدوم مهاجرين شرقيين وصلوا إلى إيطاليا من جنوبها ، من الساحل الشمالى الإفريقى (٢). هذا وإن كنا لا نميل كليةً إلى ترجيح تلك النظرية أو هذا التفسير ، لأن التطور الحضارى لم يكن حكراً على المناطق الجنوبية ، التى هى قريبة من السواحل الإفريقية ، بل شمل وسط وشمال إيطاليا كذلك ، حيث عناصر سكانية أخرى من أصول أخرى وبالتالى فإنه - على الأرجح - ، تطور طبيعى محلى ، ولاسيما لايوجد الدليل الأثرى الذى يؤكد التأثير الحضارى الشرقى فى ذلك الوقت على حضارة إيطاليا الناهضة ، التى كانت مازالت فى المهد آنذاك .

وإذا ما أكملنا مشوارنا وتحقيقنا فى المادة الأثرية المتاحة من الحفائر التى تمت حتى تاريخه، تطالعنا بقايا آثار أولئك فيما يخص مقابرهم بالملاحظات التالية :

١ - كان سكان إيطاليا القدماء ، إبان العصر الحجرى الحديث يدفنون موتاهم داخل خنادق أو حفر ، مُدعَّمة الأركان بألواح حجرية . وتعتبر تلك الوسيلة أو طريقة الدفن البدائية هذه ، هى أقدم عادات دفن الموتى عند أقدم جماعات بشرية أوروبية ، وتسبق بذلك مثيلاتها فى المرحلة المبكرة من تاريخ الحضارة الهيللادية (اليونانية القديمة على أرض بلاد اليونان (Mainland) .

٢ - كانت طريقة الدفن مصحوبة بإجراءات ثلاث هى :

أ) وضع الميت على هيئة القرفصاء ، أو كوضع الجنين داخل رحم أمه ، وهى المعروفة باليونانية (Syneistalméné stásis) .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢٧ .

٢ - المرجع نفسه ، ص ص ٢٧ - ٢٨ .

ب) دفن الميت بملابسه وحُلِّيه وأسلحته ومعه بعض الآنية الفخارية المليئة ببعض أنواع الطعام والحبوب .

جـ) دهان الهيكل العظمى (Skéleton) للميت بنوع من الغراء .

ولنا هنا وقفة قصيرة ، إذ تشير تلك الإجراءات والعادات الجنازية سؤالين اثنين يضعان الدارس فى حيرة من أمره ، ولاسيما الدارس المدقق الفاحص ، المعلل الناقد لمادته التاريخية :

الأول : يا تُرى ماذا كان القصد من الإجراء الثانى ؟ وهل يمكن لهؤلاء القوم أن يكونوا قد آمنوا بالبعث ، بعد الموت ، وبالتالى هيئوا الميت بكل ما يحتاج فى حياته الأخرى ، كما فعل المصريون القدماء ؟ .

والثانى : متى كان يتم دهان الهيكل العظمى للميت ؟ أبعد الوفاة مباشرة ، بنزع اللحم بطريقة ما سريعة (ربما بالحرق المؤقت) ، أم بعد فترة من الوقت من الوفاة وبعد أن يُبْلى الجسد تمامًا ولا يبقى منه إلا هيكله ، عندئذ يقوموا بذلك ؟ ثم ، فى النهاية ، ما القصد والغرض من عملية الدهان هذه ؟ .

وعن السؤال الأول :

أولاً : كإجابة أولية تقريرية ، ليس لدينا أى نوع من الأدلة سواء أدبية أو مادية أثرية تفرض علينا الإجابة بنعم . فليس هناك ، مثلاً ، مادة مكتوبة لمساعدة الميت ، عند قراءتها فى بعثه الثانى ، مثلما الحال فى كتاب وتعاويذ الموتى من آثار مصر القديمة . كما أننا لانجد أدلة أثرية أخرى ، كالرسوم الجدارية فى مقابر مبنية لحفظ جثث الموتى تُوضِّح هذا الاتجاه وتخيل أولئك عن العالم الآخر . وهكذا ليس هناك وجه للمقارنة بين أدلة اعتقاد المصريين القدماء بحياة ما بعد الموت ، وبين تلك الأشياء الموجودة فى مقابر العصر الحجرى الحديث بإيطاليا القديمة ولاسيما لو وضعنا كل تلك الملابسات فى الإطار العام للعصر الذى وجدت فيه، حيث لا لغة مكتوبة ، ولا أبنية مشيدة ولا استقرار تام ، بل هى أولى مراحل الهدوء النسبى لبعض الجماعات السكانية ، حيث خطت تلك الجماعات أولى خطوات التحضر بالبقاء فى مكان واحد تحت سقف أكواخ من الطين والبوص . **إذن فأى تطور ذهنى ، إيمانى يمكن أن ينشأ عن أولئك البدائيين ؟! .**

إن التوصل لعقيدة البعث لايمكن أن يتوصل إليه ذهن مشتت ، قلق يخاف على نفسه من يومه وغده ، لأنه مازال مهدداً وليست له نظم تحميه وتحافظ عليه حتى أنه لم يُخلِّف لنا رموزاً دينية ثابتة متكررة تؤكد وتحدد نوعًا واضحًا من الإيمان .

ولكن الأرجح ، فى نظرنا ، أننا أمام تصرف يعكس روح الجماعة البدائية ، حيث لاتزال روح الملكية الفردية طاغية ، وحب الذات والأنانية ، فى أعنف صورها وفقًا لمبادئ الطبيعة الإنسانية والتطور البطئ للحياة الاجتماعية ، ولذلك ومن هذا المنطلق يمكن تفسير مصاحبة الملبس والحلى والأسلحة ، حتى الآنية الفخارية على **أنه تقرير مادى للملكية الشخصية للمتوفى** ، لهذه الأشياء ، من قِبَل الجماعة التى كان يعيش وسطها ، وبالتالى ترجمة ملموسة لروح الذاتية وحق الملكية الفردية ، حتى بعد الوفاة . وهكذا كان طبيعيًا أن تضع الجماعة مع المتوفى كل متعلقاته الشخصية التى كان يملكها قبل وفاته إلى جانبه ومعه فى قبره ، وفى ذلك إقرار وتقدير وإعلاء لروح الملكية الفردية والخصوصية الشخصية فى ذاك الوقت . إنها أقدم صور مادية لروح الأنانية " Ego " الأوروبية المتأصلة فى كيانهم[١] منذ ذلك التاريخ البعيد لوجودهم ، وحتى اليوم ، حيث تؤكد النتائج الحديثة والمعاصرة - بما لايدع مجالاص للشك - تلك المقدمات الموغلة فى القدم من تاريخهم المادى ، الذى لايعرف مكانًا للروحانيات والإيمان داخل قلوبهم الغلاظ .

وعن السؤال الثانى :

يمكننا ترجيح ، بالرغم من صعوبة ذلك تمامًا ، أحد الاحتمالين على الآخر ، وهى أنهم ، فى الغالب ، كانوا يحرقون الميت حرقًا مؤقتًا سريعًا ليتخلصوا من اللحم والشحم ، ثم يلجأون إلى عملية الدهان المشار إليها سابقًا ، ذلك لأن فتح المقبرة من جديد دون علم يقينى بميعاد تخلص الجسم من لحومه وشحومه يضطرهم إلى فعل ذلك أكثر من مرة بما فى ذلك من مشقة ، وتنظيم ضرورى لمعرفة تواريخ موت كل شخص على حدة ، وهذا ما يتعارض مع معارف أولئك البدائية . ثم أنهم بذلك (فى تلك المرحلة : التخلص من اللحم والشحم والإبقاء على الهيكل العظمى وهى المقدمة الطبيعية للعملية الأخرى التى تلت تلك العادة مباشرة وهى الحرق ، أيضًا (فى عصر البرونز منذ عام ١٨٠٠ ق.م) ولكن مع الإبقاء على الرفات - الرماد المتبقى من حرق الجثة - وترك الهيكل العظمى) قد وصلوا لتقليد جنائزى أوروبى قديم ، ظل يمارس - على فترات متقطعة - فى الحضارة الأوروبية القديمة، عند ممثلها الأول - اليونانيين-

---

١ - وكذلك ظل أجداد الحضارة الأوروبية الحديثة ، وهم الرومان ، محافظين على الإرث العظيم (٤٢) وتضخمت لديهم نزعة « الأنا » أكثر وأكثر ، راجع سيد الناصرى ، تاريخ وحضارة الرومان ، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٩ .

إبان القرون الأولى من هجرة العنصر الدورى (الهجرة فى الفترة من حوالى ١٢٠٠ - ٩٠٠ ق.م) وظلت تُمارس عند اليونان ، من ناحية وعند الإتروسكيين فى إيطاليا ، لعدة قرون فى النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد من ناحية أخرى ، واستمر ذلك فى اليونان طيلة عصرها الذهبى (٥ - ٤ ق.م) .

ويتضح الآن ، بعد هذا التفسير السابق ، أن القصد المبدئى من عملية الدهان هو الحفاظ ، قدر الإمكان ، على البقية الباقية ، الصلبة ، من ذلك المتوفى ، كمحاولة جادة لتخليد ذكراه، ضد عوامل الطبيعة الفانية ، وجاء استخدام الغراء كأحسن وسائل التماسك والالتصاق لفقرات الهيكل العظمى وأجزائه ، وهى مادة لصق طبيعية لاتحتاج إلى تركيب كيميائى يتطلب معرفة معقدة .

جـ - العصر الحجرى النحاسى (Chalcolithic) :

وسُمى هذا العصر كذلك نسبة إلى ظهور استخدام النحاس المعروف باليونانية كمعدن باسم خالكوس : (Khalkós) . ولما كان استخدام الحجر لايزال قائمًا فإن العصر جعل تسميته مركبة للدلالة على وجود الاثنين معًا وجنبًا إلى جنب فى أماكن متفرقة من إيطاليا القديمة .

بدأت تلك الفترة منذ حوالى عام ٢٠٠٠ ق.م فى وادى الدانوب ، حيث يوجد معدن النحاس ، ولكنها لم تستمر طويلاً ، إذ ظهر استخدام معدن جديد وهو البرونز حوالى ١٨٠٠ق.م .

أظهرت الدفْنات التى تمت فى تلك المنطقة قيام سكانها[١] بعمل مقابر لموتاهم :

أ) إما فوق سفوح التلال والجبال .

ب) أو بناء مقابر حجرية فوق الأرض ، صغيرة فردية ، أو كبيرة جماعية كما فى جنوب ووسط إيطاليا[٢] .

وهكذا يلاحظ التطور النسبى البسيط فى نشاط السكان واهتمامهم بموتاهم وبناء قبور حجرية باستخدام الأدوات كأدواتهم الحجرية مثل الخناجر والبلط . كما استوردوا مادة الأوبسيديان من ليبارى[٣] .

---

١ - يذكر كارى (Cary) - المرجع السابق ص ٨ ، أن هؤلاء كانوا أصحاب رؤوس مستديرة وقاموا بهجرات كمحاربين من وسط أوروبا .

٢ - آثارهم تم الكشف عنها فى ثلاثة مناطق رئيسية هى : وادى الـ « بو » + توسكانيا + ساليرنو بالقرب من پايستوم فى الجنوب .

٣ - هى جزر تقع على مبعدة ٥ أميال شمال شرق صقلية وتسمى باللاتينية : Acoliae Insulae .

د - عصر البرونز :

وباكتشاف هذا المعدن حوالى عام ١٨٠٠ ق.م وذلك بخلط القصدير مع النحاس ، وتكوين البرونز ، ذلك المعدن الأيسر والأسهل لصناعة أدوات الحياة اليومية ، والحربية ضَمَنَ السكان بقاءً أطول لتلك الأدوات وشاع استخدام هذا المعدن ، فسُمى العصر باسمه من قبل الدارسين .

وجدير بالذكر أن حضارة عصر البرونز هذا قد تم العثور عليها فى منطقتين اثنتين هما

١ - المنطقة الشمالية ٢ - منطقة الإبنين .

أولا : المنطقة الشمالية :

يُلاحظ الاستمرار في إقامة قرى « البالافيتى (Palafitte) - ذات الركائز الخشبية على حواف وشواطئ البحيرات[١] - كما لوحظ ارتفاع معدل نهضتها وازدهارها ، وتُسمى حضارتهم وثقافتهم وتراثهم - فى عُرف الدارسين لتلك الفترة - باسم أحد مراكز تحضرهم وهى قرية بولادا (Polada) ، على بحيرة جاردا (Garda) ، ويُرجح أن يكون لمثل تلك الأماكن والتجمعات السكنية علاقة ، من نوع ما ، مع المساكن التى عرفناها ، بعد ذلك ، باسم تيرامارا (Terramara) ، والتى قامت فى وادى « بو » إبان عصر البرونز الوسيط والمتأخر .

حضارة تيرامارا [٢]:

كان من المعتقد ، حتى منذ خمسين عامًا مضت ، أن أصحاب تلك الحضارة هبطوا من الشمال فى اتجاه الجنوب ووصلوا إلى روما وأثروا فى فكر الرومان القدماء ونقلوا إليهم أسلوبهم فى تخطيط المدن والمعسكرات ولكنه الآن قد تأكد الباحثون من أنهم لم يكونوا سوى مجموعات سكانية محلية أقامت فى وادى الـ « پو » الأوسط ، وكانوا قد وصلوا إلى إيطاليا قادمين من منطقة الدانوب الأوسط فى الشمال الشرقى . ولا تزال بقاياهم في المدن المعاصرة التى تسمى الآن : مودينا (Modena) ، وريجيو - إميليا - (Regio-Emilia) ، وبارما (Parma) ، وبياكنزا (Piacenza) . وهى عبارة عن مجموعة من القرى ذات الأكواخ - الدائرية فى الغالب - والمرفوعة على ركائز وقوائم ومحاطة فى بعض الأحيان بخندق

---

١ - ابراهيم نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ٣٢ - ٣٤ .

٢ - وتعنى على لسان الفلاحين الإيطاليين الآن « الأرض السوداء » وكانوا يستخدمون ترابها فى تسميد محاصيلهم فى المنطقة لكثرة وجود عنصر النيتروجين به .

لحمايتها من الإنسان والحيوان والمياه . وبعيداً عنها تم العثور على مساكن ركائز (أكواخ) (بالافيتى) أصغر حجمًا من الأكواخ الأصلية المخصصة للسكنى ، كانت بمثابة مقابر لهؤلاء السكان ، حيث تم الكشف عن آنية بها رفات الموتى بعد حرقهم وكذلك « فإن مواقد الحرق (Incinerators) هى من أخص العادات المميزة لتلك الحضارة . ويفسر البعض[1] كثرة مساكن الركائز إلى تدهور المناخ فى أواخر الألف الثانية ق.م ولجوء السكان إليها كمخرج لهم من شدة البرد .

وقد سمى علماء الآثار أصحاب تلك الحضارة باسم " تيراماريكولى » (Terramaricoli) – أى سكان الأرض السوداء – وهم الذين طوروا الكثير من المهارات وأدخلوا الكثير من الاستخدامات فى الحياة اليومية :

١ – صناعة فخار مميز بزخارفه وأشكاله .

٢ – مهارة عالية فى صناعة البرونز واستخراجه من مناجم جبال الألب .

٣ – انتشار عادة حرق الموتى وحفظ رمادهم .

٤ – استخدام لغة ما أو لهجة ما من أصل هندو-أوروبى .

وتجدر الإشارة إلى أنهم كانوا أصحاب حضارة زراعية – بطبيعة الحال وأرضهم بمثل تلك الخصوبة العالية – وفلاحين تقليديين يربون الأبقار والماعز والخنازير والغنم . ومع ذلك كان منهم من استمر فى حرفتى الصيد ، صيد الخنازير البرية والغزلان والدببة ، أو صيد الأسماك. وقد تم العثور – فى آثارهم – على بقايا كتان وبقول ونوعين من القمح ، وكذلك وجدت دواليب عربات نقل . ويبدو أن الحصان كان قد أستخدم كجزء من لعبة الداما للتسلية[2] . وإذا كان هؤلاء قد استوردوا أشياءً من الشمال فإنهم أيضًا قد صدّروا منتجاتهم إلى الجنوب ، حيث بقية إيطاليا فى منطقة الإبنين . وهكذا أصبحوا هم معبراً بين الشمال والجنوب .

ثانيًا : منطقة الإبنين :

وكانت تسمى يومًا ما حضارة : « إكستراتيرامار يكولا » ، بمعنى : أصحاب حضارة تيراماركولا الأخرى ، نظراً للتشابه الكبير بين ملامح ثقافة أولئك مع السابقين الأول فى

---

1 - Cary, op . cit., p. 8 .

2 - Ibid.

الشمال مما جعل البعض يطلق عليهم تلك التسمية . ولكن الآن انتشر استخدام مسمى : حضارة الإبنين والتى امتدت على مساحة كبيرة من أرض شبه الجزيرة الإيطالية من بولونيا (Bologna) - فى الشمال - وحتى إقليم أبوليا (Apulia) فى الجنوب .

وجدير بالذكر أن حضارة تلك المنطقة الوسطى من إيطاليا ، كانت قد وصلت إلى قمة ازدهارها حوالى عام ١٥٠٠ ق.م . وكان سكان ذلك الإقليم - آنذاك - هم رعاة يعيشون حياة قبلية أقرب إلى الترحال منها إلى الاستقرار ، ففى الشتاء ينزلون إلى مساكن الأودية ، وفى الصيف يرحلون إلى المراعى على الهضاب المرتفعة[١] .

وأولئك السكان هم عبارة عن خليط من أحفاد العصر النيوليثى أى السكان الأصليين الأول لتلك المنطقة ، مع بعض النازحين المحاربين الذين ربما كانوا قد وصلوا إلى ذاك المكان فى مجموعات قليلة العدد عبر البحر (ربما من البحر الإيجى اليونانى) . وفى الغالب الأعم أنهم كانوا يتكلمون لغة ، أو لهجة هى أصل لهجة سكان ذلك الإقليم من أومبرى (Umbri) وسابيلى (Sabelli) والتى كان يتكلمها كل السامنيتس (Samnites) والسابينس (Sabines) وآخرون ، تلك القبائل المنتشرة فى وسط الإبِنّيْن . ويُلاحظ على هؤلاء السكان قلة خبرتهم بصناعة المعادن على خلاف ما عرفناه عن سكان الإقليم الشمالى .

وأخص خصائص هؤلاء هو عادتهم فى دفن موتاهم وليس حرقهم - كما فعل أهل الشمال فى حضارة تيرامارا .

وتم الكشف عن فخار أولئك في سوق روما القديم (Forum) مما يُرجِّح وجود مقر لسُكنى هؤلاء على المرتفعات القريبة حوالى عام ١٥٠٠ ق.م ، **ولكنه للأسف لا يوجد دليل قاطع على استمرار ذاك التواجد فى العصور اللاحقة** [٢].

وبمرور الوقت ، ولما كان سكان وسط إيطاليا القدماء كثيرى الحركة والتنقل - كما أسلفنا- فقد دخلوا فى علاقات جديدة سلمية وتطورت اتصالاتهم مع سكان الشمال ، أصحاب حضارة تيرامارا المعاصرة لهم ، حتى أن بعض الدارسين يعتقد بانتقال بعض سكان حضارة الإبنين إلى الشمال وإقامتهم فى قرى مفتوحة بالقرب من السواحل الشرقية الإيطالية على البحر

---

١ - وهو أسلوب الحياة ذاته حتى اليوم بين سكان تلك المرتفعات الوسطى . ولكنه منذ القرن ١٢ الميلادى، أصبحت الحياة هناك أكثر استقراراً بالاعتماد على بعض المزروعات .

2 - Cary, op. cit., p. 37 .

الأدرياتيكى . ولم يكن توجه سكان وسط إيطاليا صوب الشمال فحسب ، بل وجدوا فى النزول جنوبًا ، أيضًا ، بعض الفائدة ، فقد تم الكشف عن أماكن سُكنَى تحمل آثارهم وتتميز بحضارتهم بالقرب من تارنتوم (Tarentum) ، حيث كانت حركة التجارة قائمة بالفعل بين الميكينيين (Mykēnes) (١٦٠٠ - ١١٠٠ ق.م) - الإغريق - وبين تلك المنطقة الإيطالية فى جنوب شرق شبه الجزيرة .

كما لُوحظ أيضًا ، أن حضارة تيرامارا الشمالية وحضارة الإبنين الوسطى منذ نهاية عصر البرونز (حوالى ١٢٠٠ - ١١٥٠ ق.م) قد اقتربتا أكثر من بعضهما البعض ، وذلك فى ضوء آثار منطقة بيانيللو (Pianello) ، بالقرب من أنكونا (Ancona) إلي الداخل ، حيث تكثر عادة حرق الموتى وحفظ رمادهم فى آنية (Urnfields) وتنتشر فى أقاليم كثيرة كانت تسود فيها عادة الدفن . ومع ذلك فقد ظلت تلك العادة الأخيرة مستمرة إبان العصر التالى - عصر الحديد - فى أماكن كثيرة من وسط وجنوب إيطاليا [١].

(٣) عصر الحديد (ڤيللانوڤا Villanova)

بدايةً ، لابد لنا من التنويه إلى أنه يصعب تحديد بزوغ عصر الحديد من أزمنة عصر البرونز، فلا نعرف كيف حدث ذلك ولا متى بالتحديد ، ولكننا نعرف نتائج وآثار ذلك التغيير [٢]، عندما حل بمعظم أجزاء إيطاليا القديمة مظاهر حضارة جديدة ، سمّاها الأثريون : حضارة ڤيللانوڤا : وذلك تطبيقًا لمعالم موقع أثرى تم اكتشافه عام ١٨٥٣م فى منطقة تحمل هذا الاسم الحديث " Villanova " [٣] . والطريف في هذا الكشف أن الدليل الأثري حول تاريخ هذا الموقع هو دليل يونانى ، يخص الحضارة اليونانية المعاصرة لنهضته وازدهار ذاك الموقع الإيطالى : حيث كانت النهضة السابقة فى منطقة الإبنين تعاصر الفترة الثالثة (أ) و (ب) من تطور الحضارة الميكينية (حوالى من ١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق.م) ، كما توافق عصر الحديد فى ڤيللانوڤا ، فى إقليم إتروريا مع بداية عصر المستعمرات الخارجية اليونانية داخل

---

١ - ولمزيد من المعلومات التفصيلية عن حضارة إيطاليا القديمة ، راجع الكتب الآتية :

a) Peet, T.E., The Stone and Bronze ages in Italy and Sicily, 1909 .

b) Trump, D.H., Central and Southern Italy before Rome, 1966 .

c) Heurgon, J., The rise of Rome, 1973

2 - Cary, op. cit., p. 9.

وللمزيد راجع . Randall-MacIver, The Iron Age in Italy, 1927

٣ - تبعد حوالى (٤) أميال شرق بولونيا (Bologna) .

إيطاليا ، ولاسيما فى منطقتى إسخيا (Ischia) وكوماىْ (Cumae) ، منذ منتصف القرن الثامن ق.م تقريبًا (حوالى عام ٧٥٠ ق.م) . أما الفجوة التاريخية فيما بينهما ، أى بين ١٢٠٠ وحتى ٧٥٠ ق.م فإن الدليل الأثرى يملأها لنا ، ولكن هناك العديد من التفسيرات المختلفة لذاك الدليل الأثرى : فالبعض يضع بداية عصر الحديد عند مطلع الألف الأولى ق.م ، أى حوالى ١٠٠٠ ق.م ، بينما يضع آخرون البداية عند ٩٠٠ ق.م ، ويجيئ فريق ثالث ليضع ذلك التاريخ متأخراً عند ٨٠٠ ق.م [١].

إن هناك عاملاً واحداً فى تلك المشكلة الزمنية لبداية عصر الحديد فى إيطاليا القديمة وتتمثل فى تأريخ العلاقة بين المقابر المكتشفة لحضارة ڤيللانوڤا وبين جرار الرفات (أو الدفن الجماعى لآنية الرُفات : " Urnfields ") المكتشفة فى شمال جبال الألب . فكيف إذن يمكن التوفيق بين تاريخى تلك العمليتين المختلفتين ؟! ومن الملاحظ أن مجموعات كبيرة تحصى بالمئات من الجرار عُثِر عليها مدفونة ، تحت الأرض جنبًا إلى جنب ومحتوية علي رفات الموتى داخلها الذين كان قد تم حرقهم . ويؤرخ أقدمها بالقرن الثانى عشر ق.م . وعُثر على أمثالها فى الشمال فى منطقة بيانيللو (Pianello) وفى توماري (Tummari) بإقليم أپوليا (Apulia) فى الجنوب الإيطالى . ويبدو واضحًا أن هذا السلوك الاجتماعى ، والمعتقد الدينى كان قد بدأ من الشمال وانتشر فى كل انحاء إيطاليا القديمة حتى وصل إلي الجنوب . ولا يهمنا الخوض فى تفسيرات العلماء لمصدر هذا الطقس الجنائزى ، وهل كان تطوراً محليًا من مرحلة حضارية سابقة ، أم أنه وصل إيطاليا من وسط أوروبا .

وقد تركزت حضارة ڤيللانوڤا في موقعين كبيرين :

الأول : شمالى حول بولونيا ، والثانى جنوبى ، فى منطقة توسكانيا وشمال لاتيوم (Latium) ، وكلاهما فى النصف الشمالى لشبه الجزيرة الإيطالية .

أولاً : الموقع الشمالى :

حيث أكبر تجمع سكانى حول بولونيا ، ويمتد شرقًا حتى رمينيى (Rimini) ، حيث مفتاح وطريق التجارة القديم ، الذى كان يحمل النحاس والحديد ، من بعيد ، من إقليم توسكانيا ويعود بها مصنوعات معدنية ومنتجات زراعية . وعلى حد قول كارى ، فقد كانت تلك البقعة الشمالية من مواقع حضارة ڤيللانوڤا ، فى حوالى القرن الثامن ق.م . أشبه بإقليم برمنجهام الإنجليزى ودوره فى الصناعة البريطانية الحديثة[٢] .

---

1 - Cary, op. cit., p. 10.

2 - Ibid., " The Birmingham of Early Italy.

ونتيجة لذلك فقد زاد ثراء السكان ، وأعقبه تغييرات اجتماعية : تعاظمت القرى والتصقت ببعضها ، وحلت رابطة العشيرة " gens " محل العلاقة الأسرية (Familia) الضيقة ، ولكنه يبدو أنه لم تكن هناك ضرورة لقيام طبقة المحاربين .

أما الفن ، فكما أكدت ذلك المادة الأثرية ، كان تحت التأثيرات الشرقية والتى ربما جاءت إلى الإقليم من منطقة إتروريا حيث كانت الحضارة الإتروسكية قد بدأت فى الظهور وانتشرت مظاهرها ، وقد توسعت تلك الحضارة فعلاً ناحية الشمال ، حوالى عام ٥٠٠ ق.م وأنشأت مستعمرة لها ، وهى فِلْسينا (Felsına) ، فى موقع بولونيا نفسها ، بالقرب من مركز الحضارة الڤيللانوڤية القديمة . وظل سكان المنطقتين يعيشون متجاورين ، لكن منفصلين ، حتى اندثرت حضارة ڤيللانوڤا ، وانتقلت السيادة فى الإقليم كله إلي أيدى الاتروسكيين .

ثانيًا : الموقع الجنوبى :

وهنا نلاحظ اختلافًا واضحًا عن تطور أساليب الحياة والمعيشة فى الموقع الشمالى . فقد ظلوا يعيشون داخل أكواخ من الطين ، وتم الكشف عن ثلاثة أكواخ شبيهة بما فوق تل البلاتين[١] (Palatinus) فى روما نفسها . ويبدو أن العديد من تلك الأكواخ كان يتم بناؤه حول تل قوى فى الوسط ، وهذا ما أكدته الحفائر الحديثة فى مدينة ڤييى[٢] (Veii) فى جنوب إقليم إتروريا . ومن الأرجح ، أيضًا ، أن سكان ذلك الموقع كانوا يتمتعون برغبة قوية وميل جارف نحو تدعيم أواصر العلاقات الاجتماعية فيما بينهم أكثر مما كان مسموحًا به لهم، فنجدهم فى البداية ، يتبعون عادة الشماليين فى وضع رفات أمواتهم فى قرار آنية فخارية تحت الأرض ، فى حُفَر (Pozzo) . لكنهم بعد عام ٧٥٠ ق.م تقريبًا ، بدأت عمليات الدفن تظهر جنبًا إلى جنب مع عمليات الحرق ، وتم الكشف عن مقابر (حفر مستطيلة) تُسمَّى « فوسًا »(fossa) توضع فيها جثث الموتى دون حرق .

وجدير بالذكر أن القطع الأثرية المكتشفة ، فى تلك المقابر ، إلى جانب الموتى ، كجزء من الطقوس الجنائزية والتكريم الواجب من الأحياء تجاه الأموات ، قد أصبحت أكثر جمالاً ورشاقة ومعها العديد من الأدوات المستوردة الأجنبية ، ومن بينها بعض الفخار اليونانى كنتيجة

---

١ - أشهر وأقدم تلال روما السبعة حيث معبد جوبيتر ومقر الحكم .

٢ - تقع حوالى (١٥) ميلاً شمال روما .

طبيعية لتواجد اليونانيين الفعلي ، آنذاك ، على الأرض الإيطالية ولاسيما في الجنوب وقد أسسوا بعض مستعمراتهم بها .

وفي القرن السابع ق.م ، أصبح الدفن ، في توسكانيا ، هو الطقس الشائع لإتمام الجنازة ، وليس الحرق . وكان الميت يوضع في مقابر على هيئة حجرات محفورة في الصخر ، **كما أصبح التكريم الجنائزي المتمثل في الأدوات الجنائزية المصاحبة للميت أعظم وأفخم ، وكان من بينها العديد من الأدوات المستوردة بخاصة من اليونان ومن الشرق بعامة** ، فمنها الأدوات المصنوعة من الذهب الخالص أو من الفضة وكان الحديد عندئذ شائعًا .

ومن الواضح أن الانتقال من حضارة ڤيللانوڤا إلى العصر الإتروسكي قد تم فعلاً ، وأصبحت المدن أكثر ثراءً والناس قد بدأوا يتكلمون اللغة الإتروسكية . وهنا تجدر الإشارة إلى أنه بينما الشماليون ظلوا محافظين علي مظاهر حضارتهم القديمة حتى اندثروا ، نجد الجنوبيين يتحولون تدريجيًا إلى إتروسكيين .

أما عن لغة أولئك السكان الأوائل في إيطاليا القديمة فهناك العديد من النظريات حول أصل اللهجات التي وصلت إلى شبه الجزيرة الإيطالية . ويؤكد كاري بأن لهجات حضارة الڤيللانوڤا قد أتتها من الشمال مع عدة هجرات متتابعة حاملةً معها اللهجات الهندوأوروبية وبقية المظاهر الحضارية الأخرى في السكن ودفن الموتى أو حرقهم ، ولكنه ، أي كاري ، ذلك العلامة الموضوعي المدقق ، يضيف قائلاً(١) :

" ولكن الأسلم عند استخدامنا لكلمة « ڤيللانوڤا » أن نعني بذلك حضارة مشتركة ، دون أن نقصد بذلك تقسيمات فظة أو وحدة لعنصر واحد أو لغة واحدة " .

والأغرب ، من هذا كله هو الاعتراف الحق على لسان « كاري » (Cary) **بأن إيطاليا** ، في عصر الحديد بكل ما عرفناه عنها ، **" لم تكن مُؤهَّلةً تأهيلاً كاملاً للدور الذي قامت به في مشوار الحضارة العالمية فيما بعد : فناسُها بسطاء ، وحضارتها عادية ، وتقدمها المادي بسيط، ولم تكن تعرف الكتابة ، وفنُّها ، نسبيًا ، ليس راقيًا " (٢).**

---

1 - op. cit., p. 15.

1 - Ibid.

(٤) روما وتاريخها :

إن تاريخ إيطاليا القديم ، هو تاريخ روما (Roma) نفسها وتاريخ الرومان الذين وطدوا حكمهم فى إقليم لاتيوم وراحوا يتطلعون إلى ما حولهم من أقاليم أخرى ، ولهذا كان لزامًا علينا أن نتتبع تاريخ مدينة روما ذاتها بشئ من التفصيل أو بتركيز فى ضوء مجموعة من الحقائق نلمسها كما يلى :

أ - أنه بينما كانت طبيعة تكوين إيطاليا التضاريسى لا تسمح بوحدة سياسية لانتشار سلاسل الجبال الشمالية من ناحية ، وجبال الإبنين (Appenninus) فى وسطها من ناحية أخرى[١] مما عرقل عملية الاتصال والاختلاط بين سكان تلك المناطق . ولكن موقع روما نفسها، في وسط إيطاليا وإشرافها على نهر التيبر (Tiberis) مكنها من العمل بحرية فى كل الاتجاهات وحقق أهدافها التوسعية بفضل إصرارها وطموحاتها الكبيرة وتنفيذها لسياسات ناجحة فى علاقاتها مع خصومها ، حتى دانت لها كل شبه الجزيرة الإيطالية . ويقول د . نصحى فى هذا الخصوص :

" وإذا كان موقع روما فى وسط شبه الجزيرة عاملا بالغ الأهمية فى بسط سيادتها عليها فإن كثرة عدد سكان الجزيرة وموقعها فى وسط البحر المتوسط لم يكونا أقل أهمية فى بسط سيادة روما على عالم هذا البحر . ذلك أن روما نجحت فى السيطرة على شبه الجزيرة حتى أتاح لها موقعها ووفرة المقاتلين الذين كانوا تحت أمرتها أن تعالج أمر خصومها واحداً بعد الآخر فى الأوقات المناسبة لها ، وأن تبنى إمبراطوريتها المترامية الأطراف " [٢].

إنه بالإضافة إلي وجود أجناس أخرى كثيرة كانت تسكن المناطق العديدة فى إيطاليا القديمة أهمها الأومبرى والسابلى (Umbri, Sabelli) .

ب - وكان اللاتين (Latini) هم الذين يسكنون إقليم لاتيوم حتى أواخر القرن السابع ق.م، حيث يعيشون حياة بدائية زراعية رعوية ولم يكن لهم اتصال خارجى يذكر[٣] .

---

١ - سمّاها المؤرخ الروماني ليفيوس (Livius, XXX VI, 15) بأنها العمود الفقرى لإيطاليا فعلا ، وقال: Appennino dorso Italia dividitur .

٢ - المرجع السابق ص ٢١ .

٣ - اللاتين ، هم خليط من عناصر بشرية قديمة جداً ، امتزج بعضها ببعض على مر القرون فى ذلك الإقليم، وذلك منذ العصر الحجرى الحديث حتى عصر الحديد (Iron Age) أوائل الألف الأول ق.م .

جـ - وعندما وصل الإتروسكيـون[١] (Etrusci) وهم سكان شمال غرب روما القديمة - حوالى أواخر القرن السابع ق.م ، إلى إقليم لاتيوم ، شهدت هذه المنطقة عصراً جديداً ، بدليل دخول عناصر حضارية جديدة إلي هذا الإقليم منها المقابر المنحوتة فى الصخر ، وكذلك وجود السدود والقنوات المائية للصرف ، بالإضافة إلي ازدهار الصناعة (صناعة المعادن) واقتباس اللاتين منهم للحروف الأبجدية ، فضلاً عن تحول قرى كثيرة فى إقليم لاتيوم إلي مدن حصينة بُنيت لها أسوار من الطين ، ومنها معابد إتروسكية . كما كان لهذا العنصر لغته ونقوشه ، التى لم تُفك رموزها بعد ، وهم شعوب - كما يصفهم د. عبد اللطيف أحمد على[٢] " يكتنفهم الغموض ، لهم حظ وافر فى الحرب والتجارة وأخضعوا السكان الأصليين القاطنين حولهم دون أن يحاولوا إبادتهم " .

د - لقد كان من الطبيعى أن تفوز عناصر السكان الأصلية ، أهل البلاد الأصليين من أميـريين (Umbri) وسابلين ولاتين (Sabelli) ، وهم يكوّنون ما يمكن تسميته بالسكان الإيطاليين (Italici) ، تمييزا عن أولئك الغرباء المهاجرين إلى شبه الجزيرة الإيطالية أمثال الإغريق (Graeci) ، أو الأتروسكيون (Etrusci) وأن تظفر بالسيادة على أراضى وطنها كاملة وكانت السيادة ثمرة مجهود كل هذه الجاليات مجتمعة .

هنا تجدر الإشارة إلى دور روما الطليعى والقيادى فى تحقيق هذا الانتصار الشامل على بقية شعوب إيطاليا القديمة ، وذلك بمساعدة المدن الإيطالية الأخرى ولكن تحت زعامة روما ، فى كل الظروف . ولهذا يمكننا تجاوزاً أن نسميهم جميعًا - وليس أهل روما وحدهم - باسم الرومان (Romani) ، كاعتراف حضاري واجب لدور روما السياسى القديم .

---

١ - عادة ما نجدهم فى مراجعنا العربية باسم « الاترورييون » وهذا مالا يتفق مع التسميات اللاتينية المختلفة لهم فهم يطلقون عليهم اسم « التوسكى» "Tusci" أو (Tyrsenoi) كما سماهم اليونانيون القدماء ومازال الإقليم الذى كانوا يسكنونه ، يسمى اليوم «توسكانيا» . أصل الإتروسكيين مشكلة معقدة تثير الجدل بين المؤرخين الذين انقسموا شيعًا أمام احتمالات أصلهم الشرقى بين ليديا ، بآسيا الصغري ، أو الأصل **الإيطالى** كما يقول البعض أو فى الإقليم نفسه .أنهم مزيج من عناصر حضارية إيطالية وعناصر أخرى غير إيطالية بدليل لغتهم التى وصفتها نقوش يصل عددها إلى عدة آلاف ، هى لغة لم يتم فهمها بعد .

راجع : - Corpus Inscriptionum Etruscarum, Leipzig, I (1893 - 1902) II. Fasc., I-III, 1907 - 1936 & Meallottino, the Etruscans, Pelican 1955, pp 12 ff . 222 .

٢ - روما - الجزء الأول - تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٨ .

وإذا ما اقتفينا أثر التطور الحضارى لروما وزعامتها للشعوب الإيطالية كلها استطعنا أن نتعرف على تلك المراحل الحضارية .

كان لموقع روما - كما قلنا سابقًا أهمية كبرى فى قيامها بدور الزعامة ، فهى تقع على جزيرة فى نهر (Tiberis) التيبر ، الذى تَحدُّه من ضفته اليسرى - الشرقية - بالقرب من مصبه ، ثلاثة تلال ، ثم إلى الشرق من هذه توجد أربعة تلال أخرى تتاخم مجرى النهر ، ولهذا سميت روما « بالمدينة ذات التلال السبعة » (١).

هناك شبه اتفاق على أن روما أنشأت عام ٧٥٣ ق.م(٢) لتكون في الغالب قلعة محصنة للدفاع عن اللاتين ضد عدوان الاتروسكيين الذين يعيشون شمال نهر التيبر وربما لم تكن هذه المدينة (Roma) إلا نقطة حراسة أمامية فى ذلك التاريخ القديم من نشأة روما ، والتى نُسجت حولها الأساطير الكثيرة (٣).

---

١ - التلال السبعة هى : Caelius , Aventinus, Palatinus, Capitolinus, Quirinalis, Viminalis, Esquilinus .

٢ - كما ذكر الأدباء والمؤرخون الرومان تواريخ أخرى منها على سبيل المثال أن الشاعر (Ennius) حدد عام ٩٠٠ ق.م ، كتاريخ لروما ، بينما المؤرخ (Fabius) ذكر عام ٧٤٨ ق.م ، والمؤرخ (Alimentius) حدد سنة ٧٢٨ ق.م ، وأكد كاتو (Cato) وبوليبيوس تاريخ فابيوس . بينما ذكر M.T. Varro سنة ٧٥٣ ق.م ، وكذلك تبعه شيشرون "Cicero " (De Oratore II 12, 52) وحدد نفس التاريخ بأنه فى ١٧ أبريل عام ٧٥٣ ق.م (٤١) .

وعن تأسيس المدينة (ab urbe condita) انظر نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ٧٩ - ٨٠ .

وأثبتت الكشوف الأثرية أن أقدم التلال التى تحيط بها هى مثل Palatinus ومثل Esquilinus كما كانت الأحداث والوقائع تُؤَرَّخ بدءاً من هذه السنة ، كما كان اليونانيون القدماء يفعلون بالنسبة لتاريخ أول أولمبياد ٧٧٦ ق.م ، فكان الرومانى يقول حدث كذا بعد كذا سنة .

٣ - يذكر د . ابراهيم نصحى : تاريخ الرومان ، الجزء الأول، منشورات الجامعة الليبية - كلية الآداب ، ١٩٧١ ص ص ٧٦ - ٧٩ ، أسبابًا أخرى عن نشأة روما كبناء الملاك مارس (Mars) الإله الخامس لروما ولكن أشهر هذه الأساطير تقول بأن أينياس (Aeneas) أحد أبطال حرب طروادة ، بين الإغريق وأهل المدينة، حوالى بدايات القرن الثانى عشر ق.م ، فر هربا بعد سقوط مدينته وجال فى البحار ثم استقر به المقام على الساحل الإفريقى الشمالى - عند نفس المكان الذى قامت عليه مستعمرته قرطاجة الفينيقية فيما بعد - وهناك قابل الملكة ديدو (Dido) التى أحبته حبًا لا حدود له - وصفه فرجيل (Virgil) الشاعر اللاتينى فى ملحمته الإنيادة - ولكنه هجرها فما كان منها إلا أن انتحرت وواصل هو رحلته إلى ساحل إيطاليا ونزل فى سهل لاتيوم وأخضع القبائل الموجودة به وأسس مدينة (Lavinium) ثم أسس مدينة فينيقية (alba longa). وبعد مدة ومضى عدة قرون أنشأ أحد أحفاده ويدعى (Romulus) مدينة روما قبل القرن الرابع ق . م .

وفى ضوء الدليل الأثرى الذى كشف النقاب عن أقدم أماكن للسكنى فى هذه المنطقة بذاتها ، تستطيع القول أن أقدم الجماعات البشرية التى عاشت فى إقليم روما (Roma) القديمة ، كانت فوق تل بالاتينوس ، حوالي عام ٨٠٠ ق .م .

وفى القرن السابع ق.م ، لابد أن سكان إقليم لاتيوم توحدوا أمام الخوف من عدوان الإتروسكيين ، وبالتالى « لقد كانت للإتروسكيين يد فى إنشاء روما الباكرة . وذلك فى ضوء الدليل الأثرى من تحصين تل الكابتول وإنشاء سور حول أحياء المدينة روما وهى أعمال ضخمة لابد من أن تقتضيها أمور ملحة مثل ضرورة اتخاذ العدة لرد خطر داهم كخطر عدوان اتروسكى » (١).

إن التاريخ الرومانى القديم ، بحق ، تاريخ حافل بالمواقف الكثيرة التى تؤكد دائمًا سياسة المسئولين عن روما ومصيرها ، كما تكشف عن تفكير عملى واضح لهؤلاء وحكمة قادتهم وصلابة مواقفهم ، واستعدادهم المستمر للتضحية فى سبيل مصلحة الجماعة ، وهو السلوك المعروف لديهم باسم (devotio) .

وإذا ما سأل سائل ، وما هو السر وراء كل هذا النجاح المنقطع النظير لمدينة صغيرة ، مثل روما (Roma) حتى تصير أقوى المدن الإيطالية القديمة وتفرض سلطاتها على من جاورها من مدن إقليم لاتيوم (Latium) وتتحدث باسم كل مدن العصبة اللاتينية أو البلديات (Municipia) فى شمال وجنوب إيطاليا حيث الوجود اليونانى منذ القدم فى أقوى وأغنى مدينة تارنتوم (Tarentum) ؟ .

إنه ذلك الصراع الطويل الذى خاضته روما من أجل البقاء ، هو الذى علم ساستها وكبار شيوخها الذين يديرون دفة الحكم فيها ، أصول الدبلوماسية الحقة ، فاتبعت سياسات مرحلية واقعية إلى أقصى درجات الواقعية والصلابة ، والقوة فى اتخاذ القرارات ، تصل إلى حد التخلى عن كل معانى الشهامة .

إن سر عظمة روما ونجاحاتها المستمرة ، هو فى الشخصية الرومانية ذاتها ... هو فى السلوك الشخصى للأفراد ، وبصفة خاصة لساسة روما وقادتها طوال تاريخها الطويل ، الذى بلور تلك الشخصية وخلّد مواقف صراعها الدائم لإثبات وجودها وأكد أنها كانت على حق ،

---

١ - د . نصحى ، المرجع نفسه ، ص ٨٣ .

وأنها تستحق ما وصلت إليه من مجد في فترة زمنية قصيرة ، إذا ما قيست تلك الفترة (وهى من ٢٦٤ - ٢٠٢ ق.م) بتواريخ حضارات أخرى ، فإنها تعتبر بحق - كما يعتقد پوليبيوس (Polybius) المؤرخ اليونانى - أمر لا نظير له ، فغدت فى فترة لا تتجاوز الخمسين عامًا أقوى مدينة آنذاك ، وحصلت على السيادة العالمية فى حوض البحر المتوسط عقب انتصارها النهائى على قرطاجة فى عام ١٤٦ ق.م **فما هى إذن ، خصائص الشخصية الرومانية ؟** .

يمكننا إيجاز أهم خصائص ومقومات الشخصية الرومانية فيما يلي :

(٥) مقومات الشخصية الرومانية :

(أ) الجانب العملى :

يقول كاتو الأكبر[١] "إن الرومانى المثالى هو الرجل القوى المقدام الفعَّال : Vir romanus est fortis et Strenus " ويقول مؤرخ رومانى كبير - في فترة لاحقة - إن جميع المشروعات والأعمال لابد أن تحقق غايات مفيدة فى الحياة : " adutilitatem vıtae " أى أن أى عمل يقدم عليه الرومانى ، يجب أن يكون موجهًا إلى تحقيق هدف محدد يستفيد منه ويجعل حياته أكثر سهولة وراحة له ، وتخفيفًا من أعباء الحياة على جماعته ومدينته . وهذا دليل كافى على نظرة الرومانى العملية ، والواقعية التى تحدد هنا المصلحة والمنفعة ، وقد أوصلت هذه الروح العملية للرومانى إلى ميدان القتال والقانون والحكم ، فخلقت منهم قادة مطيعين ، واضحى الهدف (إذ كان الجيش الرومانى يدخل المعارك لا من أجل الغنائم بل لتحقيق أهداف عملية واضحة) ورجال قانون غاية فى الدقة والضبط ، ينفذون قوانين هدفها الأول تحقيق المنفعة للصالح العام ، والضرب بقوة على كل خارج عن تلك القوانين ، كما جعلت منهم رجال حكم وإدارة غاية فى الشدة والإصرار علي بلوغ الهدف .

(ب) القوة والصلابة :

يقول أشعر شعراء الرومان ڤرجيل (Virgılius) وكان شاعراً للقصر الإمبراطورى فى عهد أوغسطس " **أننا شعب شديد المراس ، نحمل أطفالنا إلي الأنهار ونعوِّدهم قوة الاحتمال فى المياه الثلجية القارصة وهم فى الصبا يقضون الليالى ساهرين على الصيد ، ويقطعون**

---

١ - شخصية رومانية نموذجية ، لبقة وصارمة ونزيهة (٢٣٤ - ١٤٩ ق.م) كان لها دور كبير فى سياسة روما فى تلك الفترة . خدم بلده فى ميادين عديدة فى السياسة والجيش والمجتمع .

(أخشاب) الغابات . ورياضتهم هي كبح جماح الجياد ، وقذف النبال بالقوس ، فإذا بلغوا سن الشباب ، يزداد جَلَدهم على المشاق واحتمالهم للضنك فيُسَخِّرون الأرض بمعاولهم أو يهزون المدائن في الحرب "(١) .

ويقول نفس الشاعر مقارنًا مواطنيه بالشعب اليوناني الذى يمتاز بالخيال الخصب ، والإحساس الطيب بالجمال ، والسعى وراء الكمال « ..... ، **ولكن أنت أيها الروماني ، ضع نصب عينيك أن تسود الشعوب بسلطانك ، فتلك هي رسالتك : أن تفرض سنة السلام وتصفح عن المقهورين ، وتقهر المتجبرين " (٢).**

كذلك نجد كاتو الأكبر (Cato maior) ، قبل ڤرجيل بحوالى مائة عام أو أكثر ، ينصح ابنه - في الكتاب الذي وضعه حول نشأة روما (Origines) - فيقول : « إن الملمّات تروضنا وتعلمنا السلوك الرشيد ، بينما تضللنا الإنتصارات عن سبيل الرشاد " . وهو بهذا يؤكد علي خاصية واضحة في طبيعة الشعب الروماني - وبصفة خاصة أهل روما وقادتها وساستها - وهي ذلك الإصرار ، والصلابة في المواقف ، مهمات يمكن أن يحدث من نكسات وهزائم في معارك ، ولكن دونما استسلام للواقع ، فكانوا يخرجون بدروس مستفادة من كل نكبة ، ويعودون أكثر قوة ، وأشد إصراراً على تحقيق النصر المبين .

والآن ننتقل لنرى سويًا ، تلك المبادئ والقيم التى كان الرجل الروماني يتربى عليها في أسرته ، وهي نواة أي مجتمع من المجتمعات ووراء نجاح أو انهيار أية جماعة بشرية ، وحيث يتعرف المواطن منذ نعومة أظافره على سلوكيات معينة ، كان عليه أن يقلدها ويحافظ عليها ، وهي السر الحقيقي وراء عظمة روما ، كمجتمع فرض نفسه على كل من حوله ، بل لم يكتف بذلك فخرج إلى بلدان حوض البحر المتوسط وفرض سيطرته عليها الواحدة تلو الأخرى ،

---

١ - ڤرجيل . الإنيادة ، الكتاب ٩ ، سطور ٦٠٣ - ٦٠٨ ، الترجمة العربية هي عن د . عبد اللطيف أحمد على : روما ، الجزء الأول ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ص ٧ - ٨ النص اللاتيني هو :

“ dutum a stripe genus natos ad flumina primum “ deferimus saevoque gelu drramus et undis; venatu invigilent pueri silvasque fatigent, flectere ludus equas et spicula tender cornu; at patiens operum parvoque adsueta iuventus aut rastris terram domat aut quatit oppida bello“.

٢ - الإنيادة ، الكتاب السادس ، سطور ٣٥١ - ٨٥٣ .

“ Tu regere imperio populos, Romane, memento (haec tibi erunt artes) pacisque imponere morem, parcere subiectos et debellare superbos “ .

منتهزاً الفرص السياسية المواتية لبسط سلطانه ونفوذه باسم الشعب الروماني كله ، وتحت قيادة رجالات روما بصفة خاصة . إنها هي روما ذاتها وأهلها ، الذين هم وراء كل نجاح حقيقى سواء فى داخل إيطاليا القديمة أو خارجها وراء البحار ، عندما كانت متمسكة بمبادئ نشأتها ونهضتها الأولى ، وهي هي نفسها التى انهارت خلقيًا ، فانهزمت سياسيًا وتدمرت عسكريًا وتقلصت ممتلكاتها الخارجية ، عندما تناست أسرار نجاحها الأولى .

فكيف كانت إذن حياة الأسرة فى روما القديمة ؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نتعرف على مفهوم الأسرة والأفراد الذين يكوِّنوها ، ودور كل فرد فى تلك الجماعة الصغيرة ، وأكثرها تأثيراً على المجتمع بأسره .

(جـ) الأسرة[1] (Familia)

تقديم :

يقول أحد علماء التخصص وهو بترى (Petrie) :

" The keystone of the Roman state " was the family (familia), and the head of the family (pater familias) exercised, in the eye of the law, an almost despotic authority over the other members of it. "

بمعنى :

١ – إن حجر الزاوية فى الدولة الرومانية كانت هى الأسرة ، ومارس رئيسها غالبًا – تحت سمع وبصر القانون – سلطة سيادية على كل أعضائها الآخرين .

٢ – وكان الأب هو المالك الوحيد المعترف به – أمام المجتمع الروماني – لكل ثروات الأسرة . وإذا سمح لابن أو عبد أن يمتلك شيئاً فهذا تفضُّل منه وتنازل كبير ، ويُعرف ذلك باسم "Peculium" ، أى جزء صغير من الممتلكات العينية .

٣ – كما كان يجوز له – في بعض الأحايين – أن يصدر أمراً بالموت على الزوجة أو الابن، أو العبد ، هذا بالرغم من تدخل القانون ، تدريجيًا بمرور الوقت ، كحماية أعضاء الأسرة ضد حالات التطرف الشديد والمطلقة لسلطة الأب .

---

١ – هذه الكلمة باللاتينية (Familia) تعنى " مجموعة / تجمُّع / الخدم (Famuli)، مما يعنى كل ممتلكات الرجل المنزلية ، وليس فقط الزوجة والأطفال ، راجع : Petrie, A., An Introduction to Roman history, Literature and antiquities, (New Edition 1956), p. 87 .

كانت تتكون من :

١ – الأب (Pater) وهو أكبر الأعضاء سنًا ، وله سلطة مطلقة في تصريف شئون الأسرة، فهو بالنسبة للأسرة (Pater Familias) ، أي رب الأسرة ، المسئول الأول عنها وعن كل أفرادها ، ولهذا كان يزاول سلطة الأب على زوجته وأولاده ، وهذا ما تعرفه باصطلاح (patria Potestas) أما على العبيد فكان يزاول سلطة " **السيد**" (dominica potestas) ولكن على الأتباع أو الموالى سلطة "**الحماية**" أو الولاية (Patronatus) .

أما سلطة الأب على الزوجة فتعنى "مانوس" (Manus) وهى سلطة وضع اليد بحق الزواج منها والارتباط بها . فأي تشبيه أسوأ من ذلك فى نظر نساء اليوم !!! . وعندما كان الأمر يتعلق باتخاذ قرارات نهائية بخصوص عضو من أفراد الأسرة ، كان العرف الرومانى ، يقف حائلاً دون سلطة الأب حيث كانت المطلقة ، فيرضخ إلى رأى مجلس الأهل والأقارب[١] كانت سنة السلف (mos maiorum)، بمثابة القانون الواجب النفاذ ، بدافع الالتزام الأدبى ، واحترامًا للتقاليد الجماعية .

٢ – الأم (Mater) أو الزوجة :

كان دورها قاصراً على أعمال المنزل ، كالطهى وغزل الملابس الصوفية . فلم تكن – مثل المرأة المصرية الفرعونية – تساعد زوجها في الأعمال الزراعية والفلاحة فى الأرض ولهذا فإن اللغة اللاتينية لم تعرف مفرداتها لفظة (فلاحة) ، بل فلاح فقط (agricola)[١] .

كان للزوجة الرومانية تأثير غير مباشر على مجرى الأمور فى حياة الأسرة ، وكان لها حرية التصرف داخل المنزل ، فهى صاحبة الكلمة العليا داخل جدرانه . كما كان لكل فرد فى الأسرة عمل معين ، يجب عليه أداؤه . فضلا عن الواجبات الدينية تجاه آلهة الجماعة ، تلك الآلهة التى توفر لها الأمان والحماية وتحل بفضلها البركة والرخاء للأسرة جميعها .

٣ – الأبناء (Liberi) :

وهم أبناء الأسرة كلها سواء أكانت الأسرة صغيرة ، أم كبيرة يعيش فى كنفها أبناء كمتزوجين للجد الأكبر ، الذى يملك كل السلطات . وكان عملهم يتمثل في مساعدة الأب

---

١ – ما أقرب هذا التصرف بما كان يحدث عندنا فى الأرياف عند وقوع مشاكل عائلية ، فيشارك فى حلها مجلس العائلة كله وتعتبر قرارته واجبة النفاذ .

٢ – هذه ملاحظة لغوية ، ذات مدلول اجتماعى حضاري ، توصلنا إليها من خلال تدريس اللغة اللاتينية لسنوات عديدة لطلبتى فى أقسام اللغات الأوروبية الحديثة .

فى إنجاز الأعمال خارج المنزل ومساعدة الأم بداخله ، فكانت البنات دائمًا داخل المنزل لا يخرجن منه أبداً ، حتى ولو للزيارة أو للاستضافة ، بدليل أن اللغة اللاتينية لا يعرف قاموسها كلمة مؤنثة لكلمة ضيف (Conviva) ، التى تستخدم للنوعين .

٤ - العبيد (Servi) :

وهم ، أصلاً ، إما أسرى حرب ، وأبناء أسرى ، أو أشخاص أصبحوا عبيداً لأنهم لم يستطيعوا الوفاء بديونهم ، فيظلوا هكذا إلى أن يستطيعوا تأدية ما عليهم ، أو أن يدفعها عنهم أحد ويعتقهم . هذا ما يذكرنا بعصور الجاهلية ، فيما قبل الإسلام عندنا ، كما يدل دلالة واضحة على القسوة فى المعاملة مع غير القادرين من أبناء الطبقات الاجتماعية الفقيرة . وكان الأب ، كبير الأسرة التى يعملون فى ظلها ، يمارس عليهم سلطة "السيد" (وهى المعروفة فى اللاتينية (dominica potestas) كما ذكرنا من سابقًا .

٥ - الأتباع أو الموالى (Clientes) :

هم أناس أحرار وليسوا عبيداً ، ولكنهم يصاحبون أسيادهم دائمًا ، ويقومون على خدمتهم، ويكونون دائمًا رهن إشارتهم فى كل شيء ، وذلك لبقاء ما يجود به هؤلاء الأسياد (domini) عليهم من نعم وهبات ، ولهذا فإنهم بذلك كانوا يربطون مصيرهم بحياة سيدهم ومصيره ، كما كانوا يتواجدون باستمرار حيث يوجد سيدهم ، فيترددون على بيت الأسرة ويلبون طلباتها ، آملين فى حمايتها لهم ورعايتها إياهم . وكانت سلطة رب الأسرة عليهم سلطة "الحامى" أو "الولى" (Patronatus) . إنه نفس ذات النظام الاجتماعى الذى سمعنا عن جزئية منه فى صدر الإسلام وهو المعروف بالموالى .

وإذا ما تطرقنا إلى المعتقد الدينى للأسرة ، وممارستها الإيمانية داخل حدود البيت ، والآلهة التى يعتقدون فى مساعدتها وتأثيرها عليهم ، فبفضلها ينجحون ، وبرعايتها تفلح أعمالهم ، ويضمنون سلامتهم ، وتتحقق رفاهيتهم ويزيد خيرهم . فمن هذه الآلهة ، ما يلى : -

١ - ڤستا (Vesta) :

ربة النار والموقد ، حيث كان الموقد من ضروريات المنزل الريفي (Villa) بسبب برودة الشتاء القارس كما تفرضه الطبيعة فى بلادهم .

٢ - لارس (Lares) :

وهى أرواح الأرض الزراعية - أو كما يظن البعض ، فهى أرواح الأسلاف الراحلين - التى تظل حية تطوف بأماكن إقامتها فوق الأرض وقبل مماتها ، لتبارك الأحفاد . وكان

طبيعيًا أن يعتقد الرومانى القديم فى آلهة تخص الأرض التى يزرعها ويعيش علي ريعها طول العام ، وكان لابد كذلك أن يتقرب لها ويشكرها على خيرها العميم الفياض كل موسم وعند الحصاد .

٣ - پناتيس (Penates) :

وهى أرواح غرفة التموين والتخزين التى لايخلو منها أى بيت ، حيث كانت تتجمع كل ضروريات الحياة الريفية البسيطة ، من ألبان وجبن ولحوم مجمدة محفوظة ، وكل أنواع المحاصيل التى تجود بها أرض الأسرة وكانت الأرواح حامية هذا المكان .

٤ - جنيوس (Genius) :

وهي الروح الحارسة ، وبصفة خاصة ، لرب الأسرة . هنا يبرز دور الأب ، كبير الأسرة ومدى خوف أهله عليه ، وحرصهم على أن تتولى حمايته ومباركته روح مسئولة عنه ، وذلك بسبب خطورة دوره وأهميته بالنسبة لأفراد الأسرة ، الذين يعتمدون عليه فى كل شيء ، ويتوقف عليه هو مصير الأسرة بكاملها ، بما في ذلك العبيد والموالي . لقد كانت الأسرة الرومانية ، كما تستطيع أن تفهم ، أسرة أبوية ، أى ينفرد الأب فيها بالسلطة علي جميع أفرادها ، وإليه هو ينتسبون ، ولهذا كان اعتقاد أفراد الشعب الرومانى القديم ، بأن هناك روحًا مسئولة عن توفيق الأب ونجاحه فى كل خطواته من أجل سعادة وخير الأسرة كلها وكانت تلك الروح تباركه فى صحته وعمله اليومى .

هنا تجدر الإشارة إلى أن هذه الأرواح ، لم تبلغ - لدي العقلية الرومانية البدائية - مبلغ الآلهة ولم ترق إلى مصافها ، ولكنها كانت ذات تأثير بالغ فى حياة الجماعة ، والأسرة الرومانية فى مراحل تطورها الأولى ونهضة المجتمع الزراعى المحدود ونموه البدائى .

إن أهم ما يمكن أن يسجل لتلك الصور البدائية لحياة الجماعات والأسر ، كبيرها وصغيرها ، هو ذلك الاحترام غير المحدود ، الذى يصل إلى درجة التقديس ، والالتزام بالواجب ، دونما مناقشة أو معارضة لسنة السلف تلك التى كانت بمثابة القانون ، في الوقت الذى لم يكن للقانون الوضعى أى وجود ... وكان العرف والعادة ، أى كما تعارف الناس وتعودوا على مر العصور ، هى القانون الذى لا ردة عنه .

- صور للحياة اليومية لأسرة ريفية :

كانت الحياة الريفية ، كما هو معروف ، ونحن هنا فى مصر لسنا بغرباء عن تلك الحياة ، كثيرة المطالب العملية ، خارج المنزل ، أى فى الحقل أو المزرعة . وكان لابد من توزيع

الاختصاصات على كل الأفراد القادرين على العمل ليقوم الأب (Pater familias) ويصحبه أبناؤه وعبيده ومواليه إلى الحقل حيث يتولى كل فرد نوعًا من متطلبات حياة الفلاح والنشاط الزراعى ، ثم يعودون قبل الغروب إلى منزلهم ، حيث يجدون سيدة البيت قد أعدت لهم الطعام فيجلسون جميعًا ، فى مكان واحد ، يتقدمهم رب الأسرة ، الذي يبدأ فى تلاوة صلاة شكر للآلهة . وكانت تلك الصلاة بسيطة وتتكرر عند كل وجبة ، ويشارك فيها جميع الحضور، وكان رب الأسرة ، عندئذ ، بمثابة الكاهن فى معبد ، والأولاد سدنته . وهكذا تتضح سلطة الأب المطلقة على الأبناء وكل من حوله ، ولكن سنة السلف (mos maiorum) كانت هى الشيء الوحيد الذى كان يحدها ويقيدها .

وحينما كانت تنشب المنازعات والخلافات كان الأب يقوم أيضًا بدور القاضى فيفصل فى هذه المنازعات ، ويعاقب مرتكبي الجرائم ، إلا ما كان منها ما يتعلق بمصير خطير ، مثل الإعدام أو الطلاق ، مثلاً ، فكان الأب يلجأ قبل اتخاذ أى خطوة نهائية بشأنها - كما يقتضى العرف وسنة السلف - إلى عقد مجلس من الأقرباء ، لاتخاذ مشورتهم - بالضبط كما كنا ، ومازلنا نفعل فى ريفنا المصرى ، فيجتمع مجلس العائلة لفض مثل هذه المنازعات . ويصبح قرار هذا المجلس ملزمًا لكل الأطراف ويجب طاعته فوراً .

هكذا ، إذن ، كان الفرد يتعلم الالتزام ، والطاعة الواجبة لكبار السن ، آباء الأسر داخل الجماعة أو المقاطعة الواحدة (pagus) حيث يعرف ماله وما عليه ، فينشأ عضو عامل ، نافع، يُعتَمد عليه ، يعرف النظام والواجب ، اللذان كانا بالفعل من أهم خصائص الفرد الرومانى ، داخل أى تجمع بشرى ، حيث تربى على ذلك ، فكان بحق ، أهم دعائم وركائز المجتمع الرومانى الكبير ، الذى ساد الجماعات الإيطالية الأخرى ، وصبغهم بصبغته ، وأخذ بيدهم ، فكانوا هم كذلك سنداً له فى الخطوات التى تلت سيادة روما ، فخرجت الزعامة من مدينة روما ، وفرضت نفسها على المدن الأخرى ، المدينة تلو المدينة ، والإقليم تلو الإقليم ثم ما لبث العالم القديم أن دان للشعب الرومانى وكونت روما بفضل زعامة أبنائها الأشداء وساساتها الحكماء ، أعظم إمبراطورية واكتسحت الممالك القديمة فى شرق وغرب البحر المتوسط وأدخلت العديد من الولايات تحت سيادتها وسيادة الشعب الرومانى .

نموذج لأسلوب تربية المواطن :

لقد وجدنا من الضرورى أن نعرض نموذجًا واحداً للتدليل على طريقة أو أسلوب تربية المواطن الرومانى ، لأنه من خلال ذلك النموذج ، ربما يكون من الأيسر والأسهل تقييم تلك الخلال الحميدة التى اتصف بها ذلك المواطن فى تلك الحضارة الغابرة .

إنه لمن المؤسف حقًا أن نقرر سوء حظنا اليوم فى عدم العثور على وثائق معاصرة ، يمكنها أن تشفى غليلنا عن تلك الفترة المبكرة من تاريخ الشعب الرومانى ، ولكننا سنستعين ، ببعض ما كتبه لنا واحد من أعظم الشخصيات الرومانية على الإطلاق ، وهو كاتو الأكبر (Cato Maior) ، لابنه حتى ينصحه ببعض تجاربه الحياتية لعله ينتفع بها . وكان ذلك فى القرن الثانى ق.م أى بعد ما لا يقل عن ٢٥٠ عامًا من البدايات الأولى لنهضة مدينة روما وازدياد قوتها بالنسبة لبقية المدن اللاتينية في نفس إقليم لاتيوم (Latium) . وتتلخص هذه النصائح فى الاحترام والطاعة والتواضع ، واجتناب ما هو مخل بالآداب . فقد كان هو نفسه حريصًا على ألا يتفوه بلفظ أمام ابنه كما لو كان حاضراً أمام عذارى الربة فستا (Vesta)[1].

كان كاتو الأكبر قد ترك لابنه كتبًا فى التاريخ حتى يعرف الابن سيرة السابقين وأمجادهم ويتخذهم قدوة له ، ويتعلم الواجب تجاه مدينته ووطنه ككل ، وإن كان ذلك الإحساس قد ضعف إلى حد ما فى الفترة التى نحن بصددها ، أى فى القرن الثانى ق.م ولهذا وجد كاتو ضرورة فى تعليم وتربية ابنه عليها كما كان السلف الصالح فى أيام المجد الأول . ولكن الدولة وزعماءها حاولوا جاهدين بث روح الواجب والانتماء وحب الوطن ، فى لقاءات كثيرة على لسان المشاهير من العظماء والأدباء وعظماء القادة ... وتحقيقًا لهذا المبدأ والهدف ، فقد كان يُسمح للشباب حضور جلسات مجلس الشيوخ (Senatus) ، أعلى هيئة تشريعية فى الدولة .

إنه من الطريف حقًا ، أن نذكر هنا رواية ، وصلتنا عن كاتو الأكبر ومفادها أن ابنًا صاحب أباه إلى مجلس الشيوخ وحضر معه جلسات ذلك اليوم ، ولما عاد إلى البيت ، سألته أمه : ماذا كنتم تناقشون اليوم ؟ فرفض الابن الإجابة ، مخبرا والدته بأنه لا يجب الإفصاح عن ذلك أو نقله إلي أحد ، فما كان منها إلا الإلحاح بعد أن زاد فضولها لمعرفة موضوعات مناقشة مجلس الشيوخ . صمت الابن لحظة وخطر على باله - تفاديا للوقوع فى خطأ إفشاء أسرار المجلس - أن يخبرها بقصة خيالية من بنات أفكاره فقال لها : « كان المجلس يناقش عما إذا

---

١ - جاء فى كتاب د. عبد اللطيف أحمد على « روما ، تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية ، ص ٦٤ ، أن هؤلاء العذارى ، كن بنات صغيرات يُخترن من بين الأسر الكريمة ليقمن على خدمة ربة النار المقدسة فى المعبد الخاص بها . وقد بلغ عددهن ست فتيات وكن يخدمن الربة ثلاثين عامًا . يبقين أثناءها عذاري ، لا يفرطن فى عذريتهن ، وكان الكاهن الأعظم يوقع عليهن الجزاء إلى حد دفنهن أحياء ، إذا فرطن فى عفتهن .

كان من حق الرجل أن يتزوج .. بامرأتين أو أن تتزوج المرأة برجلين " فانزعجت الأم كثيراً وخرجت لتوها لتخبر صديقاتها اللاتى قررن الاعتراض على حق الرجل وتأكيد حق المرأة فى الزواج من رجلين ، وضرورة الذهاب فى صباح اليوم التالى إلى مقر السناتوس (Scnatus) للإعراب عن معارضتهن لحق الرجل . وفعلاً ، جاء الصباح ، وكانت دهشة رجال مجلس السناتوس كبيرة عندما وجدوا زوجاتهن وأخريات كثيرات يصحن وينادين بحقهن فى الزواج من رجلين ، بدلا من زواج الرجل بامرأتين . ولم ينته الموضوع إلا عندما أتى الغلام بنفسه فكشف عن سر هذا الموقف وحرصه على ألا يبوح بأسرار الاجتماع ، فخلق لأمه تلك الحكاية ، فما كان من السناتو إلا أنه كافأه على أمانته وحسن تصرفه . ولكن السناتو ، فيما بعد ، لم يسمح - نتيجة لذلك - لأى صبى أن يحضر جلساته .

وهناك مثل آخر على مدى قوة السناتوس فى تقرير مصير الدولة ، من ناحية ومدى الطاعة العمياء له ولقرارته ، حتى من قِبَل القادة العسكريين الكبار وليس من المواطنين فحسب ، بالرغم مما يمكن أن تحدثه تلك الطاعة الواجبة من آثار مدمرة للفرد ذاته .

حدث فى عام ٣٢١ ق.م ، أن وقع جيش روما ، بقيادة قنصلين فى كمين عند فَاوكيس كَوْديناى (Fauces Caudinae) - ذلك المكان الذى خلدته أحداث الموقعة وآثارها على شعب روما - وقد أرغم هذا الجيش على الاستسلام ، وفرض قائد جيش العدو ، وكان يُسمى " پنتـيـوس " (Pontius) ، شروطه على القائدين الرومانيين ومنها أن يتعهدا نيابةً عن السناتوس الرومانى ، بقبول الجلاء عن سَمْنيوم (Samnium) وكمپانيا (Campania) وإبرام الصلح مع سكان هذين الإقليمين ، فتعهَّد القنصلان بذلك فأخلى سبيل جيش روما وقائديه ، بعد أن اعترفا بهزيمتهما(١).

وعاد القنصلان إلى روما ودعا مجلس السناتوس إلى إقرار ما تعاهدا به للسمنيين . فما كان من السناتوس إلا أن رفض الموافقة على ذلك رفضًا تامًا ، وأمَرَهما بالعودة من حيث أتيا أو أن يُسلِّما نفسيهما إلى القائد السمنى (Pontius) كأسرى حرب ، ليفعل فيهما ما يشاء ، فما كان منهما إلا الإذعان لأمر السناتوس ، تضحيةً بشخصيهما فداءً لمدينة روما وشعبها .

---

١ - وذلك بعد أن أجبروا كل الجيش الرومانى المهزوم أن يمر من تحت النِّير (يوجوم : Iugum) ، الذى كان عبارة عن حربة طويلة أفقية تستند على حربتين قائمتين ناشبتين فى الأرض . وكان ذلك إجباراً لهم على الركوع وإحناء الرؤوس ، بما فى ذلك من خضوع ومهانة .

الباب الثانى

تاريخ روما السياسى

الفصـــل الأول
الدستور الرومانى فى العصر الملكى

سبق أن ذكرنا أن النظام الجمهورى (Res Publica) بدأ فى روما عام ٥٠٩ ق.م وكانت عندئذ نهاية آخر الملوك الإترورييين ، وهو الملك المتغطرس ، المدعو " تاركوينيوس " (Tarquinius superbus) ولكننا لا نعرف على وجه التحديد ، متى بدأ النظام الملكى فى روما ، بالرغم من علمنا بنهايته فى عام ٥٠٩ ق.م .

على كل حال ، فإن - كما هو واضح ومعروف عن كل الأنظمة الملكية - فى التاريخ القديم، والحديث كذلك مع فارق الظروف التاريخية والملابسات التى تفرضها طبيعة تطور المجتمعات البشرية منذ ذلك التاريخ وحتى الآن - كان الملك هو سيد كل المواقف وبيده كل السلطات .

السلطة الملكية " الإمبريوم " (Imperium)(١) :

إن المجتمع الرومانى القديم ، فيما قبل عصر الجمهورية ، أى فيما قبل ٥٠٩ ق.م ، كان صورة مصغرة كما كانت عليه حياة الأسرة فى روما القديمة ، فكان الأب ذا سلطة مطلقة (Potestas) على الأبناء والزوجة والعبيد والموالى ، وكان الملك (Rex) هو صاحب السلطة المطلقة (Imperium) فى الدولة ، أى المملكة .

كانت السلطة الملكية المطلقة (Imperium) ، هى بمثابة تفويض شعبى لشخص ما لكى يحكم بالحديد والنار ، فمن يحصل عليها عن طريق شرعى ، وَجَبَت طاعته طاعةً عمياء ، ولا سبيل إلى مقاومة تلك السلطة ، طالما أن الشعب هو الذى كان يمنحها وفقًا لإجراءات معينة، تخلع على صاحبها الصبغة الشرعية ومن هذه الإجراءات ما يلى :

١ - قرار بإجماع شعبى لإعطاء تلك السلطة لذلك الشخص ، أى لابد من أخذ موافقة مواطنى الدولة على هذا الاختيار لهذه المهمة .

---

١ - كلمة إمبريوم (Imperium) وتعنى السلطة المطلقة : الأمر ، القوة ، والسلطة العليا والقيادة العسكرية ، وهى من الفعل اللاتينى : Impero, are ويعنى آمر ، أحكم ، أصبح إمبراطورًا .

٢ - اعتماد وإقرار آلهة الدولة لذلك ، عن طريق إظهار فأل حسن بخصوصها عند إجراء طقوس التنصيب التى كانت تقليدية . ولابد ألا يقع فيها أى خطأ ، وإلا أصبح اختيار الحاكم (الملك) باطلاً .

ومما تجدر الإشارة إليه ، هو أن الملك عند تنصيبه ، كانت تصاحبه شاراته الرمزية ، ومن أهمها " عصا الفاسكيس (Fasces)[1]. التى كانت رمزاً لضرورة الطاعة للملك ، وتذكيراً للمواطنين وتخويفهم من عاقبة المخالفة .

كانت السلطة الملكية (Imperium) ذات ثلاث دلالات أو صاحبة ثلاثة ميادين ، تمارس فيها نفوذها ، وتثبت وجودها :

١ - **فى الشئون الدينية** : لما كان المجتمع القديم ، مازال فى مراحل تطوره الأولى ، حيث لعب الدين دوراً أساسيًا وجوهريًا فى استقرار وسلام المجتمعات البشرية ، فقد كان الناس فى مدينة روما القديمة شأنهم فى ذلك شأن معظم الأمم الأخرى ، فى تلك الحقبة من الزمن يعتقدون أنه إذا لم يستطع الملك - وهو المسئول الأول فى نظرهم - أن يفوز برضاء الآلهة عن مجتمعهم ومدينتهم [مما يحقق سلامًا سماويًا (Pax Deorum) يعود بالنفع والخير العميم على أهل الأرض ، الذين يحرصون على دوام قيام رابطة الحب والطاعة للآلهة ويحسنون تقوى السماء فى علاقاتهم ببعض وبينهم وبين قوى الطبيعة ، حتى لاتغضب عليهم بالكوارث والمصائب] فإنهم لاشك هالكون .

ولما كان الملك لايمكنه القيام بأعباء تأدية فروض الطاعة والولاء لآلهة المدينة وحدها ، فإنه استعان بمجلس صغير من رجال الدين وهم الكهنة (Pontifices) إلى جانب المجلس الأصغر من العرافين (Augures) الذين كانوا متمرسين على تفسير الطوالع والظواهر الطبيعية تفسيراً دينيا وكذلك التنبوء بمشيئة الآلهة .

---

١ - هى عبارة عن مجموعة من العصى ، التى تلتف حول يد بلطة (axis) كحزمة حطب ، وكان يحملها ، أمام موكب الملك ، جماعة من المرافقين له ، يسمون ليكتوريس (Lictores) وبذلك فقد كانت هذه العصى رمزاً لحق الحاكم فى جلد العصاة والخارجين على السلطة الملكية ، أما البلطة فكانت رمزاً لحقه فى إعدامهم . ولهذا فليس مستغربًا إذا عرفنا أن كلمة الفاشية (Fascism) الإنجليزية قد اشتقت من ذلك الاسم السابق للدلالة على دكتاتورية السلطة ، وعن النظام الذى يحكم بالحديد والنار ، ولا يسمح أبداً بأى قدر من حرية الرأى والتعبير .

وهكذا فإننا نجد أن سلطة الملك الدينية لم تكن مطلقة ، فقد قيدها وجود الكهنة والعرافين الذين كانوا هم المصدر الحقيقى وراء أى قرار ملكى فى الشئون الدينية .

٢ – فى القضاء : كانت كلمة " إمبريوم " تلك السلطة الملكية العليا ، تتيح لصاحبها ممارسة النفوذ الأعلى فى ميدان القضاء ، والفصل فى القضايا والمنازعات حتى ينتشر السلام ويستتب الأمن فى جنبات المجتمع الرومانى آنذاك .

كان للملك ، فى هذا المجال سلطة مطلقة تمامًا من الناحية النظرية على خلاف الوضع فى الشئون الدينية – وصلت إلى حد توقيع العقوبات التى يراها بما فى ذلك عقوبة الإعدام ... وبالرغم من ذلك ، فلم تكن السلطة استبدادية دائمًا ، فقد مارس الحكماء من أهل روما دورهم باسم العرف وسنة السلف (Mos Maiorum) فى تحجيم تلك السلطة المطلقة قانونًا ، ذلك لأن العرف كان أقوى من القانون نفسه ، ومارس أقوى الضغوط على السلطة الحاكمة . كما كان من مصلحة الحاكم أن يراعى ذلك مراعاة كاملة حتى يضمن رضاء الآلهة ، وحب الناس على السواء . وتحقيقًا لتلك الغاية استعان الملك فى النهوض بواجب القاضى الأكبر أو قاضى القضاة ، بالحكماء من الرومان فى صورة مجلس سمى مجلس الشيوخ (Senatus)[١] وهم آباء الأسر الرومانية الكبيرة ، الذين كان العرف الرومانى يلزم الملك باستشارتهم ، وإن لم يلزمه بقبول مشورتهم . بهذه الطريقة نجد نظام الأسر الصغيرة فى المجتمعات الصغيرة ، يكرر نفسه على مستوى الدولة . أفلا نرى هنا ما يقابل عندنا مجلس الأقرباء (العائلة) الذى سبق الحديث عنه ؟ .

كما كان للملك حق دعوة الجمعية الشعبية (جمعية الأحياء[٢] Comitia curiata) لإخبارها بقرارته حول قضايا قانونية مثل التبنى ومنح الجنسية أو الوصاية .

٣ – فى الميدان العسكرى (الحربى) :

هنا يختلف الأمر عن سابقيه ، فنجد سلطة الإمبريوم فى يد صاحبها سلطة مطلقة بكل معانى الكلمة ، وذلك لعدة اعتبارات أهمها :

---

١ – وهو نفس النظام المعمول به فى أوربا اليوم ، حيث نسمع عن البرلمانات الغربية ودورها فى اتخاذ القرار فى كل الميادين . أما أمريكا فقد حافظت على المضمون والشكل معًا ومجلسها النيابى كذلك يسمى "Senate" اشتقاقًا من التسمية اللاتينية .

٢ – أى تلك الجمعية التى كانت تتكون من ممثلى الثلاثين حيًا من أحياء مدينة روما القديمة (curia) والتى كانت بدورها تكون ثلاثة قبائل (Tribus) .

- أن الرومان كانوا يعتقدون أن قائد الحرب ، الذى يخرج بجيشه خارج أسوار روما ، سيكون فى منأى عن رعاية آلهة المدينة ، وسيصبح تحت رحمة آلهة أجنبية ، مما يستلزم إعطاءه سلطة مطلقة ، دون قيد من أحد ، هذا فضلاً عن قيامهم انطلاقًا من نفس الفكرة السابقة ، بطقوس دينية خاصة بقصد حماية الجيش الرومانى وقواده من الأرواح الشريرة التى ستحيط بهم " وهم بعيدين عن بلادهم وآلهتهم " .

ولكننا ، لا نستطيع أن نستبعد قيام قائد الجيش باستشارة قادته والعمل بنصائحهم أولا، ذلك لأنه لم يكن مجبراً أن يستشيرهم .

- ضرورة كسب الوقت وعدم إضاعته فى مشاورات وموافقات ، تقلل من حرية حركة القائد العام للجيش .

وجدير بالذكر فى هذا المقال أن نقرر هنا أننا لا نعرف شيئًا كثيراً عن الشعب الرومانى ودوره فى العصر الملكى ، ومن المؤكد أن دوره كان ثانويًا جداً ، وأن طبقات المجتمع آنذاك ، كانت تنقسم إلى قسمين واضحين أو فئتين ، بينهما فجوة اجتماعية كبيرة . فالأولى كانت طبقة الأشراف (Patricii) ومن هم فى مستواهم من النبلاء والأغنياء ، والطبقة الثانية ، هى طبقة العامة (Plebs) وهم من الفلاحين والتجار والصناع غيرهم . من ذوى الأملاك المحدودة. ولكن الجميع كانوا يتمتعون ، داخل المدينة روما ، بحقوق المواطنة (civitas) على اختلاف أنواعها الخاصة iura privata) و " العامة " (iura publica) ويدفعون الضرائب كل حسب ثروته ، ويخدمون الجيش - بدون أجور .

هنا ، يجرنا الحديث عن الجيش الرومانى ، الذى كان يتكون من مشاة (cohortes) وكان هؤلاء يجهزون أنفسهم بالأسلحة اللازمة لهم ، والفرسان (equites) الذين كانت الدولة تزودهم بالخيل بسبب ارتفاع ثمنها وعدم مقدرة الأفراد على شرائها . أما كبار الملاك والأشراف الذين استأثروا بامتيازات عدة ، وكانوا هم أصحاب المصالح الحقيقية ، فكانت تقع عليهم أعباء كثيرة فى الدفاع عن روما وممتلكاتها ضد أى اعتداء ذلك لأنهم هم الذين كانوا يجهزون أنفسهم بكل أنواع السلاح والعتاد ، ويقفون فى الخطوط الأمامية أثناء المعارك ، وقد اشتهرت من بينهم أسرتان ، ظل أفرادها على مر الأزمان هم القادة المهرة والذين تخصصوا فى خوض غمار الحرب وقيادة المعارك وهما أسرة " فابيوس "(Fabius) وأسرة بابيريوس (Papirius) . وهناك قائد يسمى قائد الشعب (magister populi) أى الجيش ولا سيما المشاة أما قائد الفرسان فكان يسمى (magistr equitum) وكما ذكرنا من قبل فإن القائد كان يتمتعْ بالسلطة العليا (بسلطة الإمبريوم المطلقة) وكذلك من يعينهم بجانبه من القادة والضباط لمساعدته ولتنفيذ أوامره .

الفصـــل الثانى

الدستور الرومانى فى العصر الجمهورى

إنه بمجرد انتهاء النظام الملكى فى عام ٥١٠ ق.م وطرد آخر الملوك ، وقيام نظام جمهورى فى عام ٥٠٩ ق.م ، غدت كلمة " ملك "(Rex) كلمة ممقوتة من الشعب الرومانى (Populus Romanus) لما أرتبط فى أذهانهم عن ذلك العصر السابق من تسلط وسيادة مطلقة ، لم يكن لهم فيها أى نصيب من المشاركة الفعالة .

لقد سُمِّى النظام الجديد باسم (Res Publica)(١) أى - كترجمة حرفية لهذا الاصطلاح - "الشئ العام " بمعنى النظام الذى يعنى بالأمور العامة والشعب ، أو الغالبية العظمى من الناس وليس ذلك النظام الأرستقراطى ، الملكى السابق ، الذى كان يعنى بمصالح الأغنياء والنبلاء والأشراف فقط .

كانت أهم التغييرات التى طرأت على النظام السابق ، وإحلال بعض الوظائف الجديدة ، تبعًا لضرورات تأدية مصالح الشعب على أحسن وجه وضمان القيام بالمهام الموكلة إلى شاغل تلك المناصب خير قيام ، دون تهاون أو شطط ، هى ما نوجزه فيما يلى :

أولاً : الإبقاء على سلطة الإمبريوم (Imperium) ولكن تم إعطاؤها لحاكمين اثنين ، عرفا باسم القنصلين : Consules ولمدة زمنية محددة - هى سنة واحدة - بعد أن كانت ، فى العهد الملكى ، مدى الحياة . وهكذا فإنه بعد انتهاء العام ، يترك القنصلان منصبيهما ، ويتخليان عن شارات وظيفتيهما ويصبحان مرة ثانية مواطنين عاديين .

---

١ - إنها هى تلك الكلمة الخالدة التى عرفتها أوربا باسم " النظام الجمهورى " واستخدمت له اشتقاقًا من الأصل اللاتينى هذا ، بعد حذف النهايات اللاتينية لكل من الكلمتين السابقتين ، فغدتا مصطلحًا " واحداً " (Republic) وعن الأخطاء الشائعة ترجمة كلمة (Politeia) عند أفلاطون بأنها " جمهورية أفلاطون " ، لأن هذه الكلمة ، آنذاك ، لم تكن تعنى إلا " المجتمع " أو أى تجمع بشرى " بغض النظر عن شكل نظامه السياسى ، أى " أية دولة " . ولم تكن تعنى نظامًا جمهوريًا ، كما يحاول البعض مقابلة هذا باصطلاح "Res publica" أو "Civitas" اللاتينى ، لأن أفلاطون لو كان يعنى ذلك النظام لاستخدام كلمة " ديمقراطية "Democratia" : ، والتى كانت معروفة لدى يونانى العصر الذهبى ، وهى المقابل اليونانى لكلمة "Res publica" اللاتينى .

ولما كانت تلك السلطة ، أى سلطة الإمبريوم ، هى أعلى سلطة فى البلاد ، فكان الشعب كله ، فى روما القديمة ، يشارك فى انتخاب القنصلين الجديدين ، مرة كل عام ، داخل جمعية شعبية تسمى باسم "الجمعية المئوية" (Comitia Centuriata)[١] وهى التى حلت محل الجمعية القديمة المعروفة باسم "جمعية الأحياء" (Comitia curiata) وكانت لها صلاحية إصدار القوانين وانتخاب الحكام والمسئولين الذين يتمتعون بسلطة الإمبريوم . كما كان لها صلاحية إعلان الحرب وإبرام السلام مع أعداء روما. وكان مكان انعقاد جلساتها فى ميدان الحرب فى ساحة الإله " مارس " (Compus Martius) ، خارج أسوار مدينة روما .

وقد حرص الرومان على ألا يستبد أى من القنصلين بتلك السلطة المطلقة فأعطوا كل منهما الحق فى الاعتراض على قرارات الآخر (Intercessio) أو ما يعرف اليوم فى لغة السياسة باسم الڤيتو : "Veto"[٢].

وجدير بالذكر ، أن واقعية الرومان الخالصة والمرنة ، فى نفس الوقت ، والتى تنبع عن ثقة مطلقة فى الأفراد والمسئولين عن تلك المناسبة الخطيرة جعلت سلطة الإمبريوم تبادلية بين القنصلين داخل وخارج مدينة روما ، أى أنها تكون بيد قنصل واحد فقط ، فى وقت ما ، فإذا كان هناك قنصل فى خارج روما يحارب أعداءها ، فإنها ستكون بيده هو ، وليس بيد القنصل الموجود داخل أسوار روما يصرّف شئونها . ذلك لأن قائد جيش الشعب الرومانى عندما يخرج، بعيداً عن روما فإنه يكون - كما كان يعتقد أهل روما القديمة - تحت رحمة ظروف غير عادية وتحت وطأة آلهة أجنبية ، ربما تسبب له من المشاكل الكثير طالما زنه بعيد عن حماية الهة مدينته روما ، ومن ثم يجب - كما كانوا يعتقدون - إعطاؤه صلاحيات أوسع وسلطات أكبر .

ولكن ، إذا كان الأمر يتعلق بإصدار حكم نهائى مثل إعدام مواطن ، مثلاً أى داخل حدود المدينة ، فلا يملك القنصل سلطة إصدار قرار نهائى بذلك ، إلا بعد الرجوع إلى الجمعية

---

١ - عبارة عن جمعية زنذت فى الغالب بعد عام ٤٥٠ ق.م ، تمثل فيها كل طبقة شعبية (كانت طبقات الشعب يتحدد على أساس ثرواتها) بنسبة معينة من الوحدات المئوية (Centuriae) : كنتسوريای ، التى تحسب بصوت واحد لكل منها عند الاقتراع . وصل العدد الإجمالى لتلك الوحدات حوالى ١٩٣ وحدة ولما كانت الطبقة الأولى الغنية تستحوز على ٨٠ وحدة والفرسان على ١٨ وحدة ، فإنهما كانتا تضمان الأغلبية داخل تلك الجمعية .

٢ - هى كلمة لاتينية - فى الضمير الأول المتكلم المفرد ، فعل مضارع بمعنى " أعترض " .

المئوية الشعبية لأخذ مشورتها وموافقتها أو رفضها لذلك ، وكان هذا الإجراء بمثابة قيد آخر لدرء خطر القنصلين على حياة الشعب والإضرار بمصالحه .

ثانيًا : ظل السناتوس (Senatus) ، هذا المجلس المبجل للشيوخ وكبار شخصيات المجتمع الرومانى القديم ، قائمًا ، يباشر أعماله ولكن كهيئة استشارية وليست تنفيذية أو تشريعية . كما أننا لا نعرف ، بطريقة قاطعة مؤكدة ، كيف كان أسلوب الرومان لاختيار عضو هذا المجلس فى تلك الفترة وإن كنا نرجح أن كل من يتولى سلطة الإمبريوم يومًا ما ، كان يحق له، وهذا شئ طبيعى يمكن تخمينه بسهولة ، أن يرشح نفسه لعضوية مجلس الشيوخ ، وذلك إذا ما أخذنا فى الاعتبار احترام الرومان المتأصل فى أعماقهم لكبار رجالاتهم وقادتهم بفضل خبرتهم وحنكتهم فى الحياة ووطنيتهم المؤكدة .

وتصل واقعية ساسة الرومان وحكماء روما القديمة إلى أبعد من هذا وذاك ، فقد اتصف نظام حكمهم السياسى فى العهد الجمهورى بمرونة كبيرة ، وعدم تقديس النظم القديمة ، بل راحوا يغيرون فيها ويطوروها لتصبح صالحة تحت كل الظروف وفى ظل كل الملابسات . وذلك إذا كان فى هذا التغيير أو التطور تحقيق لصالح الشعب الرومانى أو تأمين لسلامة البلاد من أخطار محققة . فمثلا كانت الظروف تفرض نفسها على النظم المعمول بها ، كما حدث فى تعيين رجل واحد مزود بسلطة الإمبريوم من قبل القنصلين ، بمعرفتهما ، حتى يتمكن فى ساعات الخطر أن يتخذ القرارات السريعة ، فى الوقت المناسب ودونما إضاعة للوقت فى مناقشات واعتراضات ، كان ذلك يتم بإيعاز من السناتوس ، ولا يجب أن تزيد مدة سريان هذا الإجراء المؤقت عن ستة شهور ، ودونما الحاجة إلى استدعاء الجمعية المئوية للانعقاد ، مما يؤكد الثقة الكاملة التى يوليها رجالات السياسة فى روما القديمة فى قادتها وزعمائها(١).

ثالثًا : إدخال وظائف جديدة تمامًا فى تلك الوظائف العامة (cursus Honorum) ، وذلك لضمان سير العمل على الوجه الصحيح وتأدية كل مواطن لواجباته تجاه الدولة من المشاركة فى تأدية الخدمة العسكرية (الالتحاق بالجيش) ودفع الضرائب ، كل حسب ثرواته ، فضلاً عن الاطمئنان على مناصبه وقيام المسئولين فى الدولة بواجباتهم تجاه المواطنين فى كافة الأمور.

---

١ - كانت الشخصية التى تعينها لتولى مقاليد سلطة الإمبريوم المطلقة تسمى " دكتاتور dictator" وكان أول قائد تولاها هو تيتوس لاكريوس (T. lacrius) .

ومن هذه الوظائف ما يلى :

١ - نقيب العامة (Tribunus : تريبونوس) : -

يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم نصحى[١] : " لم يترتب على اتساع نطاق حروب روما وتلك الإصلاحات العسكرية التى مرت بنا وما جاء فى أعقابها من إنشاء جمعية المئات[٢] فحسب ، بل أيضًا عدة تجارب فى كيفية ممارسة تلك السلطة العليا مدنية وعسكرية فى ظروف ، كثيراً ماكانت تقضى بوجود أكثر من شخصين (أى القنصلين) ، يستطيعان ممارسة هذه السلطة فى عدة أماكن فى وقت واحد"[٣] .

ومن ثم أوجد الرومان مجالس ، مكونة من ثلاثة أو ستة حكام مزودين بالسلطة العليا المطلقة "Imperium" ولاسيما فى الفترة الواقعة من ٤٤٠ ق.م إلى ٣٦٧ ق.م - ،كانوا يعرفون باسم : الترابنة العسكريون ذوى السلطة القنصلية : "Tribuni militum consulari potestate " .

وكان ذلك الإجراء يهدف من ناحية أخرى " إلى إرضاء العامة المحرومين من تولى القنصلية وإشراكهم فى منصب يتمتع أصحابه بسلطة " الإمبريوم " على حد قول د. عبد اللطيف أحمد على [٤] ولكن هذه الوظيفة لم تستمر طويلاً ، وألغى العمل بها ، وأعيدت القنصلية فى عام ٣٦٦ ق.م .

٢ - أمين الخزانة العامة : (Quaestor : كوايْستور) : -

كان القاذمان على هذا المنصب فى بدايته ، أى منذ عام ٤٤٩ ق.م يختصان بالإنابة عن القنصلين فى قضايا القتل بدون مبرر وهى الوظيفة التى تعرف باسم (quaestores patri-cii) وكانا ينتخبان من الجمعية القبلية (Comıtia tributa) فى كل عام . وعندما اكتسب العامة حق تولى هذه الوظيفة عام ٤٢١ ق.م ، وصل عددهم إلى أربعة كوايستوريس (quaestores) : اثنان منهم يعملان : كأمينى الخزانة العامة (Quaestores aerarii) والآخران يساعدان القنصلين فى ميدان القتال كمسئولى تموين للجيش ولمعرفة مرتبات الجنود.

---

١ - تاريخ الرومان ، الجزء الأول ، منشورات الجامعة الليبية ، كلية الآداب ، ص ١٦٩ .

٢ - هى الجمعية المئوية ، التى ذكرناها سابقًا .

٣ - نفس وجهة النظر هذه نجدها عند أ.د. عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص ٨ .

٤ - المرجع نفسه .

ولكن فى عـام ٣٦٦ ق.م مع ظهـور وظيـفـة البـرايتـور ، اقـتـصـر نشـاط الكوايسـتـور على الشئـون المالية ، وكـانت الوظيـفـة هذه أدنى الوظائف العـامـة ولكنهـا كـانت خطوة عـلى طريق تولى مناصب أهم وأكبر .

٣ - الرقيب (Censor : كِنسُور) : -

أنشئت تلك الوظيفة (الكِنسُور) حوالى ٤٤٣ ق.م ، وذلك بهدف إحكام عملية الإحصاء (Census) ، التى كانت تجرى لأفراد الشعب الرومانى ، كل خمس سنوات ، لمعرفة ممتلكاتهم وقيـمـة الضرائب الواجبة عليهم تجاه الدولة ، وعندما كان يحين وقت إتمام الإحصاء تنتخب الجمعيـة المئوية اثنين من الرقباء (Censores) ليتـوليـا عـملها لمدة (١٨) شهراً فـقـط ، ولا يتمتعان بسلطة الإمبريوم العليا ، ونظراً لخطورة تلك الوظيـفـة ، وضرورة توافر الخلق السليم والسـمعـة الطيبـة لدى شاغلها فإنها كانت وقفًا على من يتـولى منصب القنصلية من قـبل ، وكـان حُسْن السلوك العـام ، كان هذا الشرط نابعًا من جسـامة المسئوليـة التى تقع على عـاتق الرقيب ، فكان :

أ - يسجل - مع زميله الآخر - كل المواطنين الرومان وممتلكاتهم تبعًا لقبائلهم وأحيـائهم . (Curiae)

ب - يفحص تلك القوائم ويتـأكد من مدى سلامة البيانات ويعاقب المخادعين وذلك بفرض غرامات عليهم .

جـ - يعـاقب سئ السلوك والذين يضرون بالصـالح العـام ويحكم عليـهم بسـوء السـمعـة . (infamia)

د - له صلاحية إقرار أو استبعاد عضوية بعض شخصيات مجلس الشيـوخ - ولاسيما منذ نهاية القرن (٤ ق.م ، وذلك بكتابة تقرير عنهم " nota censoris ") .

هـ - يقدر ضريبة الملكية على أساس الثروة ، وهى الضريبة المعروفة باسم (Tributum) وكانت تجمع فى وقت الحروب ، وساعة الأخطار الداخلية أو الخارجية وإرضاء للعامة "Plebs" فقد تم إقرار حقهم فى انتخاب أحد المراقَبيْن فى كل مرة ، وذلك منذ عام ٣٩٠ ق.م ، وبمرور الوقت ، أصبح الرقيبان الاثنان من تلك الطبقة ، ولكن منذ عام ١٣١ ق.م وما بعدها ، وليس قبل تلك السنة المذكورة .

٤ - مسئول الأمن والتجارة : (aedilis: أيْديليس) : -

لم تكن تلك الوظيفة من الوظائف العامة فى الدولة ، حتى جاء عام ٣٦٧ ق.م فأصبحت وظيفة الأيديليس ، وظيفة سنوية عامة ، يتولاها صاحبها عن طريق الانتخاب (انتخاب الجمعية القبلية له) كما كان يشغلها أربعة موظفين ، اثنان منهم يعرفون باسم " aediles plebis" أى العامة واثنان آخران باسم " aediles carales" أى من الأشراف .

مرت تلك الوظيفة بمرحلتين الأولى قبل عام ٤٤٩ ق.م ، عندما اقتصر على الأيديليس حفظ المحفوظات وأمانة الأرشيف كموظف لنقباء العام (Tribuni plebis) والثانية بعد ذلك، وبالتحديد بعد ٣٦٧ ق.م ، عندما أصبحت تلك الوظيفة وظيفة عامة وشملت الاختصاصات الآتية التى كانت تعرف باسم " رعاية شئون المدينة cura urbis ومنها :

أ - صيانة شوارع روما وتطبيق قواعد المرور فيها .

ب - تدبير إمداد روما بالمياه والحبوب .

جـ - الإشراف على المعاملات التجارية فى الأسواق ورقابة الموازين .

د - حفظ الأمن والنظام وخاصة فى الحفلات والأعياد .

٥ - الحاكم القضائى (praetor : برايْتور) : -

أنشئت تلك الوظيفة عام ٣٦٦ ق.م تخفيفًا عن القنصلين . فقد روعى إيجاد البرايتور المدنى (Praetor urbanus) ليفصل فى القضايا المدنية بين المواطنين (Cives) وبرايتور الأجانب (praetor peregrinus) ، الذى كان يفض النزاعات القائمة بين المواطنين الرومان والأجانب . وقد كان تعيين هذا الحكام القضائى ، سواء البرايتور المدنى أو برايتور الأجانب عن طريق انتخابه فى الجمعية المئوية ، كما كان طبيعيًا ، كذلك ، أن يزداد عدد أولئك باتساع نطاق الفتوحات الرومانية خارج شبه الجزيرة الإيطالية ، وربما للاستعانة بهم فى حكم بعض الولايات الخارجية (Provinciae) التابعة للشعب الرومانى ، طالما أنهم كانوا يتمتعون بالسلطة العليا .

هكذا ، تأكد لنا بحق ، شيوع تولى العامة لمعظم المناصب الإدارية المختلفة فى العصر الجمهورى ، ذلك العصر الذى أشرك عامة الشعب (Plebs) فى الحكم وإدارة الأمور " وأصبح نظام الدولة الجديد ، شكلا ومضمونًا " نظامًا جمهوريًا " يشارك فى إدارته جمهور الشعب فى

البلاد والذين أداروا دفة روما القديمة والعصر الجمهورى بنفس القدر من الإخلاص والتفانى ، والطاعة والإلتزام ، كما كانوا هم أعمدة انتصاراتها الأولى السابقة فى العصر الملكى ، ولكنهم اليوم بمساندة العامة ، أصحاب المصالح المباشرة ، يحققون كذلك مزيداً من الاستقرار ، لدعم حقوق كل المواطنين الرومان ، والاستمتاع بخيرات الولايات الخارجية ، التى ضمها إلى أملاك الشعب الرومانى قادة عظام ، إلتزموا بدساتير بلادهم فى كل نظام دقيق ، بهدف تحقيق العدالة والمساواة أمام القانون فى كل شئ ، وبالتالى كان التفانى فى أداء الواجب ، أهم سمات رجالات العصر الجمهورى ، سواء فى ميدان السياسة أو فى الميدان العسكرى على أرض المعارك .

ولكن حقيقة الأمر ، أن العامة كافحوا كفاحًا مريراً حتى تم الاعتراف بحقوقهم ، مما استلزم الدخول فى صراع بينهم وبين طبقة السادة والأشراف[١] (Patricii) .

ومما يؤسف له حقًا ، ويؤكد ذلك الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحى[٢] أن ذلك الصراع الطبقى بين الأشراف (Patricii) وبين العامة (Plabs) والذى بدأ منذ بدايات القرن الخامس ق.م ، أى حوالى منذ عام ٤٩٤ ق.م ، أى أنه دام .. حوالى قرنين من الزمان) لم يحقق النتائج المرجوة منه . كيف إذن يمكن فهم ذلك ؟ .

نعم ، لقد حقق العامة إنجازات كبيرة وحصلوا على حقوق كثيرة منها :

١ - تكوين جمعية القبائل (Comitia Tributa) ومجلس العامة (Concilium plebis) وتوليهم مناصب سُمّيَت باسمهم ، نقباء عن العامة (Tribuni plebis) .

٢ - شاركوا فى سن القوانين ونشرها بعد أن كانت حكراً على الأشراف والنبلاء من الطبقة الأرستقراطية على غرار قوانين سولون الأثينى على يد لجنة منهم سميت بلجنة " العشرة رجال" (Decemvir) بالرغم من صعوبة تصديق ذلك[٣] ومن أهم نصوص تلك القوانين إقرار حق العامة فى استئناف أى حكم ضدها (Provocatio) .

---

١ - لمزيد من التفاصيل الهامة عن هذا الصراع الطبقى ، انظر د . نصحى ، المرجع السابق ، ص ص ١٧٩ - ٢٠٢ .

٢ - المرجع نفسه ، ص ص ١٩٩ - ٢٠٢ .

٣ - المرجع نفسه ، ص ١٨٧ .

٣ - كسبوا حق تولى منصب القنصلية عام ٣٦٧ ق.م حتى أن تسعين منهم تولوا هذا المنصب ، وأصبحوا أعضاء فى السناتوس (Senatus) بعد ذلك فى المدة من ٣٦٦ حتى ٢٦٥ق.م .

٤ - حصلوا على حق تمثيل طبقتهم بنصف أعداد الجماعات الدينية المختصة بالنبوءة المقدسة (decemviri sacris faciundis) وجملة كبار الكهنة (Pontifices) وجماعة العرافين (Augures) وذلك منذ عام ٣٠٠ ق.م .

وكذلك فإن العامة نجحوا فى وضع حد لمشاكلهم ولاستئثار طبقة الأشراف بكل الامتيازات دونهم ، وكانت نهاية هذا الصراع درامية ، عندما هاجر العامة إلى خارج حدود مدينة روما ، على تل يانيكولوس عبر النهر ، فى عام ٢٨٧ ق.م ، وهددوا بالانفصال عن مدينة روما ، مما أجبر السناتوس على اتخاذ موقف أكثر مرونة وتفاهم . فاتخذوا من بينهم دكتاتوراً عنهم هو هورتنسيوس (Hortensius) الذى نجح فى فض الخلاف ، وأصدر قانونًا باسمه (Hortensia) نَصَّ على سريان مفعول أى قرار تصدره جمعية القبائل دون أن تسبقه أو تعقبه موافقة السناتوس عليه .

عندئذ نعود إلى سابق سؤالنا ، ولماذا لم تحقق كل هذه الإنجازات النتائج المرجوة ؟ .

يقول د . نصحى[1] فى هذا المقام " **إنه قد ترتَّب على شدة ميل الرومان جميعًا إلى الحفاظ على تقاليدهم قدر الإمكان ، أمران مهمان : أحدهما : هو أنه بالرغم مما كسبه العامة من حقوق كفلت لهم المساواة قانونًا مع البطارقة (الأشراف) ، فإن هذه المساواة كانت شكلية أكثر منها حقيقية . ولا أدل على ذلك من أنه بعد اكتساب العامة حق تولى الوظائف العامة جميعًا ، لم يحدث اندفاع نحو شغلها برجال من العامة ، بل ظل الناخبون يميلون إلى تفضيل المرشحين الذين لهم أو لأسرهم ماض ممتاز فى الحياة العامة** " .

ثم يضيف قائلاً : « والأمر الآخر ، هو أنه بالرغم مما مُنح للعامة من حقوق وما اتسمت به تريبونية العامة وجمعية القبائل من طابع ديمقراطى لم يصبح نظام الحكم الرومانى نظامًا ديمقراطيًا بمعنى الكلمة وإنما ظل فى الواقع نظامًا أرستقراطيًا » .

---

١ - المرجع نفسه ، ص ٢٠٠ .

ومما هو جدير بالذكر أن طبقة العامة ، بعد أن حققت كثيراً من مكاسبها ، حتى عام ٢٨٧ق.م وتساوت - شكليًا - مع طبقة الأشراف إلا أنها - بحكم إمكاناتها المحدودة وشاغل حياتها المستمر سعيًا وراء حياة أفضل ، قنعت بذلك وتركت الحياة السياسية ، كما كانت من قبل في أيدى لبقة الأرستقراطية الجديدة ، التى نشأت من تآلف بين طبقة الأشراف والنبلاء القديمة بين مستورى الحال من الطبقة العامة .

لقد استراحت طبقة العامة إلى شكل الأوضاع الجديدة ولاسيما فى الميدان الاجتماعى . فقد كسبت حق الزواج من طبقة الأشراف بمقتضى قانون كانوليوس (Lex Canuleia) الذى يقضى بذلك نهائيًا على عقدة النقص لدي العامة ، وتم القضاء على روح التعصب الطبقي القديمة . كما سعدت تلك الطبقة سعادة غامرة بإيجاد وظيفة الرقيب ، تلك الوظيفة القوية ، التى لم تفرق بين كبار القوم وصغارهم ، وراحت تفتش عن الانحرافات أو صور التهاون فى حق الدولة، بل تستجوب أرباب الأسر عن نسيانهم لواجباتهم العائلية ، وعن سود معاملتهم لعبيدهم ، فكان الكنسور (Censor) يعاقب أولئك عقابًا شديداً صارمًا ، بأن يحذف اسم رب الأسرة من قائمة أفراد القبيلة ، مما يسبب له سمعة سيئة بين الأسر الأخرى ، وكان ذلك أخشى ما يخشاه الفرد الرومانى ، لقد وصل نشاط هذه الوظيفة - كما قلنا سابقًا - إلى استبعاد بعض أعضاء السناتوس أو أفراد من طبقة الفرسان ، إن أهمل أحدهم في الاهتمام بفرسه الذي أعطته له الدولة . حقًا لقد استراح الرومان جميعًا إلى نزاهة هذا المنصب ، وعدالة قراراته ، فأطاعوا جميعهم السلطة الشرعية ، ومن بينها أولئك المفتشون الرقباء ، الذين كانوا ينهون مدتهم بإجراء تطهير دينى (Lustratio) للمواطنين ، خارج أسوار روما ، ومصحوب بتقديم القرابين وإقامة الصلوات فى ساحة الإله " مارس " .

الاختيار الصعب :

إنه لو لم يتم العثور على بقايا نقش قديم ، يرجع تاريخه إلى القرن السادس ق.م ، وذلك تحت أرضية الفوروم (Forum) ، حيث تمكن الدارسون من قراءة كلمة "Rex" ، لما عرفنا شيئًا عن تلك الحقبة ونظامها ونظام حياتها السياسى ، ولظل احتمال وجود هذا النظام علي أساس من التخمين والحدس ، فى ضوء الاستنتاج الضعيف القائم علي وجود ألقاب مقرونة بلفظة " rex" فى العصور التالية لذلك مثل لقب : (inter-rex) وتعنى الحاكم المؤقت فى عصر الجمهورية الرومانية ، ولقب " ملك القرابين " (rex sacrorum) الذي كان يحمله كبار الكهنة الرومان .

لقد أجمع المؤرخون والأدباء الرومان ، على أن روما القديمة كان يحكمها ملوك حتى سقوط ذلك النظام ، سنة ٥٠٩ ق.م ويعتقد أنهم كانوا ستة ملوك[١] حكموا روما لمدة استمرت حوالى قرن ونصف قرن[٢] إلى أن قام النظام الجمهورى الأرستقراطى (Rex publica) .

ويبدو أن روما قد وقعت في أيدى الأتروسكيين ، بعد إلغاء النظام الملكى مباشرة ، نتيجة لضعفها ، ولكن هذه السيادة على روما لم تدم فاتحدت الجماعات اللاتينية فى إقليم لاتيوم وهزمت أولئك الغزاة الأجانب وطردتهم نهائيًا حوالى سنة ٥٠٥ ق.م .

عندئذ أصبحت كلمة « ملك » (rex) تثير امتعاض الرومان وانتقل الحكم إلى أيدى نظام جديد ، يتمثل فى تكوين قيادة منتخبة من حاكمين اثنين ، يتم تعيينهما بالانتخاب السنوى ، ويتمتعان بسلطة مطلقة فى ميدان الحرب وسلطة محدودة فى الشئون المدنية . إنهما القنصلان (consules) ويوجد إلى جانبهما هيئة استشارية مؤلفة من رؤساء الأسر الشريفة وتسمى بالسناتوس (Senatus) أى مجلس الشيوخ .

ولكن بعد كل ذلك ، ألا يشير نجاح روما هذا تساؤلات فى نفس الدارس عن طريق وأساليب روما في السيطرة على بقية أجزاء إيطاليا ، حتى أصبحت سيدة إيطاليا بدون منازع؟! .

لقد بدأت روما مشوار التوسع الخارجي بإقامة علاقات وطيدة مع جيرانها من المدن والقرى اللاتينية فى عام ٤٩٣ ق.م عقدت معاهدة اشتهرت باسم « معاهدة كاسيوس » Foedus Cassianum وبموجبها غدت كل من روما وإقليم لاتيوم كله قوة واحدة ، ويعلق د. عبد اللطيف على هذه الاتفاقية بأنها كانت أول خطوة عظيمة خطتها روما نحو التوسع فى إيطاليا[٣].

كانت روما وزعامتها السياسية والعسكرية على قدر كبير من الذكاء العملى ، الذى جعلها تفكر فى ضرورة تحقيق نوع من التحالف مع بقية أو أهم وأقوى المدن اللاتينية الأخرى ، مثل

---

١ – يعتقد د. نصحى ، كما أكدته روايات الرومان ، بأن الملكين تاركونيوس العتيق ، وتاركونيوس المتكبر، كانا دون سائر الملوك فى روما القديمة من أصل اتروسكى (انظر المرجع السابق ، ص ص ٨٦ – ٨٧).

٢ – يذكر بنيامين فارنجتون ، مدنية الإغريق والرومان (ترجمة أمين تكلا) مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٨٧ أن الملكية صارت لمدة ٢٥٠ عامًا .

٣ – روما : الجزء الأول : تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٨ .

مدينة "پراينستى " Praeneste وكانت بنود الاتفاقية السالفة الذكر أكبر شاهد إثبات على ما نقول ، فها هى روما تعطى المدن اللاتينية الأخرى :

١ - حق المواطنة الرومانية (Civitas) .

٢ - حق الزواج من سيدات رومانيات (conubium) (وكذلك حق الأولاد والبنات جميعًا فى الميراث) .

٣ - حق التجارة والتعامل داخل روما (Commercium) .

٤ - حق ممارسة الحقوق المدنية العامة (Iura Publica) مثل حق التوظف (Ius honor-um) وحق الاقتراع (Suffragium) وحق التقاضي أمام المحاكم فى روما (legis actio) .

غزو الغال (Galli) لروما :

وهكذا تأكد لنا أحد أساليب روما السياسية القديمة وهو الدبلوماسية الهادئة ، إذ أنها عندما كانت فى حاجة إلى مساعدة مدن العصبة اللاتينية ، كانت هى البادئة بالتقارب وطلب معونتهم ولكنه بمجرد زوال الخطر الخارجى أو انتهاء نزاعها مع إحدى المدن الإتروورية كما حدث مع مدينة (Veii) الواقعة على مقربة من روما ، والتى استمرت فى صراع مع روما استمر طويلاً سقطت فى نهايته سنة ٣٩٢ ق.م ، بعد أن دمرتها روما تدميراً كاملاً - تنكرت روما لمساعدة المدن اللاتينية الأخرى ، وبدأت تعاملها بصلف وعنجهية . ولهذا ما لبث الغال أن غزوا روما . وهنا أظهرت المدن اللاتينية تشفيها ، وأعلنت عن رفضها لمساعدة روما نكاية فيها . لقد كان الدرس الذى لقنه الغال لروما سنة ٣٩٠ ق.م درسًا قاسيًا فتركوا خلفهم دماراً وخرابًا كبيراً ، وأدخلوا الرعب في نفوس سكان مدينة روما وأيقظت الروح الوطنية التى نقمت على سوء الأوضاع فى روما آنذاك ، فحاول الجميع أخذ العبرة من ذلك الدرس القاسى وعملوا على تحسين الأوضاع .

ولقد كان من حسن طالع روما أن عاد الغال سريعًا بعد هزيمة روما عند نهر أليا (Allia) ولم يمكثوا طويلاً بعد إحداث الدمار الشامل فى المدينة .

من الطريف أن تسمع وتقرأ عن قصة وطنية رجال السناتوس الرومانى ، أولئك الرجال الكبار السن ، والذين كانوا مضرب الأمثال فى التضحية والولاء لمدينتهم ، فقدموا أرواحهم فداء لها ، وفقًا لعادة دينية قديمة (devotio) كان المواطنون ، ولاسيما المسئولين فى الدولة ، يقدمون عليها عند بلوغ ساعة الخطر .

تلك القصة مفادها أن شيوخ روما - عند غزو الغال - عقدوا النية على مواجهة الغزاة بأسلوبهم الخاص ، فجلس كل واحد منهم أمام منزلة لابسًا ردا ءه الرسمى ، دون حراك ، حتى خيل لجنود الغزاة أنهم تماثيل ، فحاول أحدهم التأكد من ذلك ، واجترأ - ربما عن قصد حسب الرواية - على ضرب أحد الشيوخ على وجهه ، وكان يدعى پاپيريوس (Papirius) فما كان من الشيخ العجوز إلا أن ضرب الغازى بعصاه ، فثار الأجنبى البربرى ولم يسترح إلا بعد أن أجهز على الشيخ .فكانت تضحيته ، والآخرين من أمثاله ، نموذجًا فريداً للفداء فى سبيل الوطن ، وإن كنا لا نملك الوسيلة الآن حتى نتأكد من صدق أو كذب هذه الروايات .

حل العصبة اللاتينية :

كان على روما أن تنهج نهجًا جديداً تمامًا لما اتبعته قبل غزوة الغال لها ، فراحت تعتمد على قوتها هى نفسها ، فأولت للمنطقة الشمالية الواقعة على حدودها أهمية بالغة بأن أقامت فيها مستعمرتين لها (Colonies) . فكانت تلك بمثابة القلاع الأمامية للدفاع عن روما ضد الغزاة . ثم ولت وجهها شطر المدن اللاتينية (أمثال مدينة تيبور Tibur ومدينة براينستى (Praeneste) ، اللتان كانتا قد شقتا عصا الطاعة لروما وثارتا على زعامتها لإقليم لاتيوم) وذلك بهدف تأديبها وإدخالها بالقوة إلى حظيرة طاعتها ، واستغلال جميع موارد العصبة اللاتينية لصالحها أولاً ، وتتضح سياسة روما هذه في تلك المعاهدة التى عقدتها مع قرطاجة باسم روما ، نيابة عن لاتيوم كلها ومدنها جميعًا . كان ذلك سنة ٣٤٨ ق.م ويبدو من نص المعاهدة - التى حفظها لنا المؤرخ پوليبيوس (Polybius)[١] أن قرطاجة - وكانت أقوى دولة بحرية عندئذ - تعهدت ألا تتعرض للمدن اللاتينية بسوء ، طالما بقيت هذه المدن على ولائها لروما . هذا شرط أول لصالح روما أما البند الثانى الذى يؤكد استغلال روما وفرض سيطرتها

١ - مؤرخ يونانى وعاش فى الفترة من ٢٠٠ إلى ١١٧ ق.م ، ويعد التاريخ الذى كتبه عن روما فى تلك الفترة من أوثق وأدق ما كتب عنها ... لأنها كتابة محايد ولم يكون بوقًا للدعاية لحساب روما وزعمائها كما أن تاريخه الذى يقع فى ٤٠ كتابًا - يمثل وجهة نظر سياسى محنك ، عرف الشعب الرومانى وقيادته فى تلك الفترة عن كثب ، بعد أن أسره الرومان سنة ١٦٦ ق.م ، عقب هزيمة العصبة الآخية (Achaea) فى الپلوپونيز، يذكر عنه ، رأيه الصائب وإدراكه العميق لحركة التاريخ وتفرد روما وبسط سلطاتها السريع ، وإذا قال « إن سيادة روما العالمية بعد فترة كفاح دامت حوالى نصف قرن (من ٢٢٠ إلى ١٦٨ ق.م) أمر لا نظير له في التاريخ » ، والحقيقة أن التاريخ لم يعرف حتي الآن نموذجا آخر لمدينة فرضت نفسها على المنطقة التى تعيش فيها ثم تكون إمبراطورية خارج أراضيها لنفسها فى مثل هذه السرعة .راجع موجز عنه عندنا فى كتابنا الذى بين يديك ، ص ص ٣٢ - ٣٤ .

على مدن العصبة اللاتينية عنوة ورغمًا عنها ، هو أن قرطاجة تعهدت لروما بأن تعيد إلى سيطرتها - أى سيطرة روما - أي مدينة لاتينية متمردة تسقط فى يد قرطاجة .

وجدير بالذكر أن هذا الإجحاف والظلم من روما لمدن العصبة أدى - بعد مرور حوالى ٨ سنوات فقط أى حوالى سنة ٣٤٠ ق.م إلى ثورة عارمة بين تلك المدن ضد روما استعانت فيها تلك المدن بأهالى كمپانيا جيرانهم الجنوبيين .

ولسوء حظ اللاتين (Latini) فإنهم قد هُزموا أمام روما فى معركة جبل ڤيزوڤيوس (Vesuvius) . وكان من روما أن حلت العصبة اللاتينية وجردتها من كل خصائصها الاتحادية وكان ذلك حوالى ٣٣٨ ق.م . وتغير كل شئ بعد تلك الثورة المشئومة ، فلم يعد الرجل اللاتينى قادراً على التمتع بالحقوق التى ذكرناها سابقًا إلا فى مدينته فقط ، أو على أحسن تقدير فى روما كذلك ، ولكن لايمكنه ذلك في أى مدينة أخري من مدن العصبة اللاتينية ، كما كان الحال من قبل . بينما - على العكس تمامًا - كان المواطن الرومانى - ساكن مدينة روما - هو صاحب الحق فى التمتع بكافة الحقوق السابقة في كل مدن العصبة . وهكذا احتكرت روما لنفسها حق التعامل - كمنتصرة - مع المدن اللاتينية . هنا نذكر دفاع د . عبد اللطيف أحمد على عن موقف روما هذا ، وهو موقف غير عادل - فيقول :

« إذا أدركنا فى مسلكها ما يجافى أحيانًا روح العدالة أثناء عملها - من أجل البقاء - فلعلنا لا ننسى أنه ما من أمة مظفرة إلا وقد يُوجَّه إليها نفس النقد . لقد أدركت روما أنه لابد من أن تصبح لاتيوم رومانية لكى تبقي هى واللاتين على قيد الحياة ، فابتدعت سياسة عزل المدن اللاتينية الواحدة عن الأخرى تحقيقًا لهذا الغرض » (١).

ويضيف د . عبد اللطيف ، فى آخر حديثه فى هذا الموضوع :

وهكذا أصبحت كلمة لاتينى لاتدل على شعب بالذات بقدر ما تدل على وضع قانونى معين واستمرت تدل على هذا المعنى قرونًا عدة ، بينما أصبحت الدولة الجديدة - التى كان نجمها يصعد فى الأفق العالمي - تعرف لا بالدولة اللاتينية بل بالدولة الرومانية(٢) .

وبالتالى ، كان لروما الحق فى إطلاق اسمها على ممتلكاتها الخارجية ومستعمراتها فى الشرق والغرب فنسمع عن الإمبراطورية الرومانية والجيش الرومانى والسلام الرومانى .

---

١ - روما (الجزء الأول : تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية) - القاهرة ص ٣٨ .
٢ - المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

وهكذا ، أيضًا ، كان اختيار ساسة روما - على مر القرون - لاستراتيجية الفتح والتوسع الخارجى الدائم ، منذ بداية نظامهم الجديد ، عام ٥١٠ / ٥٠٩ ق.م . وكان ، بحق ، اختياراً صعبًا ، مليئًا بالتضحيات ، معبراً عن صرامة وجلد زعماء روما العظام ، بالرغم من تغير الأشخاص وتبدُّل القيادات ، مما يعكس ثباتًا على المبدأ مهما كانت الظروف والملابسات ، وبذلك يتحقق على أرض الواقع مثلهم القائل : "Rem tene, verba sequentur" ، أي "تمسك (بصلب) الموضوع ، تأتيك التبريرات .. " ومن ثمَّ ، عرفت روما طريقها ، وقدمت الإغراءات لجيرانها تحقيقًا لأهدافها البعيدة الاستراتيجية ، واستخدمت كل السبل الممكنة وصولاً لتلك الأهداف ، تارة سلمًا ودبلوماسيةً ، وتارة أخرى حربًا بلا هوادة ، واستعداداً دائمًا للتضحيات .

الفصــــل الثالث

الفتوحات الخارجية

وتكوين الإمبراطورية الرومانية

أولاً : فتوحات روما داخل شبه الجزيرة الإيطالية :

١ - استسلام كمپانيا : (Campania) :

نجحت روما بأسلوبها المتميز في تحييد أعدائها أو بالقوة المسلحة مالم تنفع الوسائل الدبلوماسية فى إقناع كمپانيا بإلغاء تحالفها مع اللاتين ضد روما وتوصلت معها إلى عقد صلح منفرد ومنحت أهلها حق التعامل معها والزواج منها . كما ذهبت إلى أبعد من ذلك فأعطت بعض مدن كمپانيا حقوق المواطنة المدنية .

فأصبحت تلك المدن مثل كوماى (Cumae) جزءاً من روما بعد فشل مدن الوحدة اللاتينية، عقب ثورتهم في ٣٤٠ ق.م ضد روما وانهزامهم هزيمة ثقيلة عند جبل ڤيزوڤيوس (Vesuvius) عام ٣٣٨ ق.م .

وهكذا ردّت روما الصفعة صفعتين على وجه مدن العصبة اللاتينية ونجحت فى تحييد كمبانيا ، بل وكسبتها إلى جانبها ، ووجدت نفسها سيدة على منطقة فسيحة غنية فى جنوب إيطاليا الغربى وكذلك على جميع مدن إقليم لاتيوم .

٢ - الحروب السَّمْنِيَّة[١] :

نشب صراع مرير بين روما من ناحية وبين سكان المرتفعات الوسطى من شبه الجزيرة الإيطالية ، رجال الجبال أولئك وهم جماعات معروفة بقوتها وقسوتها ، ويسمون باسم (Samnites) استمرت تلك الحروب علي ما يقرب من ثلاثين عامًا : فالحرب السمنية الأولى استمرت من ٣٤٣ - ٣٤١ ق.م ، أى حوالى عامين ، بينما الحرب السمنية الثانية من ٣٢٧ - ٣٠٤ ق.م ، حوالى (٢٣) عامًا ، ولكن الحرب الثالثة بينهما استغرقت حوالي ثمانى سنوات فيما بين ٢٩٨ و ٢٩٠ ق.م .

---

١ - عن هذه الحروب وتأريخها ونتائجها على روما وسيادتها الكلية على وسط إيطاليا راجع :
Grant,M., History of Romem Great Britain 1978-79, pp. 52-56& Petrie, op cit., pp.21-23 .

وأهم ما يذكر من حلقات ذلك الإصرار العظيم من روما ، علي بسط نفوذها وسيطرتها على كل إيطاليا القديمة ، بما فيها سكان المناطق الجبلية ، تلك الموقعة المعروفة باسم موقعة الحَـلْـق (Fauces) عام ٣٢١ ق.م حيث فشل الرومان فى هزيمة القائد السامنى پنتيوس (Pontius) وأملى شروطه على القنصلين الرومانيين ، قائدى الجيش الرومانى . وما أن عاد القنصلان إلى روما لإقرار الاتفاق الذى وقعاه مع القائد السمنى ، حتى رفضه رجالات السناتوس وأجبروا القائدين الرومانيين على العودة لتسليم نفسيهما إلى القائد السمنى ليفعل فيهما ما يشاء . وما كان منهما إلا الطاعة والتنفيذ ، وهما يعلمان جيداً بأنهما هالكان لا محالة .

٣ - إخضاع الإغريق فى جنوب إيطاليا :

كان الساسة الرومان ، فى روما القديمة بعيدى النظر ويعرفون أصول الدبلوماسية الحقة ، فاتخذوا أول خطوة لفصل إغريق الجنوب عن القبائل السمنية القوية فى وسط إيطاليا ، وذلك بإنشاء مستعمرة ڤنوسيا الكبيرة .

ولما كانت تارنتوم (Tarentum) هي أقوى المدن الإغريقية وأكثرها ثراء وخصوبة ، فقد حاولت روما أن ترجئ الدخول فى صراع مباشر معها ، ولاسيما أنها دائمة الاتصال بالممالك اليونانية فى بلاد اليونان ذاتها لتضمن حماية نفسها من الإيطاليين . وحدث أن استعانت تارنتوم بملك يونانى ، وكان يتشبه بالإسكندر المقدونى ، ويدعى بيرّوس (Pyrrhus) الذى كان ملكًا على عرش إبيروس (Epirus) فى شمال غرب اليونان . وحاول هذا الملك أن يقوم بدور محرر الإغريق فى الغرب ، ولكنه اصطدم بروما الفتية ، ودخل معها ثلاث معارك تارة ينتصر وتارة ينهزم ، ولكنه فى النهاية خرج مهزومًا شر هزيمة عند بنڤنتوم (Beneventum) فى إقليم سمنيوم (Samnium) عام ٢٧٥ ق.م حتى ضُرِبَ به المثل فى تحقيق الانتصارات الباهظة الثمن والفادحة الخسائر وبالتالى الأقرب إلى الهزيمة[١] وسقطت تارنتوم بهزيمة حاميها بيروس ، ودخلت فى حظيرة روما القوية منذ ذلك التاريخ .

٤ - إخضاع شمال إيطاليا :

لقد تأخرت روما في شمال إيطاليا ، حتى مطلع القرن الثانى ق.م . وذلك لأنه كان مسرحًا للعمليات الحربية بين أقوى عدو لروما آنذاك وهو هانيبال (Hannibal) القرطاجى ، الذى كان

---

١ - شاع فى اللغة الإنجليزية تعبير (Pyrrhic Victory) وذلك لضرب المثل بتلك الهزيمة الثقيلة فى التاريخ القديم ، كثمن فادح لانتصار وهمى .

يحارب روما من الشمال ويحتفظ بإقليمين فيه . ولكنه بهزيمة هانيبال النهائية ورحيله من الشمال فى عام ٢٠٣ ق.م استسلمت لروما كل مدن وأقاليم الراين الهام من شبه الجزيرة الإيطالية . وكعادة روما فى الفتوحات الخارجية ، أقامت هنا كذلك عدة مستعمرات رومانية ولاتينية ، لتأكيد سيادتها ونفوذها ولضمان الولاء لها كما أنشأت عدداً من الطرق العامة المعبدة ، مثل طريق إميلوس (Aemilius) والذى أنشىء عام ١٨٧ ق.م ، وطريق كاسيوس (Via Cassia) عام ١٧١ ق.م ، وذلك لتسهيل الاتصال بروما عبر إتروريا وحتى وادى نهر البو . ولم تنس روما إنشاء قاعدتين بحريتين عند لونا (Luna) وجنوه (Genua) بعد هزيمة الغال فى عام ٣٢٠ ق.م .

روما سيدة إيطاليا :

وهكذا فإن روما ، حوالى نهايات القرن الثالث وبدايات القرن الثانى ق.م ، كانت قد غدت زعيمة لاتحاد إيطالى ، يمكن وصفه بأنه كان اتحاداً فيدراليًا ، يقوم على :

١ - عقد المعاهدات بين المدن الإيطالية وروما فقط ، وليس بين المدن الإيطالية وبعضها البعض مع احتفاظ كل مدينة بحكومتها وقوانينها الخاصة .

٢ - كان السناتوس الرومانى ، فى روما فقط ، يقوم بدور مجلس الاتحاد الفيدرالى ، ويصرِّف كل أمور هذا الاتحاد فى شتى الموضوعات والعلاقات ، سواء ما يتعلق منها باللاتين أو الإيطاليين أو إغريق أو غال .

٣ - كان الاتحاد الرومانى ذو طابع عسكرى بالدرجة الأولى إذ كان على المدن الأخرى أن تضع جميع مواردها العسكرية تحت تصرف روما فى أى وقت تشاء . وهكذا كانت إيطاليا كلها قوة محاربة تحت قيادة روما ، التى كانت تتصرف بحرية كاملة باسم هؤلاء جميعًا وثبت ذلك فى كل القضايا السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية .

أما الشكل الاجتماعى والإدارى لهذا الاتحاد فيمكن إيجازه فيما يلى :

أولاً : المواطنين الرومان (Cives Romani) :

أ - وكان بعضهم يتمتع بكامل الحقوق المدنية والسياسية كذلك ويعرفون بطبقة (Cives optimo iure) وكانت تلك البلاد تسمى ببلديات الشعب الرومانى (municipia civium Romanorum) .

أو فى المراكز والقرى التابعة لتلك المدن أو المستعمرات الرومانية ، التى كان يتألف سكانها من المواطنين الرومان (coloniae civium Romanorum) وكانوا هم الوحيدون الذين يعفون من الخدمة العكرية لأنهم يدافعون عن مستعمراتهم أصلاً .

ب - وكان البعض الآخر لايتمتع بكامل حقوقه السياسية وهم المعروفون باسم (Cives sine suffragio) مثل الحرمان من حق الاقتراع أو الترشيح .

ثانيًا : الحُلفاء (الأجانب :Peregrini) : -

أ - الحلفاء اللاتين (Socii Latini)

وهم أشد سكان إيطاليا صلة بروما وأكثرهم ولاء لها . وكانوا يقيمون فى المستعمرات اللاتينية القديمة ، وكان لهم حق النزوح إلى روما لاكتساب الجنسية الرومانية بشرط ترك أبناء لهم فى سن الجندية ولكنهم لم يكونوا يخدمون فى الفرق الأساسية للجيش الرومانى (Legiones) بل كانوا يؤلفون وحدات خاصة مساعدة (Auxilia) من المشاة (cohortes) أو الفرسان (Alae) .

ب - الحلفاء الإيطاليين (Socii Italici)

وكانوا يشملون بقية سكان شبه الجزيرة الإيطالية من وأجناس أخرى مثل الأوميرى (Umbri) والأترورى (Etruri) والإغريق (Graeci) وكانت كل جماعة أو قبيلة (Tribus) منهم ترتبط مع روما بمعاهدة خاصة (Foedus) .

وجدير بالذكر أنهم كانوا مدنًا حرة مستقلة فى شئونها الداخلية فقط (Ligerae) ذات دساتير وتنظم خاصة ، ولم تكن تدفع لروما أى نوع من أنواع الضرائب ولكنها كانت ملتزمة بمساعدة روما العسكرية ، وتخضع لسياستها الخارجية . كما أن المدن الإغريقية ، فى جنوب إيطاليا ، كانت معفاة من الخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى ، لأنها كانت ملزمة أن تمد الأسطول الرومانى بالسفن والملاحين ، مما أطلق عليهم اسم الحلفاء البحريين (Socii na-vales).

هكذا ، تجد مرونة السياسة الرومانية ، تتشكل مع كل ظروفها ، وتتأقلم ، بل وتتغير لتتلاءم مع كل موقف تفرضه عليها الأحداث والعلاقات مع الشعوب الأخرى التى خضعت لسيادتها وزعامتها .

وهكذا ، أيضًا ، بدأت روما تخطو خطوات واسعة وعملية نحو تنفيذ مخططاتها التوسعية تحقيقًا لاختيارها الصعب الذى فرضته على نفسها وعل أجيال عدة ، من بعدها ..

فهل نجح التحدى الرومانى خارج إيطاليا كذلك ؟ .

ثانيًا : فتوحات روما خارج إيطاليا وتكوين الإمبراطورية الرومانية :

إننا هنا - في هذا المجال - لن نتناول بالشرح والتفصيل معارك روما وانتصاراتها الخارجية وسنكتفي بعرض سريع موجز لفتوحات تلك الدولة الفتية ، التي أثبتت مقدرتها على التصدى وتحقيق طموحات قادتها وسياستها في تدمير أعظم قوى ذلك الزمان ، ألا وهى قرطاجة تلك المملكة التي كانت يومًا ما حليفًا لها ، ولكن سوء النية عند الرومان ، وحقدهم على نفوذ وثراء قرطاجة ، جعلهم يأخذون موقفًا غريبًا ، من حادثة صغيرة ، حول مدينة "ميسّانا"(Messana) في صقلية ، وأصبحوا هم أعداء لقرطاجة مما فرض عليهم حروبًا طويلة، لم يفطن الرومان إلى خطورة أوزارها على مجتمعهم نظراً لسوء تقديرهم وعظم طمعهم.

ويعلل الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على[١] هذا الموقف الغريب للرومان من حليف آخر ، هو الملك ، هيرون في صقلية ، تعليلا مقنعًا للغاية ، فيقول :

" إن نزعة النظام والطاعة في الداخل ، لم تولد في نفوس الرومان روح العدالة والشرف عندهم وعند تعاملهم مع الأجانب ، لأن نظرتهم العملية إلى الحياة ، وهى نظرة لا تتضمن العقل أو تهذيب الشعور ، لم تساعد على تنمية السلوك النبيل إلا مع بنى جلدتهم . وليس في معنى كلمة ڤيرتوس[٢] (Virtus) التي تعبر عن واجبات المواطنين العملية ما يوحى بشرف التعامل خارج دائرة المواطنين ، فالمثل العليا تحتاج إلى شئ من الخيال لتجد لها مكانًا في الحياة العامة وكان الطابع الغالب عالى الدبلوماسية الرومانية هو « الإلتواء » وسنلمس دائمًا روح الشدة ، التي كثيراً ما تبلغ حد القسوة في سلوك الرومان إزاء العدو والمغلوب " .

لقد دخلت روما الحرب مع قرطاجة على ثلاثة مراحل :

١ - الحرب البونية[٣] الأولى (٢٦٤ - ٢٤٢ ق.م) .

٢ - الحرب البونية الثانية (٢١٨ - ٢٠١ ق.م) .

٣ - الحرب البونية الثالثة (١٥١ - ١٤٦ ق.م) .

---

١ - روما - الجزء الأول - تاريخ الجمهورية والإمبراطورية الرومانية ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٩٩ .

٢ - وحول المضامين السلوكية لهذه اللفظة عند رجالات روما الجدد (Novus Homo)في مقابل عراقة الأصل وتصرفات النبلاء وفق مشاعر التعالي والسمو (Nobilitas)، راجع الطنطنة الغربية لهذه المفاهيم عند Earl,D., The Moral and Political Tradition of Rome, Thames and Hudson, England 1967, : pp. 20 - 58 .

٣ - سميت تلك الحروب بالحروب البونية نسبة إلى التسمية اللاتينية لهذه الحرب (Bellum Punicum) التي اشتقت من الصفة (Punicus) وتعنى قرطاجى ، أو " ذو لون أحمر أرجوانى " .

وكانت قد حققت فى المرحلة الأولى السيادة البحرية على غرب إيطاليا وحول صقلية ونسمع خلالها قصة القائد الرومانى «Regulus» الذى كان قد وقع فى الأسر بين يدى القرطاجيين وكيف أنه أوفى بوعده وشرف كلمته أثر قيامه بإقناع السناتوس بشروط قرطاجة وعاد فسلم نفسه أسيراً حيث لقى حتفه ، ضاربًا المثل على الفداء والتضحية (devotio) فى سبيل وطنه وكرامته [١].

وفى المرحلة الثانية ، استطاعت روما أن تهزم قرطاجة فى موقعة (Zama) زاما بشمال إفريقية عام ٢٠٢ ق.م بعد سلسلة طويلة من تبادل الهزائم والانتصارات بين قادتها وبين هانيبال[٢] القائد القرطاجى العظيم الذى أوقع بالجيش الرومانى أفدح الخسائر فى موقعة كنّاى (Cannae) عام ٢١٦ ق.م . تلك المعركة التى أصابت المجتمع الرومانى بالشلل والفزع التام ولفت سياسته بالحيرة وألبستهم رداء الشك والقلق على مصير دولتهم . فلجأوا وهم فى حالة الفزع " فزع دينى " إلى الآلهة لإرضائها ، لعلها تكشف عنهم تلك الغمة ، والكارثة العظيمة [٣].

ولكن روما ، بزعامة السناتوس القوية الصارمة ، والهادئة كذلك ، استطاعت أن تضمد جراحها بأسرع ما يمكن ولم تمض شهور على أعظم خسارة حلت بها ، حتى كانت أمورها تسير سيرها الطبيعى ، وقد خلقت من الهزيمة نصراً جديداً ، على نفسها وعلى عدوها ، فحققت نصراً كبيراً فى موقعة ميتاوروس (Metaurus) على هَاسْدرُوبال أخى هانيبال ، الذى قُتل فى الميدان عام ٢٠٧ ق.م ، وذلك بعد نجاح روما فى الذود عن نفسها ، وصد هجمات هانيبال نفسه عن أسوار المدينة فى عام ٢١١ ق.م .

أما المرحلة الثالثة ، فقد تمكنت روما من تدمير مدينة قرطاجة ذاتها وتم تحويلها إلى ولاية رومانية ، ضمن أملاك الشعب الرومانى أى (Provincia) فى عام ١٤٦ ق.م ، على يد

---

١ – ويذكرنا هذا بقصة المضيفة المصرية ، شادية ، التى كانت همزة وصل بين مختطفى الطائرة المصري (بوينج ٧٣٧) فى مطار فاليتا بمالطة فى شهر نوفمبر سنة ١٩٨٥ ، وكيف أنها خرجت من الطائرة لتوصيل شروط المختطفين والتفاوض مع مسئولى المطار وعودتها بكامل إرادتها إلى الطائرة مرة ثانية بالرغم من أن ذلك كان يعنى إنهاء مصيرها . وكان قدرها كذلك .

٢ – وتعنى الفنيقى ذلك لأن قرطاجة (Carthago) كانت مستعمرة فينقية ، أنشئت فى أوائل القرن ق.م ، ولمزيد من المعلومات عن عبقرية هانيبال الحربية ، أنظر/ بسام العسلى : هانيبال القرطاجى ، المؤسس العربية ، بيروت ١٩٨٠ .

٣ – أقرب مثل لتلك الكارثة هى نكستنا نحن فى عام ١٩٦٧ ، حيث فقدنا حوالى ٨٠٪ من أسلح جيشنا وما يقرب من ١٠٠ ألف من الجنود والضباط ما بين قتيل وجريح ومفقود . وقد استعدنا ثقتنا بأنفس بعد ٦ سنوات وحققنا نصراً عسكريًا غاليًا على إسرائيل فى ١٩٧٣ . لقد فقدت روما كذلك فى عام ١٦ ق.م حوالى ٨٠،٠٠٠ أو (٥٠،٠٠٠) جنديًا رومانيًا وبدت وكأنها لن تقوم لها قائمة بعد ذلك .

القائد الرومانى العظيم سكيبيو أيْميليانوس (Scipio Aemilianus) الذى استولى عليها بعد حصار دام (١٥) شهراً ، وتم تدميرها تدميراً كاملاً عام ١٣٣ ق.م .

إننا هنا فى هذا القسم من دراستنا عن الفتوحات الرومانية الخارجية لن نتعرض لموضوعاتنا تفصيلاً ، ذلك لأن تلك التفاصيل والمعارك التى دارت بين القوات الرومانية وأعدائها ، لايجب أن تلهينا عن الصورة العامة للشعب الرومانى ، والآثار التى ترتبت على هذه الصراعات الحربية ، الطويلة سواء سلبًا أم إيجابًا على الحياة الاجتماعية والاقتصادية من ناحية وعلى الحياة السياسية فى روما ، من ناحية أخرى ، وهذا فى حد ذاته هو الاتجاه الصحيح والحديث فى نفس الوقت ، لدراسة التاريخ بفروعه المختلفة .

ولكننا ، برغم ذلك ، وزيادة فى الفائدة ، سنعرض عرضًا سريعًا وموجزاً للغاية ، فى تسلسل تاريخى ، كلما أمكن ذلك للتوسعات الرومانية الخارجية ، حتى نتعرف على حجم المجهودات الضخمة التى بذلتها روما لتكوين إمبراطورية خارجية . لقد دخلت روما ميدان الحرب فى أكثر من جبهة فى آن واحد ، مما فرض عليها إرسال الجيش فى كل اتجاه ، وزاد ، بالطبع من أعباء الدولة والمواطن الرومانى على الخصوص .

أولاً : لقد حققت القوات الرومانية ، بعد معارك كثيرة ، انتصاراً غاليًا على يوجورتا ، أمير مملكة نوميديا (الجزائر تقريبًا) ، عقابًا لها على انحيازها مع القرطاجيين ضد روما فى موقعة زاما عام ٢٠٢ ق.م ، فلم تنس لها روما ذلك ، ودخلت فى حروب مستمرة مع هذا الإقليم فى شمال غرب إفريقيا إلى أن تم القضاء على يوجورتا[1] آخر أعداء روما فى المملكة عام ١٠٤ ق.م ، بعد أن دوخ هذا الأمير ، الإفريقى ، القادة الرومان فى حرب عصابات ، والساسة الرومان ... بأساليبه الملتوية ، فأوقعوه فى الأسر وزجوا به فى السجن حيث قُتِل. وكانت مكافأة القائد الرومانى العظيم ، ماريوس بأن رشحه الشعب الرومانى بإصرار ، قنصلاً لعام ١٠٤ ق.م ، للمرة الثانية رغم تناقض ذلك مع الدستور الرومانى ، بل إنه ظل فيها لمدة ٥ سنوات متوالية (١٠٤ - ١٠١ ق.م) نظراً لثقة الشعب الرومانى فيه وفى قيادته ثقة مطلقة ، فضلاً عن إنجازاته العسكرية والتفاف قادته العسكريين حوله وإيمانهم الشديد بزعامته

١ - بلغت جرأة يوجورتا أنه دبر مؤامرة لخصم له فى روما ذاتها لأنه كان ينافسه على عرش نوميديا . ولما كشف أمره أمرته الحكومة الرومانية بمغادرة روما والعودة إلى بلاده ، عندئذ قال قولته المشهورة عن مدينة روما عام ١١ ق.م . (Sallustius, Bellum Iugurthinum, XXXV, 10) مدينة للبيع توشك أن تزول بسرعة، إلا إذا وجدت من يشتريها (المشترى Lit "Urbem venalem matuic pevituram si emptorem invenent" .

لهم وولائهم له فى الوقت الذى ساءت فيه سمعة رجال السناتوس ورشوتهم وهزيمة قوادهم فى أسبانيا وشمال إيطاليا أمام قوات القبائل الجرمانية الجائعة عام ١١٣ ق.م ، فكانت فرصة طيبة لظهور نجم ماريوس وتكوين جبهة شعبية ديموقراطية (Populares) بزعامته فى مقابل الحزب الأرستقراطى (Optimates) الذى قلت هيبته وتزعزت أركانه .

ثانيًا : كسر شوكة مملكة پنطوس (Pontus) على سواحل البحر الأسود وهزيمة مثراداتيس (Mithradates) ، الذى أثار متاعب جمة للإيطاليين والرومان المقيمين فى آسيا الصغرى ، عندما أعلن الحرب على روما منتهزاً فرصة إنهماكها فى داخل إيطاليا مع جيرانها من القبائل الإيطالية المختلفة . وقد زاد من قوة هذا الملك (اليونانى) تحالف كثير من المدن الإغريقية فى آسيا الصغرى معه ومناشدة الشعب الأثينى نفسه ، فى عام ٨٨ ق.م لذلك الملك أن يخلص أثينا من حكومة الأقلية الموالية لروما . ولكن سوللا (Sulla) ، القائد الرومانى الكبير ، استطاع أن يحاصر مثراداتيس ، وبمساعدة قواده الآخرين ، ويهزمه فى البر والبحر مما أجبره على عرض الصلح الذى تم وفقًا للشروط الرومانية ، فى سنة ٨٥ ق.م .

ولكن مثراداتيس لم يهدأ ولم ينس أحلامه الماضية التى أجبر على التخلى عنها ، ولكن إلى حين لأنه عاد إلى مسرح الأحداث ، ومعه هذه المرة قراصنة من كيليكيا (Cilicia) ، شمال شرق البحر المتوسط ، وكانوا قد اعتادوا أن يغيروا على السفن التجارية الرومانية ، بل على سواحل إيطاليا نفسها ، يخطفون الأهالى ويبيعونهم فى أسواق الرقيق ، فأراد السناتوس أن يوقف هذا العبث بمصير الرومان والإيطاليين ، فأوفد حملة ضد هؤلاء فى عام ٧٧ - ٧٥ق.م ، ولكنها لم تنجز مهمتها كاملة .

ولما آلت مملكة بيثينيا (Bithynia) إلى الرومان بناء على وصية ملكها عام ٧٥ ق.م ، وتحولت إلى ولاية رومانية خاف ميثراداتيس على مملكته التى تقع فى شمال تلك المملكة ، من الحصار الرومانى لهُ فى بحر الدردنيل (Helles Pontus) والبسفور (Bosporus) وحرّض ابن ملك بيثينيا ضد الرومان . ولكن الرومان أوفدوا للبيثيين أكثر من جيش ، كان أحد قواده يحمل سلطة حربية مطلقة (Imperium Infinitum) فى البحر المتوسط للقضاء على القراصنة فى أى مكان فيه . وحقق الرومان نصراً أكيداً هذه المرة على ذلك الملك المشاغب فى عام ٧٢ ق.م ، وفر الملك تاركًا مملكته للرومان ولجأ إلى أرمينيا .

الفصـــل الرابع

الثورات الاجتماعية ونتائجها

مرت روما ، والرومان فى معظم أنحاء الإمبراطورية الرومانية على اتساعها الكبير ، بقلاقل وثورات عنيفة أخذت طابعًا اجتماعيًا ، أى أن معظمها إن لم تكن كلها ، وسواء بالحق أو بالباطل - رفعت شعار " **التغيير الاجتماعى** " لصالح الجموع الفقيرة من الآلف ، بل ملايين المواطنين الرومان الفقراء ضد الطبقة الراحدة المسيطرة ، والمتسلطة ، والمستفيدة من كل الأوضاع لصالحها ، وهى طبقة النبلاء الأرستقراطيين (Patres) (البطارقة) ، أو الأشراف - كما اتفقنا على تسميتهم من قبل .

كان ذلك لمدة قرن من الزمان تقريبًا (منذ منتصف القرن الثانى ق.م وحتى منتصف القرن القرن الأول ق.م) ... وكان الصراع الطبقى قد أسفر عن رضا وقناعة طبقة العامة (Plebs) ببعض المزايا الاجتماعية ، فقط ، وأسلمت القياد فى الأمور السياسية ، كما كان فى السابق، للطبقة العليا ، النبلاء والأشراف تتصرف فيها كيفما شاء لها .

ولكن الأوضاع لم تستقر على حال ، ولم يكن الهدوء الذى كان قائمًا طيلة النصف الأول من القرن الثانى ق.م ، إبان الحرب البونية الثالثة والأخيرة (للقضاء النهائى على قرطاجة ، والذى تم عـــام ١٤٦) **إلا بمثابة الهدوء الذى يسبق العاصفة الاجتماعية التى عصفت بكل شئ، ليس فقط فى روما نفسها ، بل فى أقرب الولايات الرومانية أيضًا** .

فقامت ثورة للعبيد (Servi) فى جزيرة صقلية ، فى الفترة ما بين ١٣٦ - ١٣١ ق.م ، أى لمدة خمس سنوات متصلة بقيادة عبد سورى يُسمى يونوس (Eunus) . ولقد كانت تلك الثورة من القوة والشمول حتى أن الثائرين استطاعوا أن يسكوا عملة خاصة بهم ، مرسومًا عليها صورة زعيمهم يونوس ، تشبهًا بالملك السورى أنطيوخوس[(١)] .

وجدير بالذكر أن الثورات الاجتماعية تلك (وهكذا يمكننا تسميتها استنادًا إلى مقدماتها ومراحلها الأولى فقط ، وليس إلى مراحلها النهائية التى تحولت إلى صراعات عسكرية

---

١ - سيد الناصرى ، تاريخ الرومان ، ص ٢٠٨ وما بعدها .وعن أحوال العبيد السيئة ، كالحيوانات ، راجع Grant, M., op cit., pp. 140 -142 .

ومواجهات مسلحة دموية بين رفقاء السلاح من القادة العسكريين الرومان ، بتحريض ودعم رجالات السناتوس الروماني ، لحساب هذا الحزب أو ذلك) قد مرت بمراحل رئيسية ثلاث نستطيع أن نتتبعها كالآتي :

١ - المرحلة الأولى : ظهور المصلحين الاجتماعيين .

٢ - المرحلة الثانية : الاستيلاء على السلطة العليا بالقوة .

٣ - المرحلة الثالثة : التكتلات الثلاثية .

أولاً : المرحلة الأولى : « ظهور المصْلحين »

إنه منذ الأزل ، قضت سنة الله فى خلقه وعلِمْنا من تاريخ الأمم السابقة أنه كلما فاض الكيل وطفح ، وبغى الظلم وتجبر ، قيَّض الله للناس المظلومين زعيمًا أو قائداً ، أيًا كان مسماه ، يرفع الظلم عنهم ويخفف من معاناتهم لأسباب لا يمكننا الوقوف على حقيقتها بدقة ويقين علمي ، ويعلمها الله وحده ، وأولئك المقربون من تلك الشخصية الرحيمة بالعباد . **وغياب المصادر التاريخية المعاصرة للأحداث التى وقعت آنذاك ، هو أول العقبات فى سبيل التوصل إلى حقيقة الأوضاع فى تلك الأزمنة السحيقة ، كما أننا لا نستطيع أن نصدق تلك الروايات اللاحقة ، من كُتَّاب متأخرين ، وذلك لشكّنا فى نواياهم وأهدافهم التى كانوا يخدمونها بتلك الكتابات !** .

مقدمات الثورة :

يَصِف كارى ، المؤرخ العظيم ، تلك الثورة بأنها عاصفة (a storm) كانت قد سبقتها مقدمات مستفزة ، تسببت فيها ، بشكل رئيسى ، الحروب الأسبانية ، وتجاوزت الرومان ، هناك ، لإحكام قبضتهم على ذلك الإقليم من الولايات الرومانية الخارجية . وكان الأهم والأخطر هو انعكاسات ذلك كله على المجتمع الرومانى ، داخل روما نفسها ، إذ تطور الصراع الداخلى إلى درجة عدم إطاعة السلطات الرومانية الشرعية ، كما تؤكد الوقائع التاريخية الثابتة الآتية :

١ - فى عام ١٥٥ ق.م : سَجَن جماعة من عامة الشعب (Plebs) القناصلة (Consules)!!، وذلك بمساعدة نقباء العامة (Tribuni) **فأى مسخرة وإهانة للإدارة الحكومية عندما يفرض الشعب إرادته فيقبض على رموزها ويحبسها !!!** لقد كانت

القناصلة ، فيما يُروَى ، يريدون فرض ضرائب جديدة على الجميع ، وكان البعض ، أيضًا ، يطمع فى التمتع ببعض الاستثناءات .

٢ - وفى عام ١٣٩ ق.م : حاول أحد نقباء العامة ويُدعى جابينيوس (Gabinius) ، أن يضمن درجة أكبر من استقلال القرار داخل الجمعية الشعبية (Comitia plebistica) عن طريق تقديم مذكرة مشروع قانون بالاقتراع المفتوح بدلاً من النظام القديم للاقتراع .

إذن هكذا بدأت الجرأة الشعبية وأقدمت على تغيير القوانين الرومانية القديمة لصالحها .

٣ - وفى عام ١٣٧ ق.م : أقدم نقيب آخر للعامة ، ويُدعى كاسيوس لونجينوس (Cassius Longinus) باستغلال القانون السابق الذكر (قانون جابينيوس) واستفاد منه وذلك بعد سريان مفعوله على الجمعيات الشعبية التشريعية كذلك .

وهذا يعنى سرعة اتخاذ القرارات الشعبية دونما إبطاء أو تدخل من مجلس السناتوس ، ممثل الأرستقراطية الرومانية ، والعدو الأول لكل إنجاز شعبى لصالح الطبقات الدُنيا .

وللأسف الشديد ، من الناحية العملية الفعلية ، لم يكن لكل تلك المقدمات (التى عبأت الروح الشعبية ، وعكست عدم رضاها وقناعتها بأحوالها) تأثير قوى أو نتائج إيجابية ملموسة لتحسين الأوضاع المتردية لعامة الشعب ، وطبقة العبيد ، بصفة خاصة ، وذلك نظراً لقوة قبضة الطبقة الأرستقراطية وإمساكها بمقدرات الشعب الرومانى فى كل اتجاه ، سواء داخل المدن الرومانية ، فى إيطاليا نفسها أو فى الولايات الخارجية .

ولهذا كان طبيعيًا أن يأتى الانفجار الاجتماعى ، لا من عامة الشعب الرومانى ، المقهور ، والمغلوب على أمره ، بل من العبيد الذين لايخافون على شئ خلفهم . فقاموا بثورتهم العنيفة - كما قلنا - فيما بين عامى ١٣٦ - ١٣١ ق.م. وحتى تلك الثورة العنيفة لم يكتب لها البقاء والاستقرار ، إلا لمدة خمس سنوات . حتى استطاعت القوات الرومانية الحكومية الإجهاز عليها تمامًا ، لأنها ضد طبائع الأشياء وقوانين السماء ، وبالرغم من أحقية أصحابها بدعواهم، إلا أن الانفصال والانعزال عن بقية أجزاء المجتمع كان أمراً نشاذاً ولا يمكن أن يسانده أى عاقل . وكان القول الحق والموقف العملى الواجب ، هو ضرورة تحسين أوضاع أولئك المعيشية وظروف عملهم ، وتغيير الأوضاع الاجتماعية بشكل عام لصالح الغالبية العظمى من المواطنين الرومان الصامتين العاجزين .

ومن هنا فإن مشروع النبيل ، الأرستقراطي ، تيبريوس جراكوس (Tiberius Gracchus) للإصلاح الاجتماعي ، عن طريق تحديد الملكية الزراعية ، للرومان ، كان هو الترجمة العملية الأمينة لإصلاح بعض جوانب الخلل في التركيبة الاجتماعية للمجتمع الروماني مجتمع السادة الأشراف النبلاء ، أو مجتمع ال ٨٪ .

لقد اعتبر الأرستقراطيون تمسك تيبريوس جراكوس بمشروعه هذا ، خروجًا على الشرعية الرومانية وضربًا لمصالحهم وتقليصًا لامتيازاتهم . وربما كان الأمر كذلك ، فعلاً ، في ضوء ردود الأفعال العنيفة من قبل مجلس السناتوس ورجالات روما العظام أصحاب المصالح العليا آنذاك . وربما كان كاري ، أيضًا مُحقًا حينما قال : « **لقد كان تيبريوس هو المحرك الأول للثورة الرومانية** » ... ذلك لأن إصلاحاته ، كما أعلنها ، في البداية ، كانت هي الاعتداء الحقيقي الأول على امتيازات النبلاء :

" The first really formidable attack upon the privileges of the nobles was made by Tiberius Gracchus, the prime mover of the Roman Revoltion "(١).

والحق أن المصادر الرومانية القديمة تظلم تيبريوس ظلمًا ظاهراً ، فهي ، من ناحية ، تتجاهل تمامًا بواعثه ومبرراته لحركة الإصلاح التي قصدها ، ومن ناحية أخرى ، نجدها ، بصورة عامة ، تشوه صورته وتقف ، في معظمها ، موقفًا معارضا له تمامًا ، حتى وصفته بأنه « **طاغية المستقبل** » (٢).

والحق أيضًا ، أن تيبريوس لم يكن بمبتدع في دعوته الإصلاحية هذه ، من خلال تحديد الملكية الزراعية للملاك الكبار ، وتوزيع الزائد على صغار الفلاحين المحرومين ، بل إن محاولته لم تكن سوى عملية إحياء لمشروع قديم ، هو مشروع جايوس لايليوس (Gaeus Laelius) ، عام ١٤٠ ق.م ، والذي كان قد حدد الإقطاعات الكبيرة ، بحد أقصى ، ٣٢٠ فدانًا رومانيًا ، وضرورة توزيع الفائض ، عن هذا ، على الفلاحين الرومان الفقراء ، غير المالكين للأرض . وما كان من السناتوس ، آنذاك ، إلا أن عارض بشدة ذاك المشروع وكل مشروع شبيه له أتى بعده . إذن لم يكن تيبريوس ، هو أول من نادى بإصلاح يحدد الملكية

1 - Cary- Scullard, op. cit., pp. 203 - 211, Chapter 20, especiall page 203 .

2 - Ibid., p. 203 .

الزراعيــة ، **فلمــاذا ، إذن ، كل هذه الثورة ضده ، والغضب والحقد عليه ، عندما تقدم بهذا المشــروع ؟!** وحتى يمكننا أن نتفهم الظرف التاريخ ، إبان الثلث الأخير من القرن الثانى ق.م ، يجب أن نتعرف أولاً على حقيقة دعوة تيبريوس للإصلاح وأبعادها الاجتماعية .

إنه بغض النظر عن تفاصيل روايات أصله النبيل وعراقة منبته ، أبًا وأمًا ، كما رواها لنا بلوتارخوس ، قصاص السير الذاتية لعظماء اليونان والرومان القدماء[1] يهمنا أن نتعرف بداية ، إن أمكن ، على خلفيات ذاك المشروع داخل شخصية تيبريوس ونفسه الراقية النبيلة .

البــــعض[2] ، يقرر أن هناك عاملين اثنين أثرا فى فكره وكانا وراء ظهور مشروعه الإصلاحى ، وهما :

أ) فلسفته الرواقية (Stoic) ، وتربيته الراقية الرقيقة .

ب) خراب الريف الإيطالى ، وهجرة الفلاحين منه (مثال / إقليم إتروريا ، شمال لاتيوم).

ويضيفون ، جزئيةً ، إلى هذين العاملين ، وهى بالإمكان أن تكون عاملاً ثالثًا ، وهى اشتداد مظاهر الظلم الإنسانى ، ولاسيما فيما يخص العبيد من قسوة فى المعاملة معهم ، وظروف العمل غير الإنسانية .

أما البعض الآخر ، وكان أكثر دقة وتحفظًا ، لأننا - ببساطة - لا نملك دليلاً معاصراً من المصادر الرومانية يحكى لنا ذلك ، وما روايات بلوتارخوس إلا مادة قصصية قُصد بها ، أصلاً التربية الأخلاقية والعظة الطيبة فى القرن الثانى الميلادى[3] أى أنها لاحقة على أحداث العصر الذى تحكى عنه بما لايقل عن قرنين ونصف من الزمان : فمن يضمن صدق تفاصيل تلك الروايات ؟! ونقصد بالبعض الآخر هنا العالمين كارى[4] وسكالارد ، مؤلفى كتاب « تاريخ روما » ، اللذان أعطيا أربعة احتمالات ، يرجحانها كلها ، أو بعضها ، كحوافز وبواعث كانت وراء مشروع تيبريوس الإصلاحى ، وهى :

---

1 - Plutarchus, Parallel Lives: Tiberius Gracchus, 8 2 .

٢ - سيد الناصرى ، تاريخ الرومان ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

٣ - حول تقييم روايات بلوتارخوس التاريخية ، راجع / السعدنى : " الإسكندر الأكبر فى المصادر العربية والفارسية " ندوة " العرب وآسيا " ، قسم التاريخ بجامعة القاهرة ١٩٨٩م .

4 - Op. cit., p. 203

١ - حب وميل تيبريوس إلى التأييد الجماهيرى ، باعتباره ديماجوجيًا[١] ، وبالتالى لجأ إلى تأييد المطالب الشعبية تلبية لنزعة داخلية نفسية .

٢ - طموح الشباب فيه ، جَعَله ، يحاول استغلال الظروف السياسية السيئة التى كانت روما تمر بها ، وتذمر الجماهير العريضة من تلك السياسات الظالمة ، وانشقاق الأحزاب على نفسها وتباين مواقفها من الأزمة الاجتماعية .

٣ - وربما ، أيضًا ، كان لمربيه اليونانى ، ومعلمه الرومانى ، دور بارز فى التأثير على تفكيره وفهمه لأمور السياسة والمجتمع ، حاملاً نظريات وآراء هيللينستية حول ضرورة سيادة العدل الاجتماعى .

٤ - وربما ، كان العامل الاقتصادى ، المتمثِّل فى سوء أوضاع الفلاحين الرومان (وضرورة تحقيق الاكتفاء الذاتى من الإنتاج المحلى ، وكذلك محاولة تقليل آثار البطالة المتفشية فى المجتمع الرومانى ، عقب الحروب الطويلة التى خاضتها طيلة القرنين الثالث والثانى ق.م ، وتسريح آلاف الجنود الرومان ، بعد ذلك) هو السبب الرئيسى وراء مشروع تيبريوس للإصلاح.

ويؤكد كارى ، فى معالجته الرائعة الدقيقة لهذا الموضوع ، على أهمية العنصر الأخير ، كسبب رئيسى ، بحثًا عن علاج لبعض مشاكل المجتمع الرومانى آنذاك ، فيقول بوضوح :

" At the very least he was clearly disturbed by the economic situation and sought a cure for some of the current ills "[٢].

ونحن نرى أن هذا العامل الاقتصادى ، ربما كان له الغلبة على تفكير تيبريوس عندما تقدم بمشروعه ، علمًا بأنه لايمكن ، بحال من الأحوال أن نعزل هذا عن بقية الدوافع الأخرى الذاتية ، ولاسيما إذا عرفنا أنه ، أى المشروع :

أ) جاء فى خضم وأعقاب فشل ثورة العبيد فى صقلية ، فالظرف التاريخى ، هنا ، وتوقيت المشروع ، يؤكد وجود رؤية ذاتية عند تيبريوس ، للإصلاح ، لمعالجة الوضع الاجتماعى والاقتصادى المتردى .

---

١ - هى كلمة ذات أصل يونانى ومركبة من مفردتين الأولى ديموس (Démos) وتعنى : الشعب أو الجماهير ، والثانية / أجوجى (Agógé) وتعني تربية أو سلوك .

2 - Op. ct., p 204 .

ب) تولّى تيبريوس منصب النقيب (Tribunus) - أى / نقيب العامة عام ١٣٣ ق.م ، أثناء اندلاع ثورة العبيد واستقلالهم وعلمه بتفاصيل الأزمة وأسبابها الحقيقية .

جـ) كان قد تولى منصب الكوايستور (أحد أعضاء الخزانة والمالية) فى إسبانيا ووساطته بين القنصل الرومانى والثوار الإسبان ضد الوجود الرومانى هناك ، وكسبه لثقة وحب ذاك الإقليم ، ومعرفته التامة لخبايا الخراب الاقتصادى الذى ألمّ بالولايات ، فى طريق عودته إلى روما ، قبل تقديمه لمشروعه .

عندئذ ، يبرز السؤال السابق ، من جديد ، **وما هى حقيقة مشروع تيبريوس الإصلاحى ؟**

كان المشروع يتضمن البنود الآتية :

١ - تحديد الملكية الزراعية بـ (٥٠٠) خمسمائة يوجيرا (iugera) رومانية ، أى حوالى (٣٠٠) هكتاراً ، كأقصى حد للمالك الواحد .

٢ - تحديد حق كل طفل ، من أطفال الأسرة الواحدة ، فى إضافة (١٥٠) مائة وخمسون يوجيرا ، أخرى ، إلى ملكية الأب[1] .

٣ - تقدير المساحات المؤجرة ، وتفويض واضعى اليد .

٤ - تقسيم المساحات المصادَرة (فى أحكام قانونية ضد بعض المواطنين الرومان) إلى قطع وحصص صغيرة تُوزَّع على المعدمين ، بأجر رمزى مع التشديد على عدم قابلية التصرف فى هذه الحصص الموزعة بأى شكل .

وهكذا نحس فى المشروع روح الإنصاف والعدالة ومراعاة التوازن بين الأغنياء والفقراء تحقيقًا للصالح العام لكل المواطنين الرومان :-

أ) فالأغنياء ، سيضمنون إقطاعيات كبيرة ، عن طريق إضافة المساحة الأخرى التى كفلها القانون لأبنائهم .

ب) والفقراء سيحصلون على حصص صغيرة يعيشون على ريعها ، بدلا من التسول أو العمل كأجراء .

---

١ - هناك تفسيرات كثيرة وتضارب فى الحد الأقصى المسموح بملكيته ، وفقًا لقانون تيبريوس . تارة يذكر المرجع رقم (٣٢٠) فدانًا وتارة أخرى رقم (٥٠٠) فدانًا أو (٣٢٠) + (١٦٠) فدانًا للأولاد . ويبدو أن القول بحصة ثابتة للأطفال ، عبارة عن (٣٠) يوجيرا = (١٨) هكتاراً ، جاءت من تفسير لاحق لقانون عام ١١١ ق.م ، من فقرة مشوهة فيه ، راجع Cary, op. cit , p. 610

وبذلك يتم تحجيم خطر البطالة بين الرومان الأحرار الفقراء . **ولكن المشروع ، فى شكله النهائى ، الذى لا نعرفه بيقين تام ؟! لم يكن كافيًا لحل مشكلة الجنود المسرحين**(١) وآثارهم الاجتماعية الخطيرة على المجتمع الرومانى آنذاك ، كما لم يعالج أو يُشر ، من قريب أو بعيد، إلى مشلكة العبيد وأحوالهم السيئة .

ومن المرجح أن القانون كان ، فى أساسه ، يعالج كل تلك المشاكل ويضع مقترحات لحلها ، ولكنه عندما تمت معارضته وعدم الموافقة عليه فى مجلس الشعب (أو / الجمعية الشعبية : (Concilium Plebis) على أيدى زميل تيبريوس ، المدعو / أوكتاڤيوس ، اضطر تيبريوس - كما تذكر الروايات التاريخية - أن يؤجل التصويت النهائى عليه لمدة أسبوعين أو ثلاثة ، ليعيد حساباته أو ليعيد صياغته بشكل يضمن به إقراره من الجمعية الشعبية ، ولكى يستعد لمواجهة مؤامرات أعضاء مجلس السناتوس ، الذين كان لهم تأثير قوى ، غير مباشر ، على أعضاء تلك الجمعية .

ولذلك كله ، فإن بنود المشروع الإصلاحى التى قدمها تيبريوس ، فى المرة الثانية ، وكان المتوقع منها أن تخف حدتها وأن تقوم بعملية ترضية للأقوياء ، والأغنياء ، وبالتالى كانت هناك ، بالضرورة ، تنازلات عدة أقدم عليها تيبريوس مكرهًا ليضمن نجاح مشروعه ، حتى ولو بأية صورة . ولنا فى وصف كارى ، لهذا المشروع ، بعد التعديلات الإجبارية عليه ، واضطرار تيبريوس إلى إجراء تغير وتعديل على بنوده بأنه :

أ) نوع من الترضية : " .. A model of compromise " .

ب) إجراء للحماية الذاتية : "by way of self-protection ... " .

أدق تحليل وأقرب تفسير منطقى لما يمكن أن يكون قد وقع بالفعل آنذاك وهذا يتضح بجلاء فى رد الفعل العنيف من تيبريوس ، بعد كل تلك التنازلات ، فى الغالب ، والتى أقدم عليها ، عندما بدأت محاولات جديدة ، فى المرة الثانية ، لإجهاض المشروع تمامًا ، مما اضطر تيبريوس لاستخدام القوة والعنف لإخراج أوكتافيوس تمامًا ، مما اضطر تيبريوس لاستخدام القوة والعنف لإخراج أوكتاڤيوس ، مرغمًا ، من داخل قاعة الجمعية ، حتى تتم الموافقة عليه ، ولولا ذلك ما كان الاقتراع عليه بالموافقة ممكنًا . إن ما فعله تيبريوس ، لتمرير مشروعه ،

---

١ - حيث جاء وصف ذلك بدقة عند كارى قائلا "was totally inadequate ... " .

Cary, op. cit., p. 204 .

لم يكن فيه بمبتدع للخروج عن الشرعية الرومانية ، ولا يمكن أن يُقاس بجُرم السناتوس عندما حرّض أحد أعوانه (ناسيكا : Nasica) فقتل تيبريوس فهذا هو الجُرم الأشد والأفظع عندما لجأ السناتوس إلى التصفية الجسدية له ولأعوانه **فى أول سابقة دموية للاغتيال السياسى فى كل التاريخ الرومانى القديم** .

ثانيًا : المرحلة الثانية : الاستيلاء على السلطة العليا بالقوة أو ، كما يمكن تسميتها بألفاظ أخرى « مرحلة العنف » .

لقد كانت البداية الدرامية المأساوية لمثل تلك التصرفات والسلوكيات الدموية التى كلّفت الشعب الرومانى الكثير هى قتل تيبريوس جراكوس ومطاردة أخيه من بعده ، لمحاولته تحقيق مشروع أخيه . إذ أن تلك البداية كانت هى الشرارة الأولى لاندلاع الحروب الأهلية الرومانية ، فيما بعد وحقًا قال كارى[١] :

" Indeed Tiberius marked rather made the beginning of the Roman Civil war " .

ومرت السنون ، ولا نعرف كيف سارت الأمور بين السناتوس ممثل الأرستقراطية القديمة وبين طبقة النبلاء الجدد (Nobiles) ، أصحاب المناصب الإدارية العليا[٢] ، الذين كانوا قد بدأوا يتغلغلون إلى الصفوف الأولى فى المجتمع الرومانى ، فى النصف الثانى من القرن الثالث ق.م[٣]، ولا ماذا تم بعد فشل محاولات الإصلاح الاجتماعى عن طريق تحديد الملكية الزراعية على أيدى الأخوين جراكوس .

وعند منتصف الربع الأول من القرن الأول ق.م ، ظهر على الساحة العسكرية منافسات وتحالفات بين القادة العسكريين .

وقد وقعت أحداث أبرز تلك المنافسات التى وصلت إلى حد التصادمات الدموية ، بين الرومان أنفسهم ، لأول مرة فى تاريخهم القديم (منذ انتصارهم المدوّى على قرطاجة عام ١٤٦ ق.م، وتدميرها وتسويته بالأرض عام ١٣٣ ق.م) بين عامى ٨٨ و ٨٦ ق.م. فهل كانت تلك

---

1 - Cary, op. cit., p. 206 .

٢ - وصل عدد تلك العناصر المسماة : (الرجال الجدد : Novi Homines) إلى (١١) أحد عشر فرداً ، تقلدوا منصب القنصلية فى الفترة من ٢٦٤ - ٢٠١ ق.م ، وهو أعلى منصب فى الدولة آنذاك .

3 - Cary, op. cit., p. 206 .

الصدامات الدموية ، بأيدى الرومان ، **هى تصفية حسابات قديمة ، بين القادة العسكريين** ، لم يقدروا عليها أثناء حروبهم مع عدو خارجى ، ولكنهم بعد زوال الأخطار الخارجية وسيادة الرومان العالمية دون منازع ، على كل بلدان حوض البحر المتوسط ، سنحت الفرصة لفتح الملفات القديمة للأحزاب السياسية الرومانية ، ورأت إزاحة خصومها من طريقها إمعانًا فى السيطرة والهيمنة وقيادة الإمبراطورية الرومانية ؟! أم أن ما حدث من مواجهات بين الرومان أنفسهم ، مع مطلع القرن الأول ق.م ، كان نتيجة طبيعية للآثار السلبية للحروب الطويلة وتضخم « **الأنا العسكرية** » لدى قادة الجيوش ، وطمعهم فى مزيد من الثروة والجاه كحق مكتسب لانتصاراتهم وفتوحاتهم الخارجية ؟! .

إنه من الأرجح أن يكون السبب الرئيسى وراء تلك المواجهات الدموية بين الرومان مزيجًا من التفسير الأول والثانى على السواء . فالنفس البشرية أمارة بالسوء ، **ولاسيما النفس الرومانية العملية ، التى لاتعرف سوى المصلحة والمنفعة : (Do ut des !) (سأعطيك ، بقدر ما يمكن أن تعطينى !)** ، كما أوضحنا ذلك من قبل فى التمهيد لهذا الكتاب .

لقد جاءت المنافسة والصدام بين سوللا (Sulla) ، القائد الشاب الطموح ، والذى يسانده السناتوس ورجالات روما العظام الأرستقراطيين (Optimates) ، وبين القائد العجوز ماريوس (Marius) ، الذى يسانده ثوار الشعب فى كل مكان .

كانت إصلاحات نقيب العامة روفوس (Rufus) عام ٨٨ ق.م ، وبنودها ، هى المفجِّر الرئيسى لتلك المصادمات . ولما كانت البنود قد أثارت حفيظة السناتوس والطبقة الأرستقراطية ضد العامة ومطالبها ، عندئذ بدأت المؤامرات السياسية تشتد لإجهاض مطالب روفوس ، ومنها :

١ – استدعاء كافة المنفيين السياسيين وعودتهم إلى بلدانهم .

٢ – طرد أعضاء مجلس السناتوس الأثرياء ، الذين تزيد ثروتهم النقدية عن (٢٠٠٠) ألفين دينار رومانى .

٣ – إحلال ماريوس محل سوللا فى قيادة الحملة الرومانية المزمع قيامها ضد مثراداتيس اليونانى فى مملكة بنطوس جنوب البحر الأسود .

ولما كان السناتوس قد أعدَّ العُدة وقرر إرسال سوللا على رأس تلك الحملة ذاتها ، وولاه القنصلية لعام ٨٨ ق.م ، فإن البند الثالث ، عندنا ، من قانون روفوس أمام الجمعية الشعبية

(Concilium plebis) ، يكون بمثابة معارضة صريحة لاختيار الطبقة الأرستقراطية الرومانية.

هكذا كانت البداية فى صراع إثبات الوجود وإظهار العضلات لكل من السناتوس الأرستقراطى ، وممثلى الشعب الرومانى فى مطلع القرن الأول ق.م .

عندئذ ، كان طبيعيًا أن يلجأ كل من الفريقين إلى اتخاذ كافة التدابير الشرعية ، وغير الشرعية لتحقيق مآربه وغايته . فلجأ سوللا ، أولاً ، إلى الأساليب الدبلوماسية بما فيها من خداع سياسى وتسخير الدين لخدمة أغراضه فأدّعى يوم الاقتراع على قانون روفوس ، بأنه **«يوم حرام** Nefas **» ... بالضبط كما فعل أوكتافيوس** ، من قبل ، لإفشال مشروع تيبريوس الإصلاحى عام ١٣١ ق.م ، فما أشبه الليلة بالبارحة ؟!! وكان سوللا ومؤيدوه يتصرفون تصرفًا شرعيًا وفق قانونىّ : (آيليا وفوفيا Lex Aelia + Lex Fufia) عام ١٥٠ ق.م ، واللذان كانا يعطيان أى حاكم رومانى من أصحاب الكراسى العاجية (Curules Magistrates) أو نقباء العامة فى أن يحل أية جمعية شعبية أو أن يعترض (Veto) على أى مشروع قرار / قانون بادعائه بأنه رأى فألاً سيئًا ؟!(١) .

ولما تكررت معارضة سوللا للقانون ، عدة مرات استناداً إلى الحجة نفسها ، نفذ صبر روفوس وممثلى الشعب واضطروا إلى مهاجمة سوللا للقضاء عليه . اضطر سوللا أن يهرب ويفر من أمامهم مستنجداً ومحتميًا بمنزل عدوه ، ماريوس ، الذى آواه وأحسن استقباله ولم يُسئ إليه ، بل ساعده على الهرب (؟!) . فكان هذا تصرفًا كريمًا من حيث لايُتوقع الكرم !! وتؤكد الروايات اللاحقة عند پلوتارخوس (القرن (٢) الميلادى) ، **أن سوللا عاد إلى روما بجيشه منتقمًا من الجميع ، فأحرق المدينة وذبح الكثيرين من الأبرياء ومنهم روفوس نفسه عدوه الأول ، وقام بتعليق رأسه المفصولة عن جسده ، إرهابًا وعبرةً للآخرين من الثوار الشعبيين.** هكذا لجأ سوللا ، ثانيةً ، إلى أسلوب القمع الوحشى والتنكيل بأعدائه ، بعد فشل أساليبه السياسية الأولى . وعندئذ خاف ماريوس على نفسه وترك روما هاربًا فاراً بجلده ، ولكنه قُبض عليه وأودع السجن وحُكِمَ عليه بالإعدام . ولولا بقية من ضمير وإحساس بالخزى لعدم الوفاء لبطل رومانى عجوز صاحب مبادئ وأخلاقيات نادرة فى زمانه ما كان قد تم إطلاق سراحه .

---

1 - Cary-Scullard, op. cit., p. 178 .

إن ماقام به سوللا لا يُعتبر إصلاحات بالمعنى المتعارف عليه لتلك اللفظة ، لأنها لم تكن كذلك ، بل كانت إجراءات إدارية وقائية لإحكام قبضته على السلطة العسكرية وللإجهاز على أى دور محتمل لأعدائه ، ممثلى الشعب ومؤيديهم .

وكان من تلك الإجراءات ما يلى :

أ) إلغاء قوانين روفوس السابقة .

ب) تهدئة الجماهير الشعبية الغاضبة ، بتحديد نسبة الفائدة على الديون بـ ١٠٪ فقط . وكان ذلك التخفيض في الفائدة بمثابة ترضية ضئيلة للغالبية العظمى من الشعب الرومانى الفقير، وكان سوللا ، بذلك كمَنْ يلقى بعظمة لكلب دائم النباح . !! .

جـ) أما ترضيته لمجلس السناتوس ومكافأته على مساندته له في صراعه وصدامه مع ماريوس وأعوانه فجاءت بقدر مكانة الطبقة العليا فى الدولة (Optimates) ومنها :

١ - حرمان الجمعية القبلية (Comitia Tributa) من حق التشريع وإصدار القرارات الواجبة النفاذ .

٢ - ضرورة استشارة مجلس السناتوس قبل سَنْ أى قانون ، أى منحه حق الاعتراض (Veto) على أى قانون أو مشروع .

٣ - زيادة أعضاء مجلس السناتوس بمقدار (٣٠٠) ثلثمائة عضو جديد ليصبح عدده الإجمالى (٥٠٠) عضواً .

٤ - إعطائه حق تعيين حكام الولايات بدرجة بروقنصل : (Proconsule) .

٥ - إلغاء منصب الرقيب (Censor) الذى كان سيفًا مسلطًا على رقاب القناصلة ورجالات السناتوس معًا .

وكانت كل تلك الإجراءات وغيرها الكثير لتنظيم الجهاز الإدارى والقضائى والولايات الخارجية[١] قد أقدم عليها سوللا بعد أن خرج من الحرب الأهلية ، التى دارت رحاها بينه وبين ماريوس والجبهة الشعبية عقب عودته من حملته على مثراداتيس (٨٧ - ٨٣ ق.م) منتصراً واستغرقت تقريبًا عامًا كاملاً هو عام ٨٢ ق.م، وانتهت بهزيمة منكرة للشعبين وانتحار

---

١ - راجع / سيد الناصرى ، المرجع السابق ، ص ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

ماريوس ، عندئذ بدأت دكتاتورية سوللا الدموية[١] أى عام ٨٢ ق.م . وفرضت مظاهر الإرهاب الجماعى نفسها على الساحة الرومانية متمثلة فى :

- حمامات الدم والإعدام لأعدائه ومعارضيه بالآلاف .

- الإمعان فى التعذيب النفسى ، حتى لأعضاء مجلس السناتوس ، حيث يروى بلوتارخوس كيف أن أصوات المعذَّبين كانت تصل عبر الجدران إلى مسامع أعضاء مجلس الشيوخ فى أثناء انعقاد جلساتهم .

- الإعلان عن قوائم بأسماء الأملاك المصادرة وأسماء أصحابها فى السوق العامة (الفوروم: Forum) . وكانت هذه القوائم تُعرف باسم بروسكريبتيونز « Proscriptiones » وتُرصد المكافآت المجزية للذين يقومون بالقضاء على أصحابها وقتلهم !!!) .

ويُقال ، وفقًا للروايات اللاحقة ، أن تلك القوائم شملت :

- ٩٠ (تسعين) عضواً من السناتوس كانوا يعارضون سوللا .

- ١٢ (اثنى عشر) قنصلاً سابقًا من معارضيه .

- ٢٦٠٠ (ألفين وستمائة) من رجال الفرسان (equites) من الطبقة الوسطى .

- حرمان أبناء الضحايا من تولى المناصب العامة والوظائف الإدارية .

وبعد كل هذا ، وتلك المقدمات الدموية ، والتى لا تبشر بأى تحول فى سلوكيات ذاك القائد الدكتاتور ، **تُفاجئ بتخليه عن سلطته تلك عام ٨١ ق.م ، ثم قراره بالاعتزال (!؟) التام عن سلطاته فى سابقة تاريخية ليس لها مثيل فى كل التاريخ الرومانى القديم** ، وموته عام ٧٨ ق.م . ومن المؤكد حتى الآن أننا لانعرف سببًا واحداً جوهريًا لمثل هذا التحول الكبير ، من النقيض إلى النقيض لتلك الشخصية الغامضة (!!!؟) .

ثالثًا : الحملة الرومانية على الشرق بقيادة پومپى :

(أ) الحملة وأهدافها : كان الهدف منها أساسًا هو القضاء النهائى على قراصنة البحر المتوسط ولاسيما فى كيليكيا ، وبالرغم من أن روما كانت قد جردت عليهم حملات وجيوشًا

---

١ - يذكر الأستاذ الدكتور سيد الناصرى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٩ ، : « تعجَّل كاربو (مرشح العامة مع ماريوس لقيادة الحرب الأهلية ضد سوللا) نهايته ، فترك المعركة وهرب إلى موريتانيا ، بالرغم من أنه كان يستطيع - لو صمد (!!؟) أن يهزم سوللا ، وإنقاذ روما من ديكتاتوريته الدموية » . ولكن من كان يدرى !؟ .

فى ١٠٢ ، ٧٧ ، ٧٤ ق.م، إلا أنها جميعًا لم تقض على أولئك قضاءً مبرمًا وكان القراصنة قد خربوا ميناء ديلوس اليونانى (Délos) - فى منتصف البحر الإيجى - فى عام ٦٩ق.م ، وأغاروا على الموانئ الإيطالية مثل برنديزى (Brindisi) كما قطعوا الطرق التجارية البحرية التى تنقل خلالها السفن القمح والغلال إلى روما ، ولهذا كان حتميًا ضرورة القضاء التام على هؤلاء فى قاعدتهم الجديدة فى جزيرة كريت وخرجت إليهم حملة رومانية فى عام ٦٨ ق.م، ولكنها للمرة الرابعة لم تسكت أوكارهم ، فكان من المستحيل تجاهل خطرهم المتزايد يومًا بعد يوم .

هنا فقط تقرر إيفاد پومپى عام ٦٧ ق.م، قائداً عامًا على رأس جيش كبير ، يتألف من ٥٠٠ سفينة وحوالى ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ومتمتعًا بسلطة حربية مطلقة (Imperium Infini-tum) لمدة تستمر ٣ سنوات ، ويحق لصاحبها (لأول مرة) ترشيح ١٥ - ٢٤ ضابطًا مساعداً (Iegati) وكل هذه السلطة والصلاحيات توضح بجلاء أهمية المأمورية الموكلة إلى القائد العام بومبى . كما ساعد الحظ بومبى كذلك عندما صدر قانون مانيليوس (Manilius) ، أحد الترابنة (نقباء العامة) فى عام ٦٦ ق.م بإسناد حكم ولايتى بيثينيا وكيليكيا وقيادة الحرب فى آسيا الصغرى كذلك ضد مثراداتيس وحليفه تجرانيس إلى پومپى[١] . هكذا أصبح فى يد پومپى سلطة عسكرية ليس لها مثيل فى التاريخ الرومانى ، كما أن تلك القيادة فى الشرق تركت آثاراً كبيرة ، تعتبر بحق تحول من الدستور الجمهورى إلى الدستور الإمبراطورى .

نجح بومبى ، أخيراً ، فى القضاء على مثراداتيس عام ٦٦ ق.م ، وعلى تجرانيس فى أرمينيا . وفى ٦٥ ق.م ، قضى هذا العام فى إخضاع الألبانيين حول بحر قزوين (caspium mare) كما استولى على دمشق (Damascus) فى سوريا ، وعاد إلى آسيا الصغرى عام ٦٤ ق.م ، فأعاد تنظيم شئونها واتجه مرة ثانية إلى سوريا عام ٦٣ ق.م ، لإعادة الأمن إلى أرجائها وواصل سيره حتى مملكة يهوذا (Iudaea) فى فلسطين واستولى على أورشليم مع نهاية عام ٦٤ ق.م، وكان ذلك بداية للصراع الطويل بين روما واليهود فى فلسطين . وعاد بومبى فى ٦٢ ق.م إلى آسيا الصغرى فنظم شئون شرقها وشمالها . وكانت له أساليبه فى إدارة الممالك الجديدة التى فتحها :

---

١ - وكان هذا هو الاقتراح الذى أيده شيشيرون (Cicero) فى خطبته المعروفة باسم " Manilia أو "Pro lege De Imperio cn. Pompei ") وقد ألقى شيشيرون ، الفيلسوف الرومانى الكبير ، تلك الخطبة على المواطنين الرومان فى اجتماع شعبى عام ، وذلك تعضيداً لپومپى ولصداقته له .

أ - أدمج بعض الولايات الجديدة مثل سوريا وكريت إلى أملاك الإمبراطورية الرومانية ، وذلك لاعتبارات أمنية عسكرية .

ب - وانتهج السياسة الرومانية التقليدية فترك الإدارة فى أيدى أمراء وقواد البلاد الأصليين التابعين لروما .

جـ - وضع للولايات الجديدة والقديمة على السواء دساتير خاصة بها ، وظلت هذه الدساتير تحمل اسمه فى بيثينيا مثلاً ، حتى أوائل القرن الثامن الميلادى .

د - شجَّع الحياة المدنية وفق الحضارة الهيللينية فى منطقة الشرق القديم ، فأنشأ حوالى ٣٩ مدينة فى آسيا الصغرى وسوريا ، وجمَّع السكان من القرى للحياة فى تلك المدن .

هـ - فرض على معظم المدن الضريبة بما يعادل (عشر) محصول الأرض التى فى زمامها (decuma) وكانت نفس القيمة الموجودة قديمًا . أما الملوك والأمراء وكبار كهنة البلاد الواقعة على الجانب الغربى من الفرات ففرض عليهم جزية سنوية معينة (Stipendium) .

آثار حملة پومبى الشرقية على روما (النتائج) :

١ - زيادة كبيرة فى ثروات روما ، فقد وزع - بعد إنهاء حروبه - على جنوده ما يعادل (٣) ملايين جنيه ونصف ، ثم أودع حوالى (٤) ملايين أخرى فى الخزانة العامة لروما .

٢ - تضاعف دخل روما السنوى من الجزية .

٣ - تمتعت شعوب المنطقة - فى الشرق القديم - بسلام لم تشهده منذ سقوط الإمبراطورية الفارسية .

٤ - تطهرت البحار من القراصنة وتخلصت سوريا من الفوضى .

٥ - زيادة هيبة روما فى الشرق .

٦ - يسَّر انتشار الحضارة الهيللينية بإنشاء مدن حرة وإعطائهم الحكم الذاتى فى الشرق .

وبعد عودة بومبى إلى روما وتسريح جيشه عام ٦٢ ق.م، رأى أن ينهى مهمته نهاية موفقة، فتقدم إلى السناتوس بطلبين اثنين :

أولهما : أن يصدق السناتوس على قراراته الإدارية وتنظيماته التى أتمها فى الشرق .

ثانيهما : أن يعطى لحوالى ٤٠,٠٠٠ جندى رومانى من المسرحين أراضى زراعية .

وفُوجِئَ بومبى بحقد السناتوس عليه ، ورفضه لمطالبه وقيام جبهة معارضة فى السناتوس على رأسها لوكيوس وكاتو وكراسوس ، كما - أن المجلس أيضًا رفض بعض اقتراحات كراسوس فيما بعد حوالى ٦٠ ق.م، وعندما عاد قيصر (يوليوس قيصر) من أسبانيا فى يونيو عام ٦٠ ق.م، ولم يجبه السناتو كذلك إلى طلبه بدخول روما (دخول القائد المنتصر من الفتوحات الكبيرة فى أسبانيا ، ولم يقبل ترشيحه قنصلا لعام ٥٩ ق.م ، ساءت علاقات - كل هؤلاء القادة بمجلس الشيوخ . كون هؤلاء الثلاثة وهم كراسوس وبومبى وقيصر " الأئتلاف الثـــلاثى (Triumviri) ونجح قيصر فى تولى منصب القنصلية عام ٥٩ ق.م ، بمساعدة زميليه، وبدأ هو فى إرضائهما وتوطدت العلاقات بينهم أكثر فتزوج بومبى جوليا (يوليا Iu-lia) ابنة قيصر . ولكنهم لم يستريحوا حتى انتقموا من أعدائهم وبصفة خاصة شيشرون وكاتو اللذان أيدا السناتوس فى كل خطواته ضد هؤلاء القادة الثلاثة . فتم نفى شيشرون إلى خارج البلاد ، وتخلصوا من كاتو بإرساله إلى قبرص فى مهمة ظاهرها مصلحة روما ، وباطنها إبعاده عن روما لأكبر مدة ممكنة .

رابعًا : فتح بلاد الغال (فرنسا) :

ضم الرومان " غالة البعيدة " إلى أملاكهم فى عام ١٢١ ق.م، وقد وقفوا إلى جانب بعض القبائل هناك وأيدوها فأحرزت النصر على بقية القبائل ولكن لم يدم ذلك طويلاً ، فتبادلت الزعامة بعض هذه القبائل ولم تستقر الحال أبداً فى تلك المناطق الشمالية .

وعندما استنجدت إحداها بقيصر ، خرج على رأس فرق رومانية وحقق النصر على الهلفيتى (Helveti) [١]ولكنه لم يحقق عليهم نصراً نهائيًا ، وفى عام ٥٨ ق.م ، استطاع أن يهزم الجرمان هزيمة ساحقة .

خامسًا : ضم البلجيك إلى حظيرة روما :

وفى ربيع ٥٧ ق.م ، استطاع قيصر كذلك - بعد تعزيز قواته بفرقتين جديدتين - أن يهزم قبائلهم وفى مقدمتها قبيلة نرفئى (Nervii) وأرغمهم على الاستسلام ، وباع رجالها فى سوق الرقيق . إلا أنه عاد فى عام ٥٦ ق.م ، وأدب قبيلة ڤنيتى (Venetı) التى تزعمت الثورة ضد الرومان وسحق مقاومة قبائل نورماندى ، ثم دخل مع الـ (Vencti) فى معركة فاصلة فى المحيط الأطلسى ، حطم فيها سفنهم وأسر بعضهم وقتل زعمائهم وباع بقية السكان فى سوق الرقيق .

---

١ - عن بقية القبائل ، راجع . Caesar, Bellum Gallicum, 1, 29

سادسًا : غزو ألمانيا وبريطانيا :

وقف قيصر فى عام ٥٥ ق.م ، موقفًا يقظًا من تحركات القبائل الجرمانية صوب الغرب ، وعندما تأهب لملاقاتهم عرضوا عقد هدنة ولكنهم خرقوها هم أنفسهم ، فلم يقبل منهم قيصر أى اعتذار وأسر زعمائهم وشتت شمل جماعتهم ، بل وأباد منهم بوحشية عدداً كبيراً(١) .

وفى عام ٥٤ ق.م ، عبر قيصر دوڤر (Dover) والتقى بالقوات المعادية ، فى بريطانيا ، والتى كان يتزعمها زعماء « كنت » (Cint) قد أعدوها ، فانتصر عليهم ، بالقرب من كنتربرى كما تمكن من إخضاع ملك المنطقة الواقعة شمال نهر التيمز ، وفرض عليه شروطه ودفع الجزية للرومان .

سابعًا : ضم مصر إلى أملاك الشعب الرومانى :

أما ضم مصر إلى الدولة الرومانية فإنه تأخر قليلاً وإن كانت روما قد جعلت من نفسها وصية على الحكام البطالمة منذ بداية القرن الثانى ق.م. .. ولكنها تدخلت صراحة وأعلنت وصياتها عليها أمام العالم القديم ، عندما أرسلت أعظم قادتها فى عام ١٦٨ ق.م، وهو بوبليوس لايناس (P Laenas) وكيف أذل هذا القائد الرومانى الملك السورى (المقدونى) ، أنتيوخوس الرابع ، الذى جاء طامعًا فى مصر وخيراتها ، فما كان إلا أن أرسلت روما له تخبره بوجودها وأنها هى صاحبة النفوذ الحقيقى فى تلك المنطقة من العالم ، وإن لم تكن قد ضمتها فعلاً إلى حظيرة ممتلكاتها الخارجية .

وظلت روما تراقب عن كثب الصراعات الأسرية على العرش البطلمى حتى أوصى يوارجيتيس الثانى ببرقة إلى الشعب الرومانى عام ١٥٥ ق.م نكايةً في أخيه فيلوميتور ، ملك مصر ، وجاء من بعده ابنه عام ٩٦ ق.م، فلم تترك روما فرصة هذه الوصاية ، هذه المرة ، وهكذا تكون قد اقتطعت جزءاً من أملاك مصر الخارجية ودونما حرب أو أى مجهود من جانبها .

وإنه لولا انشغال روما بحروبها الخارجية من ناحية ، وبمشاكلها الداخلية ومحاربة الإيطاليين من ناحية أخرى ، هذا ، فضلاً عن وصول الرشاوى والهدايا البطلمية بانتظام إلى قادة روما حيث يقيمون ، لكانت قد استولت على مصر منذ وقت بعيد ، أى قبل عام ٣٠ ق.م، بوقت طويل .

---

١ - يقدم قيصر تبريراته لهذا الفعل الذى انتقده عليه بشدة كاتو الأصغر ولكن السناتوس احتفل بذلك النصر عشرين يومًا . Bell . Gall., IV 4 - 13 .

لقد كانت الحرب الأهلية الإيطالية ، بين زعماء الرومان وقادتهم المشهورين أمثال بومبى وكراسوس وقيصر من أهم عوامل تأجيل قرار البت فى المسألة المصرية ، وبالتالى دخول الرومان مصر ودخول الفاتحين ، كما حدث فى ٣٠ ق.م .

لقد وصل الأمر بقيصر فى عام ٤٨ ق.م ، وبعد انتهاء معركة فارسالوس بينه وبين پومپى، أن نظر إلى ساحة المعركة المليئة بالقتلى من أعدائه قائلاً [١]:

" لقد أرادوا ذلك . ولو لم أستعن بالجيش عليهم ، لقضوا علىَّ أنا نفسى بالموت ، برغم ما قمت به من أعمال جليلة " .

حقًا لقد فُرِضَ القتال على قيصر ولم يكن أمامه خيار إزاء تكتل الأرستقراطيين ومعهم حليفه القديم ، پومپى ، كما حاول قيصر جاهداً أن يتفاوض معهم ولكنهم كانوا قد أعدوا العدة للقائه ... وكان النصر حليف قيصر فى النهاية ، فأصبح دكتاتور إيطاليا كلها وواصل تعقب پومپى حتى وجده في مصر مقتولاً على أيدى أحد الضباط الرومان المأجورين لصالح الملك البطلمى الصغير ، بطليموس الـ ١٣ أثناء صراعه مع أخته كليوباتره السابعة على العرش ، فما كان منه ، وهو القائد الرومانى الكبير ، إلا أن حَزِنَ (!!) أشد الحزن على غريمه السياسى ، وإن كان ذلك الصراع قد أخذ شكل الاقتتال والحرب .

وشاءت الأقدار أن يعاصر قيصر فى مصر الصراع داخل البيت البطلمى الواحد ، ويحاول التوفيق بين الأخ وأخته ، ولكن تندلع الحرب المشهورة باسم حرب الإسكندرية (Bellum Alexandrinum) ويتحرج موقف قيصر فى الإسكندرية ، ويموت الملك البطلمى الصغير غرقًا وتحدث خسائر كبيرة فى قوات قيصر نفسه كما تُدمَّر دار العلم (Museion) والمكتبة (Bibiothéké) والمسرح ومدافن الأسرة المالكة[٢] .

---

١ - Suet. Dıv Iul. 30 : " Hoc voluerunt, tantıs rebus gestıs Gaius Caesar condemnatus-essem nısi abexercıtu auxılium petıssem " .

٢ - بل ربما كان موجوداً كذلك قبر الإسكندر (séma) لأنه لم يتم العثور عليه حتى الآن فى نفس الحى الملكى الذى يتاخم الميناء الكبير الشرقى . يقدر عدد لفائف البردى التى احترقت حوالى ٤٠،٠٠٠ (Biblıa) كانت مودعة بالمكتبة لتصديرها إلى الخارج ، بالإضافة إلى ما كان موجوداً بالفعل ، ويقدر بحوالى ٧٠،٠٠٠ مخطوطًا . إن موضوع قبر الإسكندر الأكبر ، هو من أكثر القضايا الأثرية القديمة حيرة للعلماء والباحثين . حول أحدث النظريات ، راجع كتابي « قبر الإسكندر الأكبر : احتمالات موقعه وشكله (دراسة تاريخية أثرية) ، القاهرة ١٩٩٠ . والناشر هو المؤلف نفسه . وقد تم تسجيل الكتاب فى هيئة الآثار المصرية كإحدى نظريات الكشف عن المقبرة اللغز ، والتركيز علي احتمالية وجودها فى المنطقة الواقعة من أسفل التل الترابى الصناعى " تل كوم الدكة " وحتى آثار المسرح الرومانى ، وليس فى مسجد النبى دانيال .

وانتهت معارك (المعارك) واستسلم الإسكندريون بعد أن أبلوا بلاءً حسنًا إلى جانب قوات الملك البطلمى الصغير ، وصار قيصر الإسكندرية هو المنتصر ، وقد صفح عن أهلها ، ونقل إلى سبب البلاء الكبير ، كليوپاترا ، نبأ وفاة أخيها ، وأرسل أختها العنيدة أرسينوى إلى روما لتلقى جزاء عداوتها للرومان .

ولاستكمال مشوار الدولة الرومانية وبداية عهد الإمبراطورية على يد أوغسطس (أوكتافيانوس) فى ٢٧ ق.م ، (بعد أن قضى على غريمه أنطونيوس فى موقعة أكتيوم البحرية ٣١ ق.م ، وانتحار كليوپاترا فى الإسكندرية ودخول مصر حظيرة الإمبراطورية الرومانية) انظر الباب الثالث حيث نقدم إليك ، أيها القارئ الكريم ، دراسة تفصيلية عن أحوال الإمبراطورية الرومانية قبل وبعد عام ٣٠ ق.م، وكذلك نعرض لأهم إنجازات الإمبراطور الأوحد أوْجوستوس (Augustus) – كما يجب أن تنطق باللاتينية – وتقييم علماء التخصص لعصره .

الباب الثالث

المراحل الأولى فى تاريخ الإمبراطورية

الفصـــل الأول
الأوضاع فيما قبل ٣٠ ق . م

ليس من المستغرب أن تسمع من يقول أن تاريخ إيطاليا القديمة هو تاريخ مدينة روما نفسها، منذ نشأتها ، مروراً بفترات الحكم الملكى والحكم الجمهورى ، ثم العهد الإمبراطورى حينما جنت روما ، بل وإيطاليا كلها ، ثمار المجهودات المضنية التى بذلها رجالات روما الأوائل ، عسكريين كانوا أم سياسيين .

لقد كانت نجاحات روما ، منذ نشأتها الأسطورية عام ٧٥٣ ق.م، مصدر دهشة أعظم مؤرخى العصور القديمة ، الذين كتبوا عن هذه المدينة الصغيرة « التى استطاعت بعد أن نفضت عن كاهلها الوجود الأجنبى : وهم الملوك الإتروسكيون وكان آخرهم تاركوينيوس المتغطرس (Tarquinius Superbus) أن تضع أسس نظام جديد ، وهو النظام الجمهورى (Res Publica) ، وحتى عام ٣٠ ق.م ، عندما كسب أوغسطس (Augustus) آخر جولة من جولات الصراع على عرش الإمبراطورية الرومانية فقضى على أنطونيوس (Antonius) ووضع نهاية لطموحات آخر ملكة بطلمية فى مصر وهى كليوباترا السابعة (Kleopatra) . كما كان هو نفسه مؤسس نظام دستورى جديد هو : حكم المواطن الأول (Princepatus) » .

وأهم هؤلاء جميعًا ، هو المؤرخ الواقعى ، المحايد ، پوليبيوس (Polybius) الذى كتب تاريخه ، معترفًا بأنه كان يهدف إلى كتابة تاريخ روما بوجه خاص : عندما قال :

" إن الهدف الأول ، والموضوع الأوحد ، لكل ما كتبت ، هو أن أوضح كيف ، ومتى ، ولماذا وقع كل العالم المعروف تحت سيطرة روما »[١] .

وكتب كل من كينيدى (Kennedy) ووايت (White) فى تأريخهما لمشوار الحضارة الرومانية القديمة ، يقول :

" It is obvious that Rome's Success was due fundamentally to the roman character "[٢].

---

١ - انظر ، پوليبيوس : التواريخ ، الكتاب الثالث ، ١٠ .

2 - Roman History, Life & Literature, London 1942, p. 5 .

ولكنها ، تلك الشخصية الأولى ، التى نعرفها بين أسطر كتابات شاعر العصر الرومانى فرجيل (Vergilius) ، ووصفها بالنشاط والإيمان القوى القديم .

كان الرومان شعبًا عظيمًا ، لأنهم كانوا يعرفون ذلك وأدركوا أنهم بالفعل شعبًا عظيمًا ، ويصدق عليه القول :

" They were often defeated, but never lost the last battle "(١) .

لقد قامت روما على أكتاف الطبقة الأرستقراطية القديمة ، وعلى قدرات وإمكانيات الأسر والعائلات الغنية ، التى تولت كل مشاريع روما الفتية ، منذ مطلع القرن الخامس ق.م، تلك العائلات التى كانت تمثل أصحاب المصلحة الحقيقية وراء كل نجاح أو فشل . إنهم هم الآباء (Patres) الذين يمثلون طبقة الـ (Patricii) - النبلاء والأشراف والأغنياء - فى مقابل الغالبية العظمى من شعب مدينة روما الفقير (Plebs) والذى لم يكن له من مطمح سوى تحسين مستوى عيشته ، وليس له أية آمال فى السياسة والحكم ، وتوجيه دفة الأمور ، لأنه - ببساطة - مشغول طول الوقت بالبحث عن قوت يومه .

إنه جدير بالذكر فى تلك القرون الأولى من وضع أسس الحكم وإدارة روما القديمة ، وتحديد علاقاتها بجيرانها من معرفة العصبة اللاتينية وتطور تلك العلاقات من الند للند فى ضوء المصالح التجارية المتبادلة ، على أساس معاهدة ذكية هى أقدم معاهدة بين روما وجيرانها وهى التى تُعرف باسم (Foedus Cassianum) وتتمشى مع ظروف روما الناهضة ودبلوماسياتها الهادئة ، فى وقت لم تكن قادرة عسكريًا على إملاء رغباتها التوسعية. إن روما كانت تحسن استخدام الأساليب المتاحة أفضل استغلال لتحقيق أهدافها البعيدة حتى ولو كان ذلك على مراحل عدة ، أى سياسة الخطوة خطوة التى عرفناها فى عصرنا الحديث على يد السياسة الأمريكية ، فى أثناء عملية فض الاشتباك الأول والثانى بيننا وبين القوات الإسرائيلية ، عقب حرب ١٩٧٣ التاريخية . إنها هى سياسة الواقع والتعامل معه ، التى بدأتها روما منذ القرن الخامس قبل الميلاد وما بعده ، إلى أن استطاعت هذه المدينة الصغيرة أن تصبح سيدة لكل مدن الإقليم الذى تعيش فيه (Latium) ثم سيدة على إيطاليا كلها .

إن الدرس المستفاد من رجالات روما العظام وساستها الأوائل الذين وضعوا نظام الحكم الجمهورى (Res Publica) الذى لم يكن يعنى نفس هذا النظام اليوم ، بل قدَّم له وأعطى

1 - Ibid.

لنا أول صورة فى التاريخ القديم فحسب ، دون مضمونه الكامل الذى نعرفه نحن فى تاريخنا الحديث والمعاصر ، فقد كان يعنى حكم الأثرياء الأقوياء والذين كانوا يجيئون إلى تلك الوظائف الشرفية (Cursus honorum) غير المدفوعة الأجر ، عبر قنوات الاختيار الحر، إلا أننا لم نكن نتوقع ، ولا يمكن لنا أن نتوقع نزاهة ذلك الاختيار للمناصب العليا أو لأعضاء الجمعية الدستورية ، سواء أكانت مجلس السناتوس القديم (Sentus) [١] أو الجمعيات الأخرى مثل جمعية الأحياء (Comitia Curiata) التى يمثل فيها أقوى وأغنى رجالات الأحياء السكنية فى روما . ولهذا فإن تلك الطبقة الثرية لا ينتظر منها أن تدافع عن مصالح عامة الشعب الرومانى ، كما يمكن أن نفهم من مصطلح (Res Publica) أى الشئ العام . إن الشئ الذى أرادت تلك الطبقة أن تحافظ عليه وتضمن العمل من أجله على يدى كل مسئول يصل إلى وظيفة فى الدولة الرومانية الناهضة هو مصالحهم هم ، أى مصلحة عامة الأغنياء . وحتى لا يستأثر أحدهم - دون الآخرين بتكييف الوظيفة وسلطاتها لتحقيق طموحاته هو وأهله ويدافع فقط ، عن مصالحه الخاصة . هذه هى المرونة السياسية الكبيرة ، أمام كل المواقف ، وفى كل الأوقات . ولكنها كانت المرونة العملية ، الواقعية ، التى لا تغيب عنها أهدافها الاستراتيجية الدائمة .

إنهم كانوا ، على استعداد دائم ، أن يغيروا ، بالزيادة والنقصان ، عدد القناصلة (Consules) - قواد الجيوش - حسب الظروف التى يمرون بها . أو أن يضيفوا سلطات جديدة إلى أولئك القادة أو يحرمونهم من بعض الامتيازات ، وفقًا لسلوكهم العام فى كل ظرف على حده .

ولكن هيهات أن تسير الأمور وفق هوى واضعى تلك السياسة إلى أبد الآبدين ، فإن التطور الطبيعى للمجتمعات البشرية وزيادة حاجات المجتمع الرومانى ، وإدراك الطبقات الكادحة بالظلم الاجتماعى الواقع عليها ، سرعان ما ظهر فى صورة ثورات وحركات إصلاح كان لابد لها لتحقيق نوع من التوازن بين الأغنياء والفقراء المعدمين ، وغالبًا ما نجحت - إلى حد ما - فى تحقيق بعض التقارب بين الفوارق الاجتماعية .

ولكنه سرعان ما قامت الحرب الأهلية فى إيطاليا وفى الولايات الرومانية كذلك ، واستمرت أكثر من (٨٠) عامًا ، مع ما تخللها من فترات هدوء نسبى ، كان ذلك نتيجة لعاملين اثنين .

---

١ - هذه الكلمة مشتقة من كلمة (Senex) التى تعنى : عجوز شيخ . وبالتالى فإن كبر السن والخبرة والحكمة كانت أهم صفات العضو غالبًا طيلة العصر الجمهورى ، هذا فضلاً عن تحقيق القدر الأدنى من الملكية الزراعية والثروات العينية حتى يتمكن من دخول هذا المجلس .

الأول : تحكم روما وإيطاليا فى شئون العالم المتحضر آنذاك ، أى فى القرنين الثالث والثانى ق.م .

الثانى : زيادة العداء والأحقاد بين الطبقات الاجتماعية ، سواء فى روما نفسها أو فى إيطاليا كلها وعدم عدالة الإدارة الرومانية فى تعاملها مع سكان الولايات المختلفة .

ويصف رستوفتزف[1] الوضع ، آنذاك ، قائلاً فيما يخص اليونان : « **فالكفاح فى المدن اليونانية اتخذ فى مظهره شيئًا فشيئًا طابعًا يكاد يكون فى جوهره نزاعًا اجتماعيًا واقتصاديًا. ولم يكن القصد الرئيسى من ذلك الكفاح هو العمل على زيادة الإنتاج بتحسين أحوال الطبقة العاملة وتنظيم العلاقات بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال ، وإنما كان هدفه الرئيسى إعادة توزيع الثروة العقارية ، وهو أمر كان يتم فى العادة باللجوء إلى أساليب فيها العنف والثورة . وكانت صيحة الحرب هى الصيحة القديمة التى كانت تجأر منذ الأزل مطالبة بإعادة توزيع الأراضى وإلغاء الديون (ges anadasmós kai khreõn apokopé) وكانت هذه الصيحة تتجاوب أصداؤها على أفواه الناس منذ نهاية الحرب البلوبونيزية ، أى نهاية القرن الخامس ق.م** ».

وكان الوضع فى روما ، شبيهًا بذلك فى الفترة التى شهدت بداية النظام الجمهورى ، منذ ٥١٠ ق.م بعد نجاح أحد الأرستقراطيين وهو بروتوس (Brutus) فى طرد آخر الملوك الأجانب الإتروسكيين من روما فنقرأ ما يلى :

" **فالإتروريون وبعض الأسر من الطبقة الأرستقراطية الرومانية كانوا يؤلفون الطبقة العليا من كبار ملاك الأراضى والتجار فى روما . أما جمهور العامة من السكان الأصليين ، فقد أكرهوا على الكدح والنصب من أجل سادتهم الجدد . ولم تتغير الأحوال الاقتصادية السائدة عقب قضاء الطبقة الأرستقراطية فى روما على الأسرة الإتروربة الحاكمة . وكان أهم ما يشغل بال روما هو إنشاء نظام حربى قوى والحرص على تقدمه وتطوره ، حتى تتمكن من الدفاع عن نفسها ضد أى هجوم قد يأتى من الشمال أو ينجم عن منافسة المدن اللاتينية الأخرى** "[2] .

ولذلك يمكن أن نخلص إلى حقيقة مفادها أن المجتمع الرومانى كان مجتمعًا زراعيًا يهيمن عليه السادة أصحاب الإقطاعيات الكبيرة الذين هم أسياد (domini) ، ويعمل تحت إمرتهم

---

١ - تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦٧ .
٢ - المرجع نفسه ، ص ٣١ .

ولصالحهم آلاف من العبيد (Servi) ومعهم عدد كبير من الأتباع (Clientes) وكان إقليم لاتيوم قد تخصص فى زراعة الأرض وإنتاج القمح بوجه خاص .

ومع ازدياد أملاك روما الخارجية ، أى خارج إقليم لاتيوم وإتمام سيادتها على إيطاليا زادت قوتها العسكرية الضارية مما مكنها من الدخول فى حرب طويلة ، مع أكبر قوة فى العالم القديم آنذاك وهى قرطاجة (Carthago) ، تلك المستعمرة الفينيقية القديمة فى تونس من الشمال الإفريقى . أنها المصالح التجارية لكلتا الدولتين فى حوض البحر المتوسط ، والتى بدأت تتعارض وذلك بعد أن كثرت عمليات التدخل الرومانى فى السياسات الداخلية لدويلات المنطقة ومحاولة روما الدائمة لتدمير الأنظمة القوية فى العالم المتحضر آنذاك .

هنا تصدُق ملاحظة رستوفتزف الدقيقة لسياسة روما **« إن تدخل روما فى فترات متقطعة فى شئون العالم المتحضر أثناء الحروب البونية (أى مع قرطاجة) وما بعدها ، لم ييسر الحال وإنما أدى فى أحوال كثيرة إلى تعقيد الأمور ، إذ ساعد على نجاح القوى الهدامة . وإن الهدف الذى كانت ترمى إليه الجمهورية الرومانية الناهضة كان غايته العمل على الحيلولة دون قيام أى نظام سياسى قوى فى الشرق يُخشى أن يكون خطراً على الدولة الرومانية »**[1] .

ولما عمَّ السخط مقدونيا (Makedonia) وبلاد الإغريق (Hellas) : بسبب سوء معاملة روما لهما بعد أن أصبحتا ولايتين رومانيتين ، فحال كل منهما أن يتخلص من نير الحكم الرومانى ، فاعتبرت روما ذلك منهما عصيانا ، قاومته بمنتهى القسوة والوحشية فنزل هذا السلوك من الرومانيين كراهية شديدة فى قلوب هذين الشعبين ضد روما ونظامها .

ومما هو جدير بالذكر أن نتائج الحروب البونية مع روما والذى أسفر عن تدمير قرطاجة تمامًا عام ١٤٦ ق.م ، كانت غاية فى الخطورة ليس فقط على الشرق ، بل حتى على روما وإيطاليا نفسها . ويمكننا إيجاز أهم تلك النتائج فيما يلى : -

١ - زيادة قوة روما العسكرية ، وزيادة الاعتماد عليها فى تأمين حدودها فى الشرق والغرب وفى الولايات التابعة لها ، وبالتالى زيادة أعداد الجيشين واحتراف القتال .

٢ - زيادة أموال الخزانة الرومانية وتدفقها باستمرار على روما .

---

١ - المرجع نفسه . ولا أظننا مُغَالين إذا قلنا ما أشبه الليلة بالبارحة (!) حيث تقوم أمريكا الآن ، بلعب الدور الرومانى القديم نفسه ، فى نظام عالمى أوحد ، تفرضه هى على الكرة الأرضية كلها ، بالكيفية التى تريد وفى الوقت الذى تشاء هى فقط !!! وهو ما يحدث بالنسبة لمنطقتنا العربية ، وحصار العراق وإذلاله ، لصالح الوجود الإسرائيلى ومخططاته .

٣ - زيادة أملاك روما الخارجية فى الولايات (Provinciae) وتنوع تلك الأملاك ما بين أراضى زراعية ، ومراع وغابات ومصايد أسماك ، ومناجم للتعدين ، ومحاجر فى إيطاليا وأملاك فى قرطاجة .

٤ - زيادة أهمية المستعمرات الرومانية الشمالية ، لاسيما بعد مساعدة الغال (Galli) للقائد القرطاجى العظيم هانيبال (Hannibal) بجند أقوياء حارب بهم الرومان .

٥ - ظهور طبقة اجتماعية جديدة ، نافست الأرستقراطيين النبلاء القدامى (Patricii) ، فى الثراء ، وهى طبقة الفرسان (equites) ، الذين عاشوا فى روما كأصحاب الأملاك ، ولممارسة الحقوق السياسية ، فألفوا بذلك طبقة حديثة الثراء حاقدة على السناتوس ودوره التقليدى الرائد منذ القدم .

٦ تدفق البضائع الأجنبية ، على اختلاف أنواعها إلى الأسواق فى روما والمدن الإيطالية الأخرى .

لقد كان تدمير روما لقرطاجة هدفًا استراتيجيًا ثابتًا أمام كل ساسة روما على مر الأعوام ، وتحققت صيحة أعظم ساستهم آنذاك وهو كاتو الأكبر (Cato Maior) ، وفى عام ١٤٩ ق.م، عندما خطب فى الشعب الرومانى ملهبًا حماسه بقوله :

« **يجب أن تُدمر قرطاجة Delenda est Carthago** » وتم لهم ما أرادوا عام ١٤٦ ق.م، بعد أن سوى الجيش الرومانى المعتدى كل مبانيها ومنازلها وأسوارها بالأرض ، فكانت القاضية ولم تقم لقرطاجة بعد ذلك قائمة . وهكذا أسدل التاريخ أستاره على آخر فصل من فصول دراما التجار الفينيقيين على الساحل الشمالى الغربى من إفريقيا . وفى عام ٤٦ ق.م، أمر يوليوس قيصر بإعادة بنائها شريطة أن تكون مدينة رومانية ، وأصبح اسم قرطاجة فى عالم النسيان ، ودخل هذا المكان إلى حظيرة أملاك الإمبراطورية الرومانية تحت اسم « ولاية إفريقيا : Provincia Africana» . عندئذ أصبحت روما سيدة البحر المتوسط بلا منازع .

وفرضت المصالح التجارية لروما ، والتى أخذت فى الازدياد بشكل لم يسبق له مثيل ، أن تقضى على المراكز التجارية الأخرى فى هذا الحوض نفسه ، فقامت بتدمير كورنثا اليونانية (Kórinthos) فى العام نفسه (أى ١٤٦ ق.م) ، كما استولت على مملكة برجامون فى آسيا الصغرى (Pérgamos) ، وفى عام ١٣٣ ق.م ، وكان ضم آسيا الصغرى بداية مشوار جديد

لحياتها ، عرفت فيها الظلم والاستغلال والدمار على أيدى القوات الرومانية المتصارعة فيما بينها .

وإذا عرضنا ملخصًا سريعًا لنتائج مشوار الحروب الخارجية التى خاضتها روما من أجل التوسع وزيادة النفوذ والسيطرة منتهجة سياسة « فَرِّق تسُد : Divide et impera » ومنذ عام ٢٦٤ وحتى ضم آسيا فى عام ١٢٩ ق.م ، لجد ما يلى - كما أجاب الأستاذ الدكتور سيد الناصرى عن سؤال حول نتائج الحروب على المجتمع الرومانى ، فأكد على النتائج التالية: -

أولاً : زيادة سلطة السناتوس (Sentus) كمؤسسة سياسية ، وكطبقة اجتماعية أرستقراطية متميزة .

ثانيًا : ازدياد أعداد العبيد ورخص أجورهم ولجوء السادة ملاك الأراضى (domini) إلى الراحة والمتعة بكل أساليبها .

ثالثًا : اعتماد روما على القمح المستورد والرخيص بدلاً من زراعته فى إيطاليا ولجوء المزارعين الرومان إلى تربية الماشية والأغنام وزراعة الكروم وتصنيعه .

رابعًا : اللجوء إلى سياسة ضم المستعمرات الخارجية كأملاك رئيسية - أملاك روما والشعب الرومانى بدلاً من الاكتفاء بدفع الضرائب ، ومن ثم كان حكمها لها مباشراً فنشأت طبقة عريضة من الموظفين الطموحين إلى الثراء السريع .

خامسًا : انهيار الآلهة القديمة وضعف الإيمان بوجودها ، مما أفسح المجال للدجل والسحر وانتشار العبادات السرية ، واللجوء فى بعض الأوقات إلى آلهة أجنبية ، مثل (Kybēlē) الفريجية ، وإيزيس (Isis) المصرية ، وأدونيس (Adonis) السورى ، وغيرها . وعندما زاد وجود هذه الآلهة الأجنبية فى روما سمعنا أصواتًا تحذر من هذا التواجد الشرقى الغريب ، وجاء ذلك على لسان كاتو الأكبر وچوڤينال(١) (Iuvenalis) من بعده .

---

١ - هو شاعر رومانى ساخر ، فى القرن الأول الميلادى ، ابتدع فن الهجاء ، عند الرومان وجعله نمطًا فنيًا مميزًا . كتب الهجائيات (Satirae) الستة عشر قصيدة ، بقلم يقطر سخرية وألمًا على حال الرومان وداخل روما بوجه خاص . للمزيد راجع / د . هانم محمد فوزى ، النقد الاجتماعى عند چوڤينال ، (رسالة دكتوراه باليونانية الحديثة) ، أثينا ١٩٨٤ .

سادسًا : ازدياد تأثير الحضارة الإغريقية على روما ، فغدت معظم مظاهر الحياة الرومانية ، من ملبس وبناء وثقافة ، مصبوغة بصفة يونانية ، وأصبحت الموضة هى تقليد الثقافة والممارسات اليونانية فى كل شئ وكان الفصل الأول لهذا الغزو الحضارى على يد الأسرى الإغريق الأدباء والمؤرخين الذين عاشوا فى روما وأثروا على الأدب اللاتينى والفلسفة وكل مناحى الحياة .

سابعًا : ظهور الكبرياء الرومانى والإحساس بالعظمة والتميز فظهرت الكتابات التاريخية المغرورة التى تدعى العظمة والتفرد وعقدت المقارنات بين الشعب الرومانى واليونانى وكيف أن الرومانى رجل قوى فعال (Vir Romanus est fortis et strenus) وأن رسالته هى أن يصفح عن الضعفاء ويقمع الأقوياء : -Parcere superbos et debel lere subjectos) . وذهب الكثيرون منهم إلى كتابة الأساطير ونسخ الروايات حول مجد روما القديم وعظمتها ويف أنها مشيئة القدر أن تحكم روما وتسيطر على العالم كله ويصبح البحر المتوسط (mare mostrum) ولكن ليس كل ما يتمناه المرء - أو الأمم - يدركه إلى الأبد . إنها سنة الحياة ، وعبرة التاريخ والقرون ، فكما ازدهرت روما وعاشت حياة العز والرفاهية وجنت ثمار انتصارتها مجداً ورفعة ، بدأت تنخر فيها بوادر الانحلال والضعف ، فجاءت الحروب الأهلية الدامية التى شهدت قيام الدكتاتوريات العسكرية ، والتى تأله الفرد ، القائد المنتصر ، وظلت روما راكعة تحت أقدام هؤلاء قرابة مائة عام ١٣٣ - ٣١ ق.م) إلى أن جاء أوكتافيوس ليضع حداً لهذه الفوضى السياسية ويُدْخِل بلاده فى عهد جديد تمامًا .

وكما هو معروف فقد انشغل الرومان قبل تَقَدُّم أوكتافيوس إلى الحكم بصراعات عسكرية مريرة بين القادة الرومان خلال القرن الأول قبل الميلاد ، وكان من أهم هذه الصراعات ما حدث بين ماريوس (Marius) وسوللا (Sulla) على القيادة العسكرية العليا ، مما أسفر عن حصار روما نفسها بقوات سوللا فى عام ٨٨ ق.م . كذلك الصراع الشهير بين پومپى (Pompeus) وقيصر وكراسوس ، من ناحية ، والسناتوس من ناحية أخرى ، وفرض قيصر إرادته على الرومان ودخل روما غازيًا لها . وهكذا لعب القادة الرومان دوراً بارزاً فى الحياة الرومانية ، سياسية كانت أم اجتماعية ، فضلاً عن دورهم العسكرى وقيام كاتيلينا (Catilina) بمؤامرة عام ٦٢ ق.م ، أثناء غياب پومپى فى الشرق . وبدأ الصراع بين پومپى وقيصر بعد أن

استطاع قيصر اجتياز المهمة الموكلة إليه فى سبع سنوات (٥٨-٥١ق.م) وأراد أن يعود إلى عاصمة بلاده ليقوم بدور فى سياسة بلاده - فوجد المؤامرات ضده فى صورة تحالف شيشيرون (Cicero) الفيلسوف المعروف وبومبى والسناتوس ، كلهم جميعًا ضده ، ولكنه لم يستمع إليهم . ودارت المعارك بين قوات الفريقين فى أنحاء إيطاليا كلها وخارج إيطاليا كذلك أى فى الولايات منذ عام ٤٩ إلى ٤٥ ق.م ، ولكن أعداءه لم يتركوه لينعم بإنجازاته ، ولا سيما بعد دخول كليوباترا المصرية حلبة الصراع وأثارت مشاعر الرومان ضد حليفها ، فاغتالوه فى عام ٤٤ ق.م .

وبمجرد مقتل قيصر ، نشب صراع جديد على الزعامة السياسية بين السناتوس من جهة ، وبين أنطونيوس وأوكتافيوس الشاب الذى لم يكن عمره يزيد - عن ١٩ عامًا - وبعد هذا التحالف القصير ، اقتسما فيما بينهما (٤٢ - ٤٠ ق.م) ولايات الإمبراطورية ، فكان لأنطونيوس (Antonius) الولايات الشرقية ، وكان لأوكتافيوس (Octavius) الولايات الغربية ، ولم يأت عام ٣٣ ق.م ، حتى كان الصراع بينهما قد بدأ [١].

وكلنا يعرف بقية القضية التى كان القدر بطلها عندما أوجد كليوباترا فى طريق القائد الرومانى أنطونيوس الذى لقى حتفه فى الإسكندرية منتحراً عام ٣٠ ق.م ، وتبعته كليوباترا ، التى كانت السبب الرئيسى لتطور الأحداث بهذه السرعة بين قطبين رومانيين ، كانا صهرين ، فكان أن استغل أوكتافيوس هذا التطور لصالحه ، وأنهاه بنجاح لتحقيق أهدافه هو بدبلوماسية بارعة .

لقد كانت معركة أكتيوم (Actium) هى بداية تاريخ عالمى جديد مكّنت لأوكتافيوس سلطته المطلقة كسيِّد أوحد لكل العالم اليونانى - الرومانى . كما كانت تعنى سيادة «الغرب» وليس « الشرق » على مقدرات ذلك العالم لمدة طويلة ، بالضبط كما قال بذلك مايكل جرانت :

" It also meant that this empire would be dominated for very long time to come, by the west, and not the east "[٢].

---

1 - Grant, M., History of Rome, London 1978, p. 201 .

2 - Ibid., p. 202 .

الأوضاع فيما بعد عام ٣٠ ق.م :

يعتقد كثير من المؤرخين أن ضم مصر كولاية (Provincia) إلى أملاك الشعب الرومانى -كما أعلن ذلك أوكتافيوس فى أثر أنقرة الذى تم الكشف عنه فى تركيا فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى - كان هو الفصل بين مرحلتين اثنتين فى تاريخ روما القديمة ، وليس عام ٢٧ ق.م ، عندما تمت التسوية لصالح القائد الأوحد ، الذى يمسك بيده زمام كل الأمور فى روما ، آنذاك ، وفى كل ولايات الشعب الرومانى خارج إيطاليا ، أنه « أوغسطس » ذلك القائد العسكرى المنتصر على أعدائه ، والذى أصبح - بعد موقعة أكتيون[١](Aktion) -هو الشخصية الوحيدة على مسرح الأحداث والتى غنمت كل شئ ، ولم تخسر شيئًا واحداً ، لأنه ببساطة شديدة هو الذى استطاع أن يدير حلقات الصراع بينه وبين منافسيه - الرومان أو الأجانب - بأعلى درجة من الفطنة والذكاء ، على أن يظهر دائمًا بمظهر المحافظ على الشرعية الدستورية أمام الرومان جميعًا ، مما أكسبه تفهمهم وانضمامهم إلى صفه حربًا كان أم سلمًا .

لقد كان ضم مصر (Aegyptus) واقعة لها أهميتها فى تاريخ الفتوحات الرومانية الخارجية ولاسيما بعد ظهور كليوباترا (Kleopatra) على مسرح الأحداث وطموحاتها التى لاتعرف حداً ولا تتورع عن اتخاذ كافة الوسائل حتى اللاأخلاقية منها ، لتحقيق سلطانها وهيمنتها على كل الأمور من حولها ، حتى أنها اتخذت قادة الرومان أدوات لتحقيق أقصى ما كانت تحلم به وهو الكيد لروما التى أذلت أعناق ملوك أسرتها البطلمية ، وراحت تلعب بهم ، وتبتزهم للبقاء على عرش مصر أطول مدة ممكنة كلما دفعوا الثمن لزعماء روما ... كانت تحلم بذلك ، وهكذا صورها الأدباء والخطباء الرومان كأبغض ما تكون كملكة شرقية لا خلاق ولا شرف عندها فتحاملوا عليها جميعًا . وماذا يمكن أن ننتظر من الأعداء ؟! ولاسيما أننا لم يصلنا - إلى يومنا هذا - أى دليل أثرى يوضح موقف الملكة البطلمية المنتقمة - بوسائلها المختلفة - من روما والرومان . إننا حتى الآن لانعرف دفاع كليوباترا إزاء كل هذه التهم التى كالوها ليها وتلك الصفات البذيئة التى وصموها بها . من ذلك ديوكاسيوس (Dio Cassius) - الذى كتب تاريخ روما (Tá ʾArkhaïká) فى (٨٠) كتابًا ، وكان قنصلاً للمرة الثانية عام ٢٢٩م - يعود بذاكرته ومن واقع السجلات الرومانية ومن وحى خياله كذلك ، كتب عن فتح روما لمصر على يد أوغسطس ، عام ٣٠ ق.م، يقول :

---

١ - أو أكتيوم - كما سبق أن ذكرنا - وفق النطق اللاتينى للكلمة . وكذلك أكتيون فهي قراءة وهجاء صحيح لاسم المعركة نفسها ، ولكن وفق النطق اليونانى الأقدم ، لأنها هى موقعة على الساحل الغربى اليونانى ، ومن ثم فالاسم يونانى الأصل .

" هكذا خضعت مصر[١] ، لأن كل من كان يقاوم ، لبعض الوقت قد قُبضَ عليه ، ذلك لأن الطالع[٢] قد أظهر لهم ذلك بكل الوضوح : إذ أمطرت السماء ، على غير عادتها ، دماءً ، وكانت صور الأسلحة ، تبدو من السحب ، وفى أماكن أخرى كانت دقات الطبول وأصوات الناى ، وهدير الأبواق تُسمع ، كما ظهرت فجأة حية كبرى[٣] ذات حجم ضخم - كما قيل - وأصدرت فحيحًا مخيفًا ، كلما زحفت على الأرض . وفى نفس الوقت كانت الشهب تُرى وظهرت العفاريت (أرواح الموتى) ، وتصدَّعت التماثيل ، وراح آبيس (Apis) يــذرف الدموع فى حسرة وألم "[٤] .

بهذا الأسلوب ، وبهذه العقلية ، نظر الرومان إلى واقعة ضم مصر إلى أملاك روما كولاية خارجية ، وكأنها حادثة غير عادية ، لها تباشير نحسها على المصريين ، حيث تكاتفت عليهم كل قوى الطبيعة ، فوقعت الواقعة على أرضهم ولم يفلتوا من السلاح الرومانى !!! .

إن كتابات ديون كاسيوس ، فى مطلع القرن الثالث الميلادى توضح بجلاء مدى إدراك الرومان لمكانة مصر وخطورة قوتها ، وكيف أنهم ، كانوا - بعد مرور أكثر من قرنين ونصف من الزمان - مازالوا حاقدين ناقمين على تلك الملكة البطلمية التى تحدتهم يومًا وسببت لهم إزعاجًا شديداً ، لهذا نسمع كاسيوس يقول :

- " إنها لم تكن تكتفى بأن يسامحها المصريون ويجعلونها ملكة عليهم ، بل تطمع فى أن تكون ملكة على إمبراطورية الرومان كذلك " [٥].

وحينما يتحدث عن أسلوب أوغسطس الفاتح الجديد لمصر والذى لم تفلح معه أساليب كليوپاترا كلها ، قال :

- " لقد كان يهدِّدها ويعِدُها فى آن واحد " [٦]:

وحول موقفها النهائى من الأزمة وقرارها الأخير بالانتحار ، كتب كاسيوس يقول : -

---

١ - يذكر النص كلمة «'edouléthé» بمعنى : « استُعْبِدت » .

٢ - وردت فى النص اليونانى كلمة «tó daimónion» وتعنى : " الفأل " .

٣ - وهى ترجمة لكلمة «drágón» اليونانية .

4 - Dio Cassios, Historiae, LI, 17 : 4-5 .

5 - Ibid., LI, 9: 6 .

6 - Ibid., LI, 8: 5 .

- **" لقد فضّلت أن تموت ، كملكة ، وفى عظمة السلطان ، على أن تعيش وحيدة منسية"(١).**

صورة الأوضاع فى بداية العهد الإمبراطورى : -

يذكر رستوفتزف واصفًا الأوضاع فى روما وإيطاليا فى القرن الأول ق.م ، قائلاً (٢):

" إذا نقّبنا عن اصطلاح عام يصلحُ للتعبير عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة فى الدولة الرومانية فى القرن الأول ق.م ، فمن الصعب أن نُوفّق إلى صيغة تكون موجزة ومفهومة وواضحة " . فالدولة الرومانية كانت :

من وجهة النظر السياسية :

كان النظام الإمبراطورى والذى يتحكم فى مصير جميع مؤسساته من الناحية القانونية ، جمهرة من المواطنين الأحرار ذوى أعلى وأرقى مستوى اجتماعى فى البلاد وكانوا يمثلون الهيئة الحاكمة ، ويمسكون مقّدرات الأمور بأيديهم ، ألا وهم طبقة كبار أعيان وأشراف الرومان، ممن كانوا يسمون بطبقة السناتوس (Senatus) . وكانت الولايات الخارجية التى تتبع روما بمثابة ضياع وإقطاعيات لهذه الفئة الحاكمة الأرستقراطية ، المحافظة ، ذات التقاليد العريقة .

ومن وجهة النظر الاجتماعية :

كان المجتمع الرومانى ، آنذاك ، يتكون من عدة طبقات تمثل هرمًا ، ذا درجات متفاوتة الارتفاعات ، بالتسلسل التالى :

أولا : الطبقة الحاكمة (السناتوس) :

وهى طبقة صغيرة نسبيًا ، أى قليلة العدد ، تحكم الإمبراطورية من العاصمة روما (Roma) ، وغالبية أفرادها من كبار ملاك الأراضى ، وأصحاب الإقطاعيات الواسعة(٣) سواء ماكان منها فى إيطاليا نفسها أو فى الولايات الخارجية .

---

1 - Ibid., LI, 11: 2 .

٢- تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، الجزء الأول ، ص ٦٦ .

٣ - هم أشبه عندنا بأصحاب العزب والوسايا فى مصر قبل ثورة ١٩٥٢ .

ثانيًا : طبقة رجال الأعمال :

وكانت طبقة كثيرة العدد ، ضمت كذلك بعض ملاك الأراضى وتمتع أفرادها بالجاه والنفوذ، وكانوا يؤلفون أرقى الطبقات ثراء - بعد السناتوس - فى العاصمة روما أو فى بقية مدن إيطاليا . وجدير بالذكر أن هذه الطبقة ، ذاتها لم تكن جميعها على نفس القدر من الثراء والغنى وتبعًا لنشاط كل تاجر ونوعية السلع التى يتاجر فيها ، شأن هذه الطبقة فى كل زمان ومكان .

ثالثًا : الطبقة العاملة :

وكانت تتألف من تجار التجزئة وذوى الحرف فى المدن ومن العبيد فى دواوين وحوانيت الطبقة الوسطى من البورجوازية ومن ملاك الأراضى الفلاحين الأحرار ، فى الريف ، ومن جمع غفير مطرد الزيادة ، يشمل العبيد والمستأجرين المستقرين فى الضياع التى فى حوزة أصحاب الأراضى .

أما فى الولايات الخارجية ، فكان هذا التوزيع نفسه ، لطبقات المجتمع ، والهيئات والجماعات يتكرر ويُراعى تطبيقه بين جموع المواطنين الأحرار من الرومان .

ومن وجهة النظر الاقتصادية :

فإننا نكاد نجد نفس النظام الرأسمالى الذى كان سائداً فى بلاد الشرق الهيللينسى ، حتى كان تداول السلع والبضائع ، يجرى فى يسر وحرية فى داخل نطاق الدولة الرومانية ومع جيرانها .

ولم تكن أهم السلع التجارية ، الأكثر انتشاراً ، هى الكماليات ، التى كانت البيوتات الأرستقراطية ، تتهافت عليها بل كانت السلع الضرورية جداً من غلال وأسماك وزيوت ونبيذ وكتان وصوف والأخشاب والمعادن . أما المأكولات والمواد الخام فإنها كانت تأتى إلى روما وإيطاليا من أماكن نائية وبعيدة ، أى من الولايات الرومانية ، خارج إيطاليا . فالزيت والنبيذ: يأتى من اليونان مثلاً .

أما النقد ومعاملاته وأعمال المصارف(١) ، فكانت امتيازاً خاصًا يكاد يكون مقصوراً على إيطاليا ، وبصفة خاصة على روما ، ذلك لأن معظم العملة المسكوكة كانت بأيدى الرأسماليين من الرومان .

١- يذكر رستوفتزف (الجزء الثانى - الطبعة الثانية - ترجمة زكى على وسليم سالم : مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ص ٣٢٤ - ٣٢٥) مراجع أجنبية كثيرة خاصة بالصناعة والتجارة فى العالم=

- كما كان المصنع الصغير هو وحدة الإنتاج الأساسية ، التى كانت تنتج باستمرار لسد حاجة الأسواق الداخلية والخارجية ، واشتهرت بعض المدن بصناعات معينة ، مثل :

- مدينة كابو (Capua) وكاليس (Cales) لإنتاج السلع المعدنية .

- مدينة تارنتوم (Tarentum) لإنتاج المنسوجات الصوفية والأوانى المعدنية المطلية بطبقة فضية .

- ومدينة أريتيوم (Arretium) ، وهى التى اشتهرت بإنتاج نوع خاص من الفخار اللامع (Glazed) ذو لون قانى .

= القديم فى القرن الأول ق.م ، وكذلك عن مشاركة الأيدى العاملة والخبرة والانتفاع بها فى إدارة المنشآت العامة وتطوير نظام المصارف عند الرومان طبقًا للنماذج الهيللينستية الشرقية وبصفة خاصة فى أثينا وردوس وديلوس.

الفصـــل الثانى

بداية عهد جديد

الإمبراطور أوغسطس(*) : (Augustus)

إنه بمجرد أن عاد أكتافيانوس (أوغسطس) إلى روما عام ٢٩ ق.م ، من الشرق ، وبعد أن أعاد تنظيم شئون تلك الولايات هناك أحس رجالات روما والشعب الرومانى - لأول مرة منذ منتصف القرن الثانى قبل الميلاد ، بالأمان والاطمئنان إحساسًا حقيقيًا(١) .

لقد تغيرت الأوضاع تمامًا ، فى النصف الأخير من القرن الأول ق.م، وها نحن نوجز الأحوال، قبيل اعتلاء أوغسطس عرش الإمبراطورية وقيام نظام دستورى جديد فى روما يجلس هو على عرشه ويمارس من خلاله سلطات الحاكم الفرد " الدكتاتور " (Dictator) والذى أسماه هو نظام : برنْكِبَاتوس (Princepatus) ، حيث كانت الصورة كالتالى :

السناتوس : منطوى على نفسه ، ولا يشارك فى الحياة السياسية ، بعد أن أمسك رجال الجيش العسكريين . ولاسيما قادة الجيوش الرومانية فى الشرق والغرب ، زمام الأمور كلها ولم يعد يستمعوا إلى آرائه وقرارته .

الفُرسان (equites) : كانوا فى وضع متميز فى كل شئ ، على إثر الاعتماد الكلى عليهم فى كل الحروب الخارجية .

ومع حاجة الجيوش الرومانية المتزايدة إلى قوات ، وظهور طبقة فرسان جديدة إلى الوجود ، تحت رعاية الدولة ، بالتطوع من بين صفوف طبقة المواطنين الأحرار المتوسطى الحال ، وبالرغم من الامتيازات المادية العديدة ، إلا أنهم كانوا يشعرون - فى قرارة أنفسهم - بأنهم دخلاء على المجتمع الأرستقراطى العريق ، وبأنهم - فعلاً - محدثو نعمة (٢).

(*) فضلنا صياغة المعادل العربى للفظة اللاتينية لهذا الاسم كما ذكرنا آنفًا وليس كما تنطق ، فى الأصل ، كالتالى : أوْجوستوس ، وذلك لسهولة الأولى على اللسان العربى ، وحيث أصبحت هذه أكثر استخدامًا منذ زمن طويل .

1 - White, G . W & Kennedy, E. C., Roman History, Life & Literature, London., 1942, p. 111 .

٢ - رستوفتزف ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ، الجزء الأول ، ص ٨٢ .

وتجدر الإشارة إلى أن هاتين الطبقتين كانتا تحتقران وتزدريان أعيان ووجهاء الريف والبلديات (Municipia) وذلك لخشونة طباعهم وسلوكهم ، والطريف - في الأمر - أن هؤلاء الأعيان ، أغنياء الريف ، كانوا « ينظرون شذراً إلى أغنياء المحرَّرين وغيرهم »(١) .

الطبقات الدُّنيا :

وهم جموع الفلاحين الأحرار ، وأحرار المزارعين والعمال الكادحين ، وكذلك أصحاب الحرف، وكما عرفنا من قبل فإن ساكنى المدن من أبناء هذه الطبقة ، أو غيرها ، عادة ما يحتقرون أبناء الريف ، والقرويين (Rustici) ، كما لا ننسى وجود العبيد (Servi) في جموع هائلة وضخمة ، سواء في مزارع النبلاء السادة (domini) أو فى المدن - كخدم - هذا فضلا عن أعداد كبيرة أخرى من فقراء وأحرار الرومان وهم الموالى (clientes) .

وعندما يواجه الدارس بسؤال : **ماذا كان موقف الحاكم الجديد لروما إزاء كل هذه الطبقات، وماذا قدَّم لبلاده** ؟ يجب أن يعرف بعض الأمور الهامة التى بدونها لايمكن أن تستقيم إجابته وتكتمل .

إن أوكتاڤيوس عندما قرر عمل شئ ، إزاء الأوضاع الراهنة أمامه ، فإنه « لم يُحْدِث أى تغير فى هذه الأوضاع وإنما قَبلها على أنها قضية مُسَلّم بها »(٢) .

وفى رأى البعض الآخر فإن أكتاڤيوس لم يفعل سوى أن وفَّق بين مصالح تلك الفئات والطبقات السالفة الذكر ، حتى أن عهده يمكن تسميته بأنه " عصر الوفاق الأوغسطى " : "The Augustan Compromise" . لقد كان هدف أوغسطس الأسمى هو إصلاح روما والولايات بالشكل الذى يراه ملائمًا لتحقيق نهضة كبرى من أجل خير ورفاهية الشعب الرومانى ، ولكن أساليبه تباينت واختلفت ، مما كان سببًا فى اختلاف المؤرخين والدارسين لشخصه ولعصره .

إن أوغسطس ، بالرغم من أنه لم يكن عبقرية فذة ، لا كجندى ولا كسياسى ، كان يتمتع بمجموعة من الخصائص الشخصية التى تمثل أهم ملامح الشخصية الرومانية وأسلوب الساسة

---

١ - المرجع السابق .

2 - White & Kennedy, op . cit., pp. 111 - 122 .

3 - Rostovtzeff, op . cit., p. 23.

الرومان الأوائل فى حربهم مع قرطاجة ، لقد اتّبع أكتافيوس مع أنطونيوس غريمه أثناء حربه معه ومع كليوباترا - فعل أساليب روما مع أعدائها ، والتى كانت تتمثل فى :

أ) الإصرار والتمسك بالهدف .

ب) الحذر والصبر .

جـ) استغلال أخطاء الأعداء والمنافسين أفضل استغلال والتعلم من أخطائه هو .

وحتى عند تحقيق النصر فإن أوغسطس لم يكن يتخلى عن هذا الأسلوب فى معالجة المشاكل التى يواجهها(١) .

لقد أقدم أكتافيوس على اتخاذ العديد من الإجراءات التى تتصف بأنها طويلة الأمد وتدريجية وهادئة ، وذلك من أجل تدعيم أركان نظامه الجديد فى الحكم والذى يعتمد أساسًا على شخصه باعتباره « الرجل الأول فى الدولة : " Princeps " ومكنّه من أن يسيطر هو ، سيطرة كاملة مطلقة ، على كافة أمور الدولة (٢).

ويذكر التاريخ لأوغسطس أنه فى عام ٣٦ ق.م ، كان قد وعد بإصلاح النظام الجمهورى الذى كان قائمًا حتى ذاك الوقت ، وبعدما أصبح هو الحاكم الأعلى ، صاحب السلطة الأعلى "Maius Imperium" فإنه أوفى بوعده ولكن على طريقته الخاصة وتحقيقًا لأهدافه ورؤيته هو للأمور .

ففى عام ٢٨ ق.م ، أمر أوغسطس ، ومعه أجريبًا ، آخر أصدقائه وذراعه الأيمن فى كل الأمور ، بعمل تعداد (Census) وذلك بهدف تسجيل الناس وممتلكاتهم تيسيراً لعملية تقدير الضرائب اللازمة على المواطنين الرومان .

ذكر أوغسطس فى نقش أنقره (Monumentum Ancyranum) المعروف باسم : الأعمال العظيمة للإله أوغسطس "Res Gestae divi Augusti" أنه نقل سلطته إلى السناتوس ليدير مصالح الشعب الرومانى(٣) وكانت هذه مناورة محسوبة من الإمبراطور الذكى .

---

1 - White & Kennedy, op . cit., p. 111 .

2 - Grant, M., History of Rome, Faber edition, London-Boston 1970, pp. 202- 203 .

3 - " Rem publicam ex mea potestate in senatus populique Romani arbitrium teanstuli,.."

وقراءة سريعة عند ديون كاسيوس[١] ، يستطيع الدارس أن يتعرف على ملابسات قرار أوغسطس بالتنحي عن منصبه العسكرى كقائد أعلى ، إذ أن هذا المؤرخ استنطق أحد مستشاريه وهو أجريبًا (Agrippa) فجعله يوجه نظر الإمبراطور إزاء تخليه عن منصبه العسكرى كقائد أعلى للجيش (Imperator) وكحاكم أوحد (Monárkhes) حيث يوضح بجلاء مخاوف أوغسطس من مؤامرات قيادات الجيش وحقد الزملاء [٢]. ولعل اطلاعنا على ترجمة لفقرة قصيرة من هذا الحوار بين أوغسطس وأجريبا ، نجد الأخير يتلو للإمبراطور :

" أيها القيصر ، لا تتعجب إذا ما حاولت أن أصْرف نظرك ، وأثنيك عن نظام حكم الفرد ، بالرغم مما فيه من امتيازات وما يمكن أن يعود على صاحبه من منافع حتى لو كنت أنت الذى فى هذا المنصب . ذلك لأنه إذا كان - من ناحية - سيعود عليك بالنفع وقد دَرَسْتُ ما يحصل عليه أصدقاؤه من ميزات فإنه - كما يقولون - من ناحية أخرى ، تحوطه مشاعرُ الحقد والأخطار من كل نوع ، وذلك بقدر رغبات معظم الحكام فى مزيد من المكسب ، ولكنهم - غالبًا - ما يحصدون الأحقاد والأخطار . إن هذا الشئ نفسه لايحدث بالنسبة لى ، كما لا يحدث بالنسبة لآخرين ، ولكننى وجدت ذلك اتجاهًا سليمًا لمصلحتك أنت ولمصلحة الدولة"[٣].

خطوات التأييد الشعبى :

لقد حرص أكتافيوس على ضرور التأييد الشعبى المستمر لكل خطواته ومن هنا كان حرصه الدائم على إخبار الشعب الرومانى بما يريده هو : ولم يقع فى أخطاء يوليوس قيصر الذى اعتمد اعتماداً كليًا على قوة جيشه وتجاهل الرأى العام . إنه عندما أتى بالسلام إلى ربوع الإمبراطورية الرومانية ووطد دعائمه وقلّل من عدد فرق الجيوش الرومانية وأوجد الوظائف للمحاربين وأجزل لهم العطاء عند الخروج من الخدمة العسكرية ، فإنه بذلك قد ضمن التأييد الشعبى الذى كان يبغيه بكل السبل[٤] واستطاع بنجاح تام أن يحافظ على ذلك ، فلم يعلن صراحة أنه سيدهم :(dominus) ومثّل عليهم دور خادمهم المطيع المتواضع[٥] .

---

1 - Book L11, 1-2 .

٢ - حتى لا تتكرر مأساة يوليوس قيصر عام ٤٤ ق.م .

٣ - ديون كاسيوس : التاريخ الرومانى ، الكتاب الثانى والخمسين ، فقرة ١ -٢ .

4 - Tacitus, Annals, 1.2. : cunctos dulce lıne aliı pellexit.

5 - Whıte & Kennedy, op . cit., p. 113 .

إن النظام الدستورى الذى وضع أوغسطس لبناته ودعمه بأساليبه المدروسة جيداً - كما رأينا فى موضوع تخليه عن سلطته العسكرية - كان نظام الحاكم الأوحد (autocracy)(١) ، فعلاً، ولكن كان نظامًا جمهوريًا شكلاً .

هنا حدد أوغسطس - بعد حصوله على هذا اللقب عام ٢٧ ق.م - وظائف كل الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الرومانى وشجَّع الجميع على القيام بدوره فى حدود اختصاصه ، وأوضح للرومان جميعًا أنهم إن أرادوا أن يكونوا سادة العالم ، فعليهم بالعمل والقيام بالأعباء ، وبالتالى فإنه حدد لهم أدوارهم لتدعيم حكم الإمبراطورية الواسعة ، المترامية الأطراف شرقًا وغربًا ، وهكذا فإننا نجد تلك الوظائف موزعة على حسب قدرات كل طبقة وتطلعاتها الاجتماعية :

(أ) طبقة السناتوس :

كان عليها أن تقدم للدولة أعضاء المجلس الأول فى الإمبراطورية ، وموظفى مدينة روما ، العاصمة ، وقادة الجيوش والضباط ، فضلاً عن حكام الولايات الخارجية ، وبهذه الطريقة أرضى هذه الطبقة العريقة ، وحافظ على الشكل الدستورى ، كالنظام الجمهورى السابق ولكن مع مشاركته التامة فى جلسات السناتوس ومعرفته لكل صغيرة وكبيرة من أموره ، واحتفاظه هو بالقرار النهائى .

(ب) طبقة الفرسان :

كان عليها - فى ظل النظام الأوغسطى الجديد - أن تقدم للدولة رجالات القضاء لشغل وظائف قضاة المحاكم الرومانية الذين يعرفون باسم (praetores) ، وكذلك يجب عليها أن تمد الدولة بقيادات عسكرية للقيام بوظائف ضباط القوات المساعدة ، التى تُعرف باسم (auxilia).

(جـ) طبقة الموظفين المدنيين :

وكانوا من أبناء الطبقة الوسطى فى المجتمع الرومانى وطبقة الفرسان الجديدة ، التى أثْرت فى ظل الحروب والفتوحات الخارجية ، وحدد لها أوغسطس هذا السلك الوظيفى فى إدارات

---

١ - الاصطلاح هذا ذو أصل يونانى هو "autokratia" وتعنى « حكم الفرد » الذى يُسمى عندئذ "au-tokrátor" أى الإمبراطور .

وهيئات الحكومة الرومانية ، فضلاً عن العمل فى قصور الأباطرة ومكاتبها ، أى القيام على خدمة الأباطرة شخصيًا .

(د) طبقة عبيد وموالى الإمبراطور :

وكانت فئة كبيرة العدد ، مختارة للعمل فى الإدارات والدواوين الملحقة بالسكن الإمبراطورى - أى داخل القصر الإمبراطورى ، ولكن فى وظائف أدنى من تلك التى يتولاها أبناء الطبقة السابقة ، طبقة الموظفين المدنيين . ولما كان للسكن الإمبراطورى أفرع منتشرة فى أنحاء الإمبراطورية احتاجت إدارات هذه القصور إلى أعداد كبيرة من أفراد هذه الطبقة المحرومة .

(هـ) طبقة العُتقاء :

وقد حدد لهم أوغسطس القيام بأعباء العمل كبحارة ونوتية[١] فى الأسطول الحربى أو إدارة مطافئ العاصمة .

وإتباعًا لنفس سياسة روما القديمة تجاه المدن الإيطالية الأخرى فإن أوغسطس قد حدد لها دوراً يتمثل فى ضرورة قيام هذه المدن بإمداد وتزويد الدولة بالجند المدربين ، وذلك للعمل فى الحرس الإمبرطورى ، أو الفرق الأساسية للجيش (Legiones) أو كضباط للقوات المساعدة .

المعايير :

وجدير بالذكر ، أن المعيار الذى كان على أساسه تتم عملية **تحديد الطبقات الاجتماعية فى المجتمع الرومانى القديم** ، وحتى فى عهد أوغسطس ، **كان مقدار ما يملك الفرد الرومانى من ثروات عينية أو نقدية** ، وبالتالى كل مظاهر الثراء والرفاهية المادية . وكانت هذه وظيفة التعداد (Census) ، الذى حرص أوغسطس على إجرائه لتسهل عليه عملية تحديد الطبقات الغنية وتحديد مدى مسئوليتها فى دفع الضرائب ، وبالتالى زيادة مقدرة الدولة على القيام بالأعباء المنوطة بها .

نعم ، لقد كانت المادة والثروة هى أساس تقدير الفرد ومدى مشاركته ، واحترامه من قبل الشعب ، فى أمور الحياة العامة . فإنها هى المادة التى كانت توضع فى كفة والأفراد فى كفة أخرى:

---

١ - كلمة « نُوتية » = بحارة ، ذات أصل يونانى " naũtai " ، ودخلت العربية .

سواء فى العهد الملكى أو الجمهورى أو حتى فى ظل النظام الجديد الذى لم يملك أن ينسلخ عن ماضيه وتراثه وهكذا ، فإنه لا لوم على أوربا اليوم عندما تزن الأمور والأخلاق والدين بمعيار المادة ، وسارت على نهج أسلافهم فى روما وأثينا القديمتين . وحتى لا نكون مُغالين فى موقفنا هذا ، فربما نجد العذر للمجتمع الأوربى بصفة عامة ، والمجتمعات القديمة فيها ، بصفة خاصة عند اليونان والرومان ، إذ كان على الفرد مواجهة مصاعب الحياة والطبيعة ولابد من العمل والانتاج ، وإلا فإنه لن يجد مَنْ يخدمه أو يسد رمقه أو يُكْسيه ، نظراً لفقر البلاد ، **ولهَذا كان مَنْ يملك أكثر يسُود أطول ويعيش أفضل . ولهذا ، أيضًا نشأوا على احترام العمل - أي عمل - ليس عن حب وإيمان بضرورة العمل ، بل بدافع الحاجة فى ظل مجتمع لا يعرف للرحمة مكانًا ولا يعلو صوت فيه على رنين النقود ، مهما كانت ثقافة المالك ضحلة أو منعدمة ، فيكفى الشاب أن يكون مالكًا لأموال أو عقارات أو أنه ينحدر من أسرة كلا المعروفة بثرائها ، دونما اعتبار لأى قدر من الثقافة أو التعليم .** لقد كان الشرط الوحيد لشباب الأرستقراطيين فى روما والمدن الإيطالية الأخرى ، هو التمتع بقسط معين من التربية البدنية والتدريب العسكرى ، ثم الولاء الضرورى للإمبراطور ، كرخصة للترقى من منصب إلى آخر .

فلسفة السلام الرومانى وسياسة أوغسطس الاقتصادية :

لايمكن ، بداية ، أن نتخيل أى تقدم اقتصادي فى أى بلد من البلدان فى التاريخ القديم أو الحديث ، دونما استقرار دائم لأحوال هذا البلد أو ذاك . وعلى وجه التحديد ، استقرار فى السياسة الخارجية ، التى هى مفتاح كل تحسن فى الأوضاع الاقتصادية الداخلية .

لقد كان أستاذنا الفاضل د. سيد الناصرى ، على حق عندما أكد على أهمية السياسة العامة للدولة كضمان لأى تقدم وازدهار ، فتاريخ الدولة هو سياستها أولاً ، ونتيجة لهذه السياسة - داخلية كانت أم خارجية - تتوقف درجة التقدم الاقتصادى لهذه الدولة أو تلك[1].

ولكى نستطيع أن نقدر ما فعله أوغسطس إزاء سياسة الإمبراطورية الخاصة والوضع فى الولايات الرومانية ، بعد استعراضنا للأوضاع الداخلية فى روما (فى الصفحات السابقة) نقدم هنا عرضًا موجزاً للصورة التى كانت عليها الأحوال قبل أن يتولى أوغسطس أمور البلاد بقليل، وذلك من أجل تحديد دور أوغسطس فى هذا المجال .

---

١ - تاريخ الإمبراطورية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥ ، ص ١٠ .

لقد كانت صورة الأوضاع الخارجية كما يلى :

(١) انتصارات للرومان ، غير حاسمة ، فى الشرق والشمال .

(٢) ضرورة إنقاذ سمعة روما وجيشها فى هذه المناطق بعد هزائم كراسوس (Crassus) على يد البارثيين .

(٣) تهديد كليوپاترا (Kleopatra) لروما ، وطموحاتها غير المحدودة ، ولا سيما أنها اتخذت أعظم القادة الرومان وسيلة لتحقيق أهدافها : مما يعتبر ضربة لروما داخلها وتقويض لأركانها بأيدى أبنائها .

(٤) انقسام القيادات العسكرية للقوات الرومانية إزاء ما يجب عمله .

والحقيقة أنه بمجرد أن انفرد أوكتاڤيوس بعرش الإمبراطورية الرومانية حتى بدأ يعالج كل هذه الأمور بحسم وهدوء مستخدمًا كل السبل المتاحة ، لدرجة أنه ابتدع أخطر وسيلة دعائية فى التاريخ القديم ، وهو إصدار جريدة يومية لإخبار الشعب بما يريده هو ، وهو الأمر الذى حرص عليه دائمًا ، ألا وهو التأييد الشعبى لكل خطواته .

هنا لابد لنا أن نعترف بنجاح أوكتاڤيوس فى إدخال الإمبراطورة الرومانية فى عهد جديد حقًا ، ولكن هذا النجاح لم يأت من فراغ . ذلك لأنه كان قد اختار الطريق الصعب ، ولم يعرف الراحة أو السكينة إلا بعد أن :

(أ) بذل جهوداً جريئة وكبيرة ومكثفة أنهت المشكلة الشرقية ودور القراصنة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وكذلك أنهى - إلى الأبد - طموحات الملكة الشرقية المقدونية كليوپاترا وكذلك بعد أن قضى قضاءً نهائيًا على مستقبل أنطونيوس (Antonius) غريمه السياسى والعسكرى ، وهكذا استراح الحاكم الجديد إلى حدود الإمبراطورية الشرقية وذلك بالاعتماد الكلى على فرقه العسكرية الكثيرة العدد ، فاستقرت الأوضاع وتحسنت سمعة روما وزادت رهبتها .

(ب) التف القادة العسكريون خلف أوغسطس ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة كزعيم قوى ، يعرف ويدافع عن مطالبهم ويُحسن قيادتهم ، هذا بالرغم من أن أوغسطس لم يحالفه الحظ فى إنهاء المشكلة الألمانية لضمها نهائيًا إلى أملاك الشعب الرومانى ، ذلك لأن أوغسطس كان مهتمًا بدرجة أكبر بالحدود القريبة المباشرة مع إيطاليا ، فاهتم بالحدود الشمالية والشمالية

الشرقية ودخلت القوات الرومانية فى حروب مضنية مع البانونيين (Panonians) والدالماتيين (Dalmatians) .

وفى هذا المقام لابد أن ننوه إلى حقيقة تاريخية خرجنا بها من دراستنا لتاريخ روما القديم وعلاقاتها بالشرق ، وهى أن سياسة روما فى الشرق كانت تقوم على دعامتين :

الأولى هى : الدبلوماسية : كما حدث مع مصر منذ بطليموس الثانى فيلادلفوس (Filádelfos) ، أى منذ ٢٧٣ ق.م ، إلى أن وقعت مصر ، رسميًا وبشكل سافر ، تحت الاحتلال الرومانى ، على أيدى أوغسطس عام ٣٠ ق.م .

الثانية وهى : التجارة : كما حدث مع تجارة الشرق العربى والبحر الأحمر . ومما هو جدير بالذكر فى هذا المجال أن سياسة الرومان اعتمدت على قوات حربية عظيمة - أى فرض السيادة التجارية بالقوة المسلحة بالرغم من أن حملة أحد قادتهم وهو آيليوس جاللوس (Aelius Gallus) على بلاد العرب فشلت حربيًا ، إلا أنها حققت للرومان بعض المكاسب التجارية من تجارة الشرق .

ونتيجة لهذا كله استقرت الأوضاع ، شرقًا وغربًا على حدود الإمبراطورية الرومانية وازدهرت التجارة وشاع السلام ، بفضل مجهودات أوغسطس ، حتى عُرفَ هذا السلام بأنه «السلام الأوغسطى : Pax Augusta» وأقام الرومان تمثالاً حيًا معبراً عن هذا السلام فى ساحة الإله مارس ، تعبيراً عن تلك الروح الجديدة التى سادت روما والولايات كذلك .

وكما ذكرنا ، آنفًا ، فإن ازدهار اقتصاد بلد من البلدان لايمكن أن يتم فى غير الاستقرار وهدوء الأوضاع وعدم تقلب السياستين الداخلية والخارجية على السواء ، وإن كنا نؤكد أكثر على أهمية السياسة الخارجية لدول العالم القديم ، لأنه فى ذاك الزمان ، لم تكن دولة وحدها قادرة على حفظ استقلالها الذاتى وضمان حدودها إلا بعقد المحالفات الخارجية مع دول أقوى، وبالتالى فإن أى تغيير فى ميزان القوة على الصعيد الخارجى سيكون له انعكاس سئ أو طيب على الدول المتحالفة مع بعضها وهكذا فإن السياسة الخارجية هى التى كانت الفيصل لما كانت عليه أحوال أى بلد فى داخله . وقد رأينا بالفعل ، كيف أن روما لم تحقق الاستقرار المنشود إلا بعد أن حلت مشاكل حدودها الخارجية فى الشرق والغرب مع الولايات المتاخمة على أقاصى حدود إمبراطوريتها .

وقبل الدخول فى سياسة أوغسطس الاقتصادية والإجراءات التى قام بها واتخذها فى هذا السبيل ، كنا نود أن نعرف ماهية فلسفة السلام الرومانى الذى جاء نتيجة تلك المجهودات الضخمة للقوات الرومانية فى ساحات الحروب .

إن الحقيقة التاريخية التى يجب علينا نحن الدارسين للتاريخ القديم بصفة عامة والتاريخ الرومانى بصفة خاصة ، وهى أنه من الضرورى ألا نتخدع - اليوم ونحن نقرأ ذاك التاريخ - بالمسميات وتنساق - مثلاً - وراء كلمة « السلام » لما لها من تأثير سحرى على الأمم الضعيفة التى تأمل فى شئ من هذا القبيل ، لأنها لا تقوى على غير ذلك ، من ناحية ، ولأن مطلب « السلام » - فى عالم اليوم - ليس إلا مطلب الضعفاء . ولا ترفع هذا الشعار إلا الأمم التى لا حول لها ولا قوة أمام القوى الكبرى . إن الرومان - قديمًا - لم يعملوا على نشر السلام بين ربوع إمبراطوريتهم إيمانًا منهم بالسلام كوسيلة ، للعيش ،والتعايش الإيجابى بين الأمم ، ولم ينادوا به ، كما يمكن أن يُفهم من مصطلح « السلام الرومانى » **ولكن الحقيقة المرة، المؤلمة ، « هى أن الرومان فرضوا سلامًا معينًا ، فى فترة معينة لأسباب معينة »** .

لقد كان السلام الرومانى هو سلام القوة والأقوياء ، لا سلام المستضعفين والضعفاء ، والسلام القائم على قوة السلاح ، لا السلام الأعزل ، والذى تنادى به اليوم - مثلاً - دول منطقة الشرق الأوسط وتستجْدى به القوتين العظميَيْن فى أن يتفقا على إيجاد نوع من التسوية وأن يكونا ضامنَيْن لهذا السلام . لقد كان السلام الرومانى نتيجة طبيعية لسلسلة الحروب المتواصلة التى فرضت على روما تبعًا لطموحاتها العظيمة واستراتيجية التوسع التى انتهجتها منذ مطلع القرن الخامس ق.م . إنه ثمرة كفاح دام حوالى خمسة قرون من الزمان ، دفعت روما ثمنه غاليًا من أبنائها ورجالاتها وقادتها العسكريين الأفذاذ .

إن نظرة فاحصة لتمثال السلام (STATUA PACIS) لتؤكد تلك الروح الجديدة فى عهد أوغسطس . وذلك لأن إقامة مثل هذا التمثال فى ميدان إله الحرب له دلال واضحة وكيف أن السلام هو الذى يكسب فى آخر المطاف ، ولكنه لايدوم إلا فى ظل القوة المسلحة . إن موضوع التمثال يزيدنا إيمانًا بأن الزعامة الرومانية هى التى مولت وأنفقت الأموال على إقامة هذا التمثال الذى عكس فكر وفلسفة السلام لدى القيادة الرومانية وماهية ذلك السلام فى نظرها. لقد صور الفنان الرومانى مدينة روما كإلاهة تجلس فوق أكمة من الأسلحة المتنوعة ، وتتكئ بذراعها اليسرى على درع ، بينما تستند بيدها اليمنى على عمود به درع آخر مستدير ، هو

الدرع الذى أهداه السناتوس باسم الشعب الرومانى إلى الإمبراطور أوغسطس ليزين به منزله على تل البلاتين[١] ثم رمز الفنان ، نحات هذا التمثال ، إلى سيادة روما العالمية ، على الشرق والغرب ، فقام بنحت كرة أرضية (Terrarum Orbis) ووضعها أمام الإلهة روما ، وأضاف عنصراً آخر له دلالته العظيمة ، بعد أن أوضح سيادة السلام القوى الذى يعم العالم أجمع ، وهو أن نحت مذبحًا صغيراً مستقلاً ، أمام التمثال وضع عليه إناء تقديم القرابين المقدس (Cornucopiae) والذى كانت تُوضع فيه كل الخيرات الطبيعية ، وذلك تقربًا إلى الإلهة .

هكذا تمثلت أمامنا كل معالم السلام الرومانى وفلسفته **إنه السلام ... القوى .... العالمى ... الخيِّر ، أى الذى سيفى وسيعود على الإمبراطورية بالخير العميم .**

والجدير بالملاحظة أن هذا السلام المعين ، استطاع الرومان أن يفرضوه على العالم ، فى الوقت الذى كان يناسبهم ويتفق مع ظروفهم . هنا يقول رستوفتزف :

" إنهم كانوا (أى القادة) فى مسيس الحاجة إلى السلام ولكن على أن يكون السلام للدولة الرومانية "[٢] .

نعم ، لقد كان القادة الرومان وجنودهم قد وصلوا إلى درجة من الإرهاق الشديد فى الشرق والغرب ، ولم يعد هناك من أسباب الفتح الخارجي ما يقتنع به الشعب الرومانى قد يجعله يساند عملية استمرار بقاء كل تلك الجيوش فى الخارج وما يستدعى ذلك من زيادة فى أعباء الدولة الرومانية واستمرار عملية النزيف للشباب الرومانى وأخذ وتجنيد الفلاحين مما أصبح معه القمح الرومانى – من إيطاليا نفسها – أغلى بكثير فى تكلفة إنتاجه ، مما يستورد من الخارج حقيقة الآن أن الأوان آن أن يستريح الجميع قادة وجنوداً ليجنوا ثمار سنوات الحرب والقتال والتوسع ، إن هؤلاء كانوا هم أول المستفيدين من السلام الرومانى ، سواء من استمر منهم عاملاً فى الجيش الرومانى ، أم من خرج بعد إنهاء خدمته فيه ، لأن أوغسطس أجزل لهم العطاء فى الحالتين .

---

١ – حول هذا الدرع الأخير نَسَجَ الشعب الرومانى أساطير ، منها أن إلاهة النصر هى التى جاءت به ووضعته فى يد الإلهة « روما » بعد أن حَلّقت به فى السماء .

٢ – المرجع السابق ، ص ٧٠ .

سياسة أوغسطس الاقتصادية :

إنه بالرغم من الازدهار الاقتصادى الناتج عن الاستقرار العام فى جميع أرجاء الإمبراطورية، إلا أننا يجب أن نقرر حقيقة تاريخية وهى أن أوغسطس لم تكن له سياسة اقتصادية واضحة ولكن أسلوب إدارته فى هذا المجال كان يقوم على تدعيم ما هو كائن أصلاً ويراه صحيحًا سليمًا وإعادة تنظيم لما يراه غير كافى أو لا يحقق أهداف ومصالح الشعب . وهى سياسة قوامها : التوفيق بين الأوضاع الراهنة القائمة ، ويحاول جاهداً أن يُدخل بعض التغيرات الطفيفة ، كلما اقتضت الضرورة ذلك ، مدفوعًا ، ربما بأسباب سياسية أو أخلاقية ، مثلما الحال فى القوانين التى أصدرها لحماية صغار الملاك من بطش الطبقة الأرستقراطية (الإقطاعيين) ، كما عرفنا ذلك من أشعار هوراتيوس (Horatius) فى قصائده (Odes) وكذلك عندما أصدر قوانين الحد من البذخ والإسراف : (Leges Sumptuariae) .

وخلاصة القول أن سياسة أوغسطس الاقتصادية يمكن اعتبارها سياسة « دع الأمور تجرى فى أعنتها » – وهو المثل المقابل للمذهب الاقتصادى القائل (Laissez passer, laissez faire) ، ولكن إيطاليا – وهذا أمر طبيعى – أصبحت هى المركز الأساسى لكل أنواع النشاط التجارى مما عاد بالفائدة العميمة العظيمة على إيطاليا وسكانها ، بالدرجة الأولى ، وأصبحت مظاهر الثراء والبذخ واضحة ، مما حدا بأوغسطس لأن يخاطب ويرجو الشعب بعدم الإسراف .

وعمومًا ، فإننا نفضل أن نعرض صورة للوضع الذى كانت عليه الحياة الاقتصادية آنذاك ، حتى ولو بإيجاز شديد .

أولاً : الزراعة :

لم تؤثر الحروب الأهلية فى إيطاليا القديمة على مجريات الحياة الزراعية ، لأنها من الأنشطة التى لا تتطور بسهولة أو تتقدم بسرعة ، ولكن التأثير الحقيقى – كما قلنا آنفًا – كان علي إنتاجية الأرض وما تغله من محاصيل . وجدير بالذكر فى هذا المجال أن السياسة العقارية لم يطرأ عليها أى تغيير جوهرى :

فكانت الضياع الكبيرة (latifundia) ، تزداد مساحة ، وذلك على حساب صغار الملاك ، كما ظهرت الملكيات المتوسطة وزادت أهميتها الانتاجية بعد استخدام الأسس العلمية فى زراعتها ، وكان أصحابها فى الغالب من المحاربين القدماء الذين أخذوا هذه الأرض كنوع من

الهبات الحكومية - بعد تسريحهم من الجيش - منذ عهد سوللا (Sulla) وبومبى (Pompeus) وقيصر (J. Caesar) وأوغسطس (Augustus) .

إن أفضل صورة لإحدى الضياع والهبات هى التى جاءت عند شاعر العصر الأوغسطى هوراتيوس (Horatius) والذى كان مَايْكيناس (Maecenas)[١] قد أعطاه إياها ليعيش من ريعها وجاء وصفها كالتالى : تنقسم المزرعة إلى قسمين :

القسم الأول : مزرعة نموذجية يديرها المالك ، وهو هنا الشاعر هوراتيوس ، الذى لم يكن يقيم فى مزرعته بل فى العاصمة روما ، ويدير له هذه المزرعة ثمانية عبيد ، يفلحون الأرض ويزرعونها ويحصدون غلتها .

القسم الثانى : وكان موزعًا إلى خمس مساحات ، كانت كل مساحة منها تؤجر إلى عائلة من المزارعين (Vilici) الأجراء الذين ربما كانوا - يومًا ما - أصحاب تلك الأرض الأصليين ، فيزرعونها عندئذ لحساب المالك الجديد ، هوراتيوس .

أما عن المحاصيل والنباتات التى تزرع فى هذه المزرعة فإننا نجد الفواكه والخضروات ، التى تزرع فى جزء من المزرعة النموذجية ، أما الجزء الأكبر فكان للغلال ، قمحًا كان أم شعيراً ، وحيث توجد الغابات والحشائش ، كانت الأغنام والماعز والثيران والخنازير ترعى عليها .

كان هذا النوع من الضياع الواسعة موجوداً فى وسط إيطاليا ، وهناك أشباه لها فى مناطق ستابياى (Stabiae) ، وبومبيوم (Pompeum) وكذلك هركولانيوم (Herculaneum) التى كان بها أماكن للسكنى مريحة ، وهو ما يعرف باللاتينية باسم فيلا (Villa) ، وهى المنزل الريفى ... ولكن أصحابها هنا - بخلاف الآخرين كانوا يسكنون فى نفس مناطق مزارعهم ، ولا يديرونها من روما ، من خلال عبيد ، كما كانت تفعل الطبقة الطبقة الأرستقراطية من رجالات السناتوس أو طبقة الفرسان .

وجدير بالذكر أن نضيف مزارع إقليم كمپانيا (Compania) وڤيلاتها ، حيث كانت الضياع فيها تشبه ضيعة هوراتيوس فى كثرة المخازن وانتشار المراعى .

إن أهم إضافة إلى أوضاع الزراعة والمزارعين فى عهد أوغسطس هى قراره بفرض ضريبة عقارية على الشركات بنسبة ٥٪ ، وكان النبيذ وزيت الزيتون من أهم المنتجات الزراعية ، وكان مسموح بتداولهما وبيعهما فى السوق الحرة .

---

١ - كان الرجل الثالث فى عهد أوغسطس - بعد أجريپا - وزوج إبنة الإمبراطور الكبرى .

وفى ضوء الدليل الأثرى المتوافر لدينا - حتى الآن - نستطيع أن نصور حياة المزرعة الرومانية فى عدة نقاط :

(أ) وجود آلاف العبيد (Servi) والثيران (Vacae) والمحاريث الزراعية (aratra) .

(ب) وجود منازل كثيرة لإقامة هؤلاء العمال المأجورين (Vilici) . فكانت هذه المنازل القروية أشبه « بالعزبة » - فى مصرنا الحديثة - حيث الدور الحقيرة ، ذات الطابق الواحد ، والمبنية من الطوب اللبن ، مع وجود منزل كبير علي مستوى أرقى ، على نظام الڤيلا (Villa) لصاحب العزبة أو المزرعة .

(جـ) وفى ضوء الدليل الأدبى ، نجد أسفًا كبيرًا على ماضى إيطاليا القديمة ، إذ هاجر المزارعون إلى كنف ملاك الأراضى ، وتزايدت أعداد العبيد والموالى ، وتحول المزارعون إلى مستوطنين (Coloni) ، واختفائهم الذى أصبح موضوعًا يوميًا على ألسنة الملاك كما نقرأ ذلك عند هوراتيوس (Horatius) .

(د) لم يحدث أن تدخل أوغسطس فى قوانين الأراضى والعقارات - إلا ما ذكرنا آنفًا - كما كان ذلك ظاهرة متكررة من ظواهر الحرب الأهلية ولم تكن القيادة السياسية على يد أوغسطس على استعداد أن تعيد إلى الأذهان فترات الاضطراب والقلق وعدم الاستقرار .

ثانيًا : التجارة :

للتجارة ميدانان ، أحدهما فى داخل البلاد ، والآخر خارج البلاد ، أى هناك تجارة خارجية بين الإمبراطورية وبلدان أخرى وتجارة داخلية بين ولايات الإمبراطورية بعضها ببعض وبينها وبين روما .

(١) التجارة الخارجية :

التجارة الخارجية ، حياة مستمرة وحركة دائبة ، لابد لها من مقومات نجاح ، أولها وعلى رأسها جميعًا ، الاستقرار[١] - كما قلنا سابقًا - ونعنى به استقرار الأوضاع السياسية خارجيًا وبالتالى داخليًا ، فيستقر المواطن ويطمئن إلى قيادته ويثق فى إجراءاتها مما يجعله ينشط ولا يدخر وسعًا طالما أن ذلك سيعود عليه بالفائدة المباشرة ، وهكذا يضمن يومه وغده فعم السلام ، وبدأت حركة العمران والتبادل التجارى .

---

١ - وهو ما تسعى إليه حكومتنا الرشيدة طيلة السنوات الماضية مما انعكس إيجابيًا على الوضع الاقتصادى المصرى وتحسن الأداء .

كانت الإمبراطورية الرومانية فى عهد أوغسطس قد مهدت لإنجاح النشاط التجارى فى أحسن صورة للأسباب الآتية :

١ - هيمنة الإدارة المركزية - فى روما - على أحوال الإمبراطورية فى الداخل والخارج ، فكان الجيش الرومانى بمثابة صمام الأمن والأمان فى كل مكان .

٢ - استخدام الطرق الحربية فى الاتصال والمواصلات مما ساعد على نشاط حركة التبادل التجارى .

٣ - فتح أسواق جديدة فى شمال إيطاليا ، فى الولايات الجديدة مثل الغال وأسبانيا وإفريقية .

٤ - تأمين الملاحة البحرية فى كل حوض البحر المتوسط ، ضرقه وغربه ، بفضل قوة الأسطول الرومانى .

٥ - إعطاء الفرصة للمدن اليونانية ، مثل كورنثا (Korinthos) وقرطاجة ، لممارسة نشاطها التجارى من جديد .

وإليك قائمة بأهم البضائع التى كانت ضمن سلع التبادل التجارى مع الإمبراطورية الرومانية، وسنذكر كذلك مصادر انتاجها .

(أ) الصفيح من أسبانيا .

(ب) الكهرمان وبعض الفراء والعبيد من ألمانيا .

(جـ) القمح من جنوب روسيا إلى اليونان .

(د) البلح من بدو الصحراء الكبرى وشراء العبيد الزنوج والتوابل .

(هـ) العاج والأخشاب الثمينة والذهب والمواد العطرية ، وكلها سلع تمثل تجارة مصر مع إفريقية وبلاد العرب حيث حصلت روما على التوابل والعطور والجمال والأحجار الكريمة .

ويجب ألا ننسى أن معظم الأثمان للسلع المباعة فى أسواق الشمال كانت سلع أخرى قادمة من الشمال ، أى أن التبادل التجارى كان يتم عن طريق المقايضة - فى أغلب الأحيان - وبصفة خاصة تجارة الزيوت والنبيذ والسلع المصنعة ، ولكن أثمان البضائع الشرقية فكان بعضها نقداً ، بعملات ذهبية أو فضية ، كما يذكر ذلك بلينيوس ، وكما كان يحدث مع

البضائع الشمالية فى الغالب ، فإن الثمن ، هنا كذلك ، كان عينًا من بضائع تم إنتاجها فى مدن الإمبراطورية ، مثل الإسكندرية ، وللأسف لم تكن التجارة الخارجية هذه ، كما عرفنا - مزهردة إلا فى بضائع الترف وبالتالى لم تكن ذات أهمية حقيقية بالنسبة للحياة الاقتصادية فى بلدان وولايات الإمبراطورية الرومانية .

(٢) التجارة الداخلية :

ويفهم منها - كما أوضحنا سابقًا - أنها عمليات التبادل التى تتم بين ولايات الإمبراطورية بعضها البعض ، سواء تلك التى تخضع للسناتوس أو للإمبراطور .

ويلاحظ أن أهم السلع التى كانت تتبادلها الولايات فيما بينها كانت النبيذ وفخار أريتيوم (Arretium) من إقليم إتروريا (Etruria) بوسط إيطاليا ، والذى انتشرت شهرته فى القرن الأول ق . م ، كأفضل أنواع الفخار الملون لدرجة أنه تم العثور عليه - أى على بعض نماذجه فى إفريقية . أما الفخار السيحيللاتى Terra Sigillata) فكان ذا لون أحمر لامع ومصقول ، ويقلد الأنماط المعدنية سواء الملونة أو غير الملونة .

ولاشك أن قصة تريمالخيو (Trimalchio) تؤكد بوضوح مدى الثراء الهائل من جراء تجارة النبيذ[١] .

---

١ - صوّر لنا پترونيوس أحد رفاق الإمبراطور نيرون (Nero) فى عمله ، ... الذى وصل إلينا باسم «مائدة تريمالخيو » (Cena Trimalchionis) وكيف أنه بدأ حياته عبداً عزيزاً على سيده ، وضحك له الحظ فورث سيده واستثمر أمواله فى تجارة النبيذ وكون ثروة طائلة .

الفصـــل الثالث
تقييم عام لدور أوغسطس

قبل الحديث عن مجالات إنجاز تلك الشخصية الفريدة فى التاريخ القديم ، يجدر بنا أن نعرض لما كتبه كبار المؤرخين حول دور تلك العبقرية فى ذاك الزمان الذى تنفس الصعداء بمجرد أن بدأ ظهور أوغسطس على الساحة العالمية ، ووضع الأمور فى نصابها فى الشرق وعقب موقعة أكتيون (Aktion) عام ٣١ ق.م ، « **ذلك لأن العالم ، بحلول عام ٣١ ق.م كان قد مضى عليه ١١٨ عامًا ، عانى خلالها الآلام والويلات ، حتى بدا كما لو أن المجتمع الإنسانى يوشك أن يلتقط أنفاسه الأخيرة ، وفى تلك اللحظة ظهر سلام أوغسطس ، على حين بغتة ، فمنح الحضارة الهيلينية فرصة أخرى للحياة** »(١) .

إن أرنولد توينبى يؤكد دائمًا على دور أوغسطس الهام فى عملية إحياء التراث الهيلنى وفى قيام « تعايش سلمى » حقيقى بين الإمبراطوريات الثلاث المحبة للهيلينية فى ذلك الوقت ، وكانت هى : الإمبراطورية الرومانية ، وهى أقواها وأخطرها تأثيراً على السياسة العالمية ، ثم الإمبراطورية البارثية فى العراق وإيران وآخرها إمبراطورية كوشان فى الهند (٢).

وفى معرض حديثه عن شخصية أوغسطس مقارنًا إياه بسلفيه قيصر وبومپى قال توينبى:

" ومما يذكر أن أوغسطس لم يكن كفؤاً لوالده المتَبَنِّى له ، فى مضمار العبقرية ، ولكنه كان يمتاز عن كل من قيصر وبومپى فى أنه كان يحظى بتلك المواهب ذاتها التى كان ينشدها العصر فى المُخَلِّص المنتظر للمجتمع الإنسانى ، لقد كان بومپى ممن تعوزهم الحنكة السياسية . أما قيصر ، فكان كريمًا مع أعدائه المغلوبين ، ضائقًا ، متبرمًا فى الوقت ذاته ، بتلك النظم السياسية ، التى كانت تحظى بالاحترام والتقديس ، رغم مجافاتها لروح العصر . وكان هذا الخلط الذى لاتحمد عقباه ، بين خصال متنافرة ، خليقًا بأن يكلف قيصر حياته ، **أما أوغسطس فكان يعلم كيف يسرع ولكن فى تَرَيُّث ، وكيف يتراجع دون أن يريق ماء وجهه ، ومن ثم**

١ - أرنولد توينبى : تاريخ الحضارة الهيلنية ، الألف كتاب (٤٥٨) ، ١٩٦٣ ، ص ٢١٣ .

٢ - عن علاقات الإمبراطوريات الثلاثة : انظر توينبى ، المرجع نفسه ، ص ص ٢١٤ - ٢١٦ .

فقد توفى وهو طريح الفراش وخلّف وراءه نظامًا جديداً ، بقى بعد وفاته عام ١٤ م ، ٢٢١ سنة أخرى " (١).

إننا بالنظر إلى قائمة سلطات أوكتافيوس ، بعد اتفاقية ١٣ يناير عام ٢٧ ق.م ، - والتى كانت بمثابة « صفقة ترضية » بين الحاكم الأوحد ، الذى تنازل عن سلطاته الاستثنائية السابقة فى مقابل صلاحيات دستورية جديدة ... وعلى رأسها انفراده بالسلطة العسكرية وقصرها عليه فقط - نستطيع أن ندرك مقومات تلك الشخصية وأهدافها الدقيقة المرسومة بعناية ، والتى جاءت خطوة خطوة ، وتنم عن رجل لا يقل براعة وحنكة سياسية عن قدرته كقائد عسكرى كبير .

لقد ذهب سالمون (Salmon)(٢) إلى أبعد من هذا ووصف أوغسطس بأنه كان انتهازيًا بطبعه ولديه مخطط طويل المدى للاستيلاء الهادئ والتدريجى على الدولة .

ويرى چونز (Jones) أن جماهير أوغسطس التى اعتمد عليها فى ثورته ، كانت الطبقة المتوسطة ، ذات العواطف والمشاعر الجمهورية القديمة ، ولهذا سلح نفسه بالسلطة التريبونية (Tribunicia) من أجل حماية ورعاية تلك الطبقة ، وذلك كقوة جديدة ، كبيرة العدد يمكن أن تكون قوة ضغط وإنذار للطبقة الأرستقراطية (patricii) .

ويضيف چونز بأن أوغسطس ، قام بتمثيلية كبرى(٣) ، عام ٢٣ ق.م ، لكى يحصل على السلطة التريبونية هذه عندما تظاهر بالانسحاب فى وقت عصيب ، وهو يعلم مدى حاجة السناتوس إليه . وفى رأى جونز ، فإن أوغسطس قام بهذه التمثيلية السياسية لسببين : الأول هو أن يتخلص من الاتهام بأنه يهدف إلى السيطرة الكاملة على السلطة ، مما قد يؤدى إلى تدبير المؤامرات للتخلص منه ، كما حدث من قبل مع يوليوس قيصر والده الذى تبناه ، والثانى ، لكى يعود أقوى مما كان ، كفرصة مناورة جديدة ، يستغلها لصالحه أفضل استغلال ويضيف معها سلطات جديدة إلى نفوذه .

---

١ - المرجع السابق ، ص ٢١٧ .

2 - Salmon, E.T, " The Evolution of Augustus, princi pate Historia, vi (1956), pp. 456 - 459, 470 - 478 .

٣ - قدّم الأستاذ الدكتور / سيد الناصرى عرضًا طيبًا لآراء الكثير من الدارسين المتخصصين فى هذا الموضوع مع ببليوجرافية كافية ، انظر كتابه : تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى ، القاهرة ١٩٨٥ (الطبعة الثانية) ، ص ٢٦ - ٢٧ .

لقد حرص أوغسطس أن يسجل فخره بأنه « نودي بي قائداً أعلى (إمبراطوراً) منتصراً » (Appellatus sum vicıns) واحداً وعشرون مرة وذلك منذ عام ٤٣ ق.م ، واتخذ هذا المنصب (Imperator) كصفة دائمة ، وكأول اسم من أركان اسمه الثلاثي ، أي في مكانة Praenomen منذ عام ٣٨ ق.م ، واعتبر أوغسطس هذا اللقب حقًا مكتسبًا له بصفته قائداً أعلى ، يمسك في يديه أعلى سلطة في البلاد هي سلطة Imperium وغدت لفظة "Imperator"[١] ، ومدى تمسك أكتافيانوس بها حتى نهاية حياته ، هي دليل حرص هذا القائد العسكري على أن يمسك بزمام الأمور كلها في الإمبراطورية ، ويتضح هذا الحرص الشديد في تمييز هذه السلطة بإضافة صفة maius أي « الأعلى » إلى كلمة " Imperium" حتى يمكن التفريق بينها وبين سلطات القناصلة وحكام الولايات الذين كانوا يحملون سلطة الإمبريوم ، وفقًا للدستور الجمهوري القديم .

ويعلق الأستاذ الدكتور / سيد الناصري على حرص أوغسطس الشديد في ألا تنتقل هذه السلطة الخطيرة إلى أي شخصية أخرى غيره ، فيقول :

" وقد حرص أوغسطس على ألا يسلم هذه السلطة على الإطلاق ، فعندما كادت مدة سريانها أن تنفذ في عام ١٨ ق.م ، جدّدها لمدة خمس سنوات أخرى في عام ١٣ ق.م ، ثم أصبح يجدد مدتها كل عشر سنوات إلى أن مات "[٢] .

أوغسطس والسناتوس :

أولا : لما كان السناتوس (Senatus) ، ورجالاته هو مركز الإدارة السياسية وهم أصحاب النفوذ الرئيسي في تسيير دفة الأمور الداخلية والخارجية زمن الجمهورية ، فإن أوغسطس حرص كل الحرص على ألا يَدْخل في صدام معها ، بل لابد له من إيجاد السبيل إلى ترضيتها بالشكل الذي لا يتعارض مع طموحاته السياسية التي يُخطط لها بعد أن وصل إلى قمة الانتصار العسكري والفتوحات الخارجية بضم مصر إلى أملاك الشعب الروماني .

إننا لن نكون مبالغين إذا قلنا ، باديء ذي بدء ، أن الإمبراطور كان غاية في الحذر والدقة عندما بدأ يخطط لدخوله عالم السياسة ، فكان لا يعلن ، صراحة ، عن نواياه منذ اللحظة

---

١ - هذه الملكة مشتقة من الفعل (Imperare) : أمر ، أصدر أمراً ، وبالتالي فإنها مرتبطة بالقيادة العسكرية بينما المقابل اليوناني هو كلمة (autokrator) : أي الحاكم بأمره (حرفيًا : الماسك لزمام الأمور بنفسه) .

٢ - المرجع السابق ، ص ٣١ .

الأولى ولكنه كان كيّسًا ومثابراً وسار على سياسة الخطوة - خطوة لتحقيق وجود قوى ومؤثر فى الساحة السياسية لصنع القرار داخل روما .

ولهذا تستطيع أن تلاحظ ، أيها الدارس ، أن أوغسطس ، مثلاً ، لم يعلن عن نيته فى ضم مصر إلى أملاكه الخاصة ، إلا بعد أن عاد إلى روما قادمًا من الشرق ، وبد أن تم عقد صفقة الترضية بينه وبين السناتوس ، الذى أتى به ، مرة ثانية ، إلى الأضواء وأعطاه حقوقه التقليدية القديمة ، ولكن فى حدود ممارسات معينة تحت سمع وبصر الإمبراطور المنتصر ، الأوحد والذى لا منافس له آنذاك . وهكذا كان أوغسطس تقليديًا فى حرصه على الشكل الدستورى والإطار القانونى لكل إجراء يقدم عليه . ولكنه بمجرد أن اتفق مع السناتوس على ترضية عام ٢٧ ق.م ، عندئذ أعلن عن رغبته الخاصة فى ضم مصر إلى أملاكه هو ، ولا تتبع أمـلاك السناتوس من الولايات (provinciae) الخارجية . إنه هو تلك الشخصية الطموحة القادرة ، والعاقلة فى نفس الوقت التى كانت تتخذ من أعظم شخصيات الماضى نموذجًا لها تحتذيه إنه هو الذى قال يومًا : « لقد جئتُ لأرى الملك ، لا لأرى صفًا من الجُثَث[١] » ، وذلك عندما حرص فى عام ٣٠ ق.م، أن يرى تابوت الإسكندر الأكبر ، فى مقبرته ، التى كان قد نُقِل إليها من ممفيس (Memphis) بعد فترة وجوده فيها ، عقب وصول رفاته من بابل ، وحَرَق جثمانه هناك [٢].

إنه ، أى أوغسطس ، هو الذى قرأ ، عام ٢٩ ق.م - كما قال - ما كتبه ڤرجيل (Virgilius) - فى آخر القصيدة الأولى من رعوياته الهيرة من دعاء له حتى توفقه الآلهة لإنقاذ العالم من مصائبه .

« يا ألهة الأسلاف ، ويا أيتها الآلهة المحلية : رومولوس وأمّنا الإلهة ڤسْتا ، أنتم يا من تحرسون نهر التَيْبَر وتل البلاتين فى روما ، لا تحرموا هذا الرجل الشاب ، على الأقل ، من أن يُنقذ عالمًا ، انقلبت فيه الأمور رأسًا على عقب » [٣].

---

1 - Dudley, D., Roman Society, (Penguin Books), 1970, p. 141 .

٢ - لمزيد من المعلومات حول هذه القضية : حرق أم دفن لجسد الإسكندر الأكبر ، راجع كتابى : قبر الإسكندر الأكبر ، احتمالات موقعه وشكله ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

3 - Dudley, op. cit.

إنه ليس ببعيد ، أن تكون هذه الصرخة الواقعية من شاعر كبير مثل فرجيل ، والتى تعترف بسوء الأوضاع فى العالم الرومانى والتى يدعو معها الآلهة ، ألا تحرم أكتفيانوس من أن ينقذ هذا العالم مما هو فيه ، أن تكون قد فعلت فعل السحر فى نفسية طموحة ، كنفس هذا القائد المنتصر ، بلا منافس ، وجعلته يفكر جديًا فى أن يكون ذلك المنقذ والمخلص لهذا العالم مما هو فيه .

فماذا فعل هذا الرجل وكيف كسب ثقة كل الأطراف دونما الدخول فى مواجهة مع أي فئة من فئات المجتمع المجتمع الرومانى القديم ؟ .

هنا أستعير كلمات العالم الإنجليزى دونالد دادلى D.Dudley الذى أدرك سر عظمة تلك الشخصية ، التى قلما يجود التاريخ بمثلها لما جمعت بين العقلية العسكرية والمهارة السياسية، وهما نقيضان فى تعامله مع الواقع .

كتب دادلى يقول :

" In the jungle of Roman power-politics survival depended on personal qualities the political gifts of Octavian were of a very high order ... He was a good judge of men .

Above All, he had what Caesar lacked, an acute sense of the emotive power of words, titles and slogans . It was this that made him such a master of propaganda. This same quality was to be used in a subtler form in the constitutional sittlement he devised for Rome "(١) .

---

1 - Op. cit., p. 143 .

الباب الرابع

خلفاء أوغسطس

أولاً : تيبريوس (Tiberius) (١٤ - ٣٧ م)

قبل الدخول فى السير الذاتية لمجموعة من الأباطرة الذين شاءت الظروف أن يكونوا فى طريق القدر الملكى فحملهم إلى عرشه ، دون أن يكونوا قد حلموا بذلك ولو للحظة ، لأنه « حتى ولا فى المنام » ، كان يمكن أن يخطر على بال أحدهم أن يصبح يومًا إمبراطوراً على مائة مليون مواطن فى مملكة مترامية الأطراف شرقًا وغربًا ، نجد لزامًا علينا أن نقدم للدارس قائمة بهم وبمدد حكمهم للإمبراطورية وبمدى علاقتهم بالمؤسس الأول للنظام الجديد « حكم المواطن الأول » . « برنكيباتوس : Principatus » ، مع حرصنا على عدم الدخول فى هذا العرض الموجز لتاريخ الإمبراطورية فى تفاصيل علاقات أشخاص تلك الفترة بعضهم ببعض ذلك **لأننا لا نؤمن بأن التاريخ القديم هو تاريخ سير وحياوات أشخاص ، بل هو دراسة لعلاقة الأحداث وللقوانين التى تحكم وقوعها والآثار المترتبة على ذلك سلبًا كان أم إيجابًا ، ثم إعطاء صورة تقريبية لما كان عليه الوضع فى مكان ما وزمن ما لسبب ما وبكيفية ما** (انظر التمهيد) .

ولهذا فإننا لن نتناول خلفاء أوغسطس كما تعود البعض تحت المسميات « الأسرة اليوليوكلاودية » أو « الأسرة الفلافية » ، طالما سنقدم فقط قائمة بأسمائهم وعلاقتهم وكفى، وللأسباب التى قدمناها آنفًا .

قائمة بأسماء خلفاء أوغسطس (القرن الأول الميلادى)

علاقته العائلية	مدة الحكم	اسم الإمبراطور
		الأسرة اليوليوكلاودية
- تَبَنَّاه الإمبراطور أوغسطس	١٤ - ٣٧	تيبريوس -Tiberius
- ابن جرما نيكوس ، الابن الأكبر لدروسوس : الأخ الأصغر للإمبراطور تيبريوس	٣٧ - ٤١	كاليجولا -Caligula

علاقته العائلية	مدة الحكم	اسم الإمبراطور
- الأخ الأصغر لجرمانيكوس- الأخ الأصغر لجرمانيكوس	٤١ - ٥٤	كلاوديوس Cluadius
- تبناه كلاوديوس . كان ابن أجريبينا ، بنت جرمانيكوس .	٥٤ - ٦٨	نيرون Nero
- حاكم إسبانيا (Hispania)	٦٨ - ٦٩	عام الاضطراب : جالبا Galba
- حاكم لُوزيتانيا (Lusitania) ومرشحًا لقيادة الحرس البرايتورى	٦٩ م	أتو Otho
- حاكم ألمانيا السفلى .	٦٩ م	ڤتيليوس Vitellius
- قائد جيش رومانى فى مملكة يودايا (Judaea) يوديا فى فلسطين	٦٩ - ٧٩	الأسرة الفلافية : ڤسپاسيانوس Vespasianus
- الابن الأكبر لڤسباسيانوس	٧٩ - ٨١	تيتوس Titus
- الإبن الأصغر للإمبراطور ڤسباسيانوس	٨١ - ٩٦	دوميتايونوس Domitianus

الإمبراطور تيبريوس :

لم يشأ أوغسطس أن يسمى ويعلن نائبه على عرش الإمبراطورية الرومانية ، ولكن المواقف أكدت أن تيبريوس كان هو ذلك النمط من الرجال والحاكم الذى كانت الإمبراطورية تحتاجه فى ذلك الزمان ، بالرغم مما قيل عن شخصه وذكرته تواريخ السير .

قال سويتونيوس أن أوغسطس - عندما كان على سرير المرض ، ولم يكن مقتنعًا تمامًا بشخصية خليفته ، قال - بمجرد خروج تيبريوس من حجرة نومه ، آسفًا « مسكين هذا الشعب الرومانى ، الذى سوف تَطْحنه ببطئ شديد »(١) .

وعن شخصية تيبريوس ، فإنه لم يكن رجلاً محبوبًا (٢).

ولكنه كان رجلاً يتمتع بإحساس قوى جداً بالواجب واستطاع خلال السنوات الأولى من حكمه أن يدعم أركان الإمبراطورية تدعيمًا قويًا فى الناحية الاقتصادية والإدارية ، التى كان أوغسطس قد وضع قواعدها .

ولما كانت أعمال تيبريوس لا تصل إلى درجات المجد والعظمة لأنه سار على نهج أوغسطس وكفى ، ولا يرتفع فى إنجازاته قدر علو إنجازات أوغسطس (أبو الوطن : pater Patriae) ، فإننا لا نسمع عنه كثيراً ، وحتى عندما تظاهر بضرورة عودة جرمانيكوس - ابن أخ الإمبراطور تيبريوس - من ألمانيا عام ١٦ م اعتبرت الأوساط الرومانية السياسية هذا العمل بأنه ليس إلا غيرة شديدة من الإمبراطور على ابن أخيه وعلى انتصاراته وشعبيته .

---

1 - Suetonius, Twelve Caesars, Tiberius, 21 . " miserum populum Romanum, quisubtum, Lentis maxillis erit" .

٢ - حول هذا الجانب من شخصية تيبريوس - ولا سيما بعد أن أصبح إمبراطوراً ، كتب أرنست ماسون : الإمبراطور الرهيب " تيبريوس " ، تعريب جمال السيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ، مادة سرد لحياة هذا الإمبراطور كما جاءت عند بعض معارضيه من معاصريه أمثال سويتونيوس وتاكيتوس اللذان تحاملا عليه كثيراً ، ومن هذه الإدانات ، والاتهامات ما كتبه المؤلف إذ يقول (ص ص ٥ - ٦) : « كان طاغية منحرفًا سفاكًا للدماء ، وكان يعذب خصومه عذابًا رهيبًا ... وكان جشعًا للمال ... كان قصره يعج بالجوارى والسبايا والغلمان وكان شاذاً فى علاقته بهم ... وقد قضى أعوامه الأربعة عشرة الأخيرة فى جزيرة كابرى ، مستمتعًا بالجنس والعذاب وسفك الدماء . ولكنه ترك إمبراطوريته مستقرة وموطدة الأركان ، حتى لقد قال عنه المؤرخ موستيفن إنه كان أقدر حاكم للإمبراطورية الرومانية على وجه الإطلاق » .

لقد أساءت السلطات الرومانية كثيراً إلى سمعة تيبريوس ، بوجه خاص ، كما لم تفعل مع أى إمبراطور رومانى آخر فنجد سويتونيوس ، مثلا ، فى تاريخه المعروف(١) قد ذكر عن حياته أشياء كثيرة سيئة للغاية(٢) ، بينما تاكيتوس بالرغم من أنه كان أكثر دقة فى عرضه للحقائق ، إلا أنه ، هو كذلك قد أضر كثيراً بسمعة تيبريوس عندما حاول تفسير تلك الحقائق، وليس السبب فى هذا الحقد على الإمبراطور ببعيد عن الفهم أو صعب على الإدارك ، إن تيبريوس فى محاولته اقتفاء أثر أوغسطس والسير على نهجه ، كانت تعوزه الوسائل لتحقيق ذلك ، ولا سيما فى علاقته برجال السناتوس . وكان هذان المؤرخان من نفس ذات طبقة الأرستقراطيين التى ينتمى إليها أعضاء السناتوس ، ليس إلا شكلاً من أشكال النظام الدكتاتورى ، فى ممارساته الفعلية .

حاول تيبريوس جاهداً أن يُهدِّئ وأن يُرضى مشاعر المحافظين من فئات الشعب الرومانى ، ولذلك اقترب الإمبراطور من السناتوس ، وحاول أخذ رأيه واستشارته فى أمور هامة كثيرة ، بما فى ذلك الشئون العسكرية ، وإن كان القرار - من وجهة النظر الدستورية وفقًا لنظام المواطن الأول الذى وضعه أوغسطس - فى يد الإمبراطور نفسه ، هذا من ناحية ، إلا أن ترفه وسلوكه ، من ناحية أخرى كان عكس ها الاتجاه ، فقد أقام وسكن فى مقر السناتوس نفسه ، مما زاد شك أعضائه فى نوايا الإمبراطور فجاء التناقض والتضارب واضحًا جليًا ، مما أوغر صدر السناتوس ضده (٣).

ويُعقب بعض متخصصى التاريخ الرومانى بقوله :

" He would have been for wiser to have dealt with important problems himself, as Augustus had done , and left to the senate only those questions which were trivial enough to demand his presence during the debate " (٤) .

---

١ - انظر: Suetonius, Twelve Caesars, S.V. Tiberius:

٢ - راجع الصفحة السابقة هامش (٢).

3 - Tacitus, Annals, 1. 46: " Tiberium sedere in senatu, verba patrum cavillantem" .

4 - White-Kennedy, Roman History, life & literature, London 1942, p. 124 .

أى أنه كان يجب على تيبريوس أن يكون أكثر حكمة فى تعامله مع السناتوس ، فيحتفظ لنفسه بالمشاكل الهامة ، يضع لها هو الحلول بنفسه ، بينما يترك الأمور المعقدة كلها للسناتوس ، حتى يتطلب الموقف وجوده بينهم أثناء المناقشات ، وبالتالى يعطيه الفرصة على استمرار التواجد بين أعضاء السناتوس لمعرفة اتجاهاتهم وآرائهم فى كل موضوع .

إنه من الواضح تمامًا أن المؤرخين المعاصرين ، ومنهما سويتونيوس وتاكيتوس ، قد تأثرا بالفعل ، وربما قاما بإيعاز من السناتوس ، بتشويه صورة الإمبراطور تيبريوس عن عمد ، وإشاعة المبررات السيئة وراء كل تصرف لهذا الرجل لدرجة أنهما وصفا امتعاضه عندما تسلم مقاليد الأمور فى النظام الأوغسطى ، بأنه كان مجرد نفاق وتملق لهذا النظام ، أى أن تيبريوس لم يكن مقتنعًا به[١] .

ولكن الواقع - فى الغالب - كان غير ذلك ، فقد قبل تيبريوس هذه المسئولية ، وهو جزع من هذا العبئ الكبير ، لإدارة إمبراطورية من داخل مكتب رئاسى أو قصر فخم ، فى الوقت الذى كان يريد أن يُبعِد هو نفسه عن كل شئ تاركًا كل مناصبه ، وذهب بالفعل إلى جزيرة رودس (Rhodus) للاستجمام [٢].

ولما كان تيبريوس شكاكًا بطبعه ، فإنه أعطى كل ثقته لأحد المقربين إليه وهو رئيس الحرس البرايتورى ، سيانوس (Sejanus) ، الذى كان سببًا فى تسميم علاقة الإمبراطور ، ليس فقط مع السناتوس ، بل أيضًا مع أسرة الإمبراطور نفسها .

وحول مصرع القائد الرومانى الشاب جرمانيكوس ، ابن أخى الإمبراطور تيبريوس ، فإننا لا نملك دليلاً قاطعًا على إدانة الإمبراطور كما ادعت زوجته أجريبينا (Agrippına)[٣] ، التى أشاعت أن جرمانيكوس ، زوجها ، قُتِلَ مسمومًا فى إحدى الولايات الشرقية بإيعاز من الإمبراطور ، تيبريوس نفسه .

---

1 - Suetonius, de vıta Tıberıı, 24 : " Quası coactus et querens miseram et onerosam ıniugi sıbi servıtutem recepit ımperıum " .

٢ - ماسون ، الإمبراطور الرهيب « تيبريوس » تعريب جمال السيد ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص ٥٧ .

٣ - أجريبينا : هى بنت أجريپا (Agrippa) ، أقرب المقربين إلى أوغسطس والذى كان قد تزوج من يوليا (Iulia) ، بنت أوغسطس .

وعندما مات الوريث الشرعى لعرش الإمبراطورية ، وهو دروسوس (Drusus) الأصغر ، بن تيبريوس قبل الإمبراوور أن يتبنى أولاد جرمانيكوس ، مما أوغر صدر صديقه الماكر سيانوس ، الذى حاول تشويه سمعة أمهما أجريبينا ، واتهمها بالفعل بأنها تآمرت لقتل الإمبراطور واستطاع - تبعًا لذلك - أن يقنع الإمبراطور الذى عاقبها هى وأبنتها (اللذين كانا يستعدان لخلافة العرش) فى عام ٢٩ م بأن نفاهما خارج البلاد ، هكذا كان سيانوس مع الإمبراطور تيبريوس ، الذى وثق فيه حتى أنه أعطاه سلطة الإمبريوم البروقنصلية ، وكان طموحه كبيراً جداً ، وهو أن يصبح يومًا ما وريث العرش .

ولم تمض سوى سنتين اثنتين على هذا النحو ، حتى فتح تيبريوس عينيه على ما يجرى حوله وبالذات مخططات سيانوس صديقه الذى يثق فيه ثقة عمياء . ولجأ الإمبراطور - لأول مرة - إلى أمانة وإخلاص حرسه البرايتورى ، دون علم سيانوس ، وأرسل خطابًا إلى السناتوس أعلنه فيه قراره النهائى بعزل سيانوس ومحاكمته ، والتى انتهى فيها السناتوس إلى قرار حاسم بإعدام سيانوس ، ولكن سيانوس قد سبق تنفيذ الحكم وانتحر من شدة الضغوط النفسية والعداء الشعبى .

بعد ذلك ، لم يثق تيبريوس فى أحد وزاد ، بالطبع ، شكه فى كل من حوله ، وازدادت أنشطة الوشاة المخبرين الذين كانوا يطمعون فى مكافأة الإعلان عن المؤامرات ضد العرش[١] وهكذا امتلأت روما بالرعب والخوف من عقاب التآمر وكانت جريمة الخيانة (Maestas) ، وعقوبتها الإعدام ، تحوم حول كل من تصل عنه وشاية مهما كانت بساطتها .

حاول تيبريوس أن يُكفِّر عن خطاياه ضد أسرة جرمانيكوس فنقل إلى قصره فى جزيرة كابري ، الإبن الثالث لذلك القائد . وكان هو الولد الوحيد الذى بقى من أجريبينا ، والتى ماتت جوعًا هى وأولادها الاثنان فى سجون تيبريوس ، بسبب وشاية سيانوس ، كما عرفنا من قبل . كان هذا الابن هو جايوس كاليجولا (Caius Calligula)[٢] .

---

١ - وكانت المكافأة التى حددها الإمبراطور ربع تركة المتآمر ضد الإمبراطورية .

٢ - هو اسم شهرة لهذا الغلام الصغير ، وكان جنود جرمانيكوس هم الذين أطلقوه عليه ويعنى « الحذاء الصغير » ، لأنه كان يلبس الزى العسكرى طفلاً .

وفى أواخر سنوات حياته ، انتشرت الشائعات حول أخلاقيات القصر الإمبراطورى فى كـــــابرى (Capri) وكثر الهمس واللمز فى أوساط الطبقة الأرستقراطية فى روما حول التجاوزات اللاأخلاقية والتناقضات فى شخصية تيبريوس نفسه .

ويقول د. سيد الناصرى [١] عن « عقدة الخنق المكبوت » فى شخصية تيبريوس وطفولته البائسة ونفسه المجروحة : « لقد كان يعرف أن وصوله إلى الحكم لم يكن إلا صدفة ، ونتيجة لتدخل القدر ، لأنه كان آخر من فكر فيهم زوج أمه أوغسطس خاصة عندما استمع إلى الفقرة التى جاءت فى وصية أوغسطس والتى تقول : « **مادام الحظ العاثر قد نزع منى ولدىّ جايوس ولوكيوس ، فليصبح تيبريوس قيصر خليفة لى** »[٢] .

إن قراءة أخرى ، عند مؤرخين آخرين للتاريخ الرومانى ، تظهر لنا عكس ما عرفناه عن هذا الإمبراطور عند سويتونيوس وتاكيتوس إنه - عند پلينيوس الأكبر [٣](Plinius Maior) ، كان حقًا « **أتعس الناس : Tristissimus hominum** » ، وفى هذا الوصف لتيبريوس ، نحس روح الأديب وحساسيته الإنسانية المشاعر ، بينما نحس عند سويتونيوس وتاكيتوس بنفوس حاقدة عليه ، لها أهدافها الواضحة فى تدمير شخصية الإمبراطور وسط شعبه .

وإذا كان لنا ، إحقاقًا للحق وإنصافًا لهذا الإمبراطور أن نرد على اتهام غلاة المسيحية فى العصور الوسطى له ولحكمه بأنه قصّر فى حق المسيح الذى ظهر فى عصره ، ولم يفعل تيبريوس شيئًا إزاء إنقاذه من براثن اليهودى فى يهوذا (Judaea) فإننا لا يمكننا أن نُحَمِّل الإمبراطور هذا الوزر ، لأنه - فى الغالب - لم يعرف شيئًا مؤكداً عن حقيقة المسيح ، على أكثر تقدير ، فإنه إن عرف شيئًا فمن المؤكد كان ذلك مشوهًا على أن المسيح عدو للديانة الرومانية وبالتالى كان رد الفعل التجاهل التام من قبَل روما . **ولكن الحقيقة الثابتة - حتى الآن - هو أننا لا نملك أى دليل من أى نوع لاتهام الإمبراطور شخصيًا بالقصور أو حتى لتبرأته من المساهمة فى عمل ما ضد المسيح وإخفاء مثل هذا الدليل عن عمد وقصد .**

---

١ - تاريخ الإمبراطورية الرومانية . دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ ، ص ١٣٢ .

2 - Suetonius, Augustus, 106; Tiberius, 23.1 .

3 - Pliny the elder, letters, 79 .

ونتنقل إلى نقطة أخيرة حول ما أثير ضد تيبريوس وهو بخله الشديد وأنه كان مقتراً فى الإنفاق العام ، مما جعله مكروهًا لدى غالبية سكان روما . عندئذ نقول أن تيبريوس كان – من ناحية أخرى – محبوبًا من سكان الولايات ، لأنه حاول كثيراً أن يُخَفِّف عنهم عبئ الضرائب .

وخلاصة القول ، أن تيبريوس ، بسبب ما أصابه فى سنوات حكمه الأخيرة من شك دائم وزيادة نشاط المخبرين (delatores) إعمالاً لقانون « الخيانة العظمى » (lex de Maies-tate) ، وإجبار السناتوس على أن يشارك فى هذه اللعبة القذرة للحكم فى محاكمات الخيانة ، خلق جواً من الفساد والخوف والذعر بين الناس جميعًا ، حتى أنهم تنفسوا الصعداء عندما سمعوا خبر وفاته فى ١٦ مارس سنة ٣٧م ، ولم يستطيعوا إخفاء مشاعرهم . أن تيبريوس ، برغم بعض نواياه الحسنة ، لم يكن من الأباطرة الناجحين[١] .

ثانيًا : كاليجولا (Gaius Caligula) « ٣٧ - ٤١ »

للمرة الثانية يلعب الحظ لعبته ويصر القدر على موقفه ويأتى إلى العرش الإمبراطورى بشخص كان يعيش دائمًا فى خوف مستمر على حياته من أن يذهب – هو الآخر بعد أمه وأخويه الاثنين – ضحية مغالاة الإمبراطور تيبريوس فى شكه فيمن حوله ... ولكن الآن ، وقد مات تيبريوس ، فربما أحس الفتى بعض الراحة والاطمئنان ... لعل هذا المكسب – فى حد ذاته – هو أغلى وأفضل هدية منحها له القدر ، على حد تقديره طبعًا .. ولكن ما بالنا بتطورات الأمور .

تشاء ظروف المحيطين بالقصر ورجالات روما أن يفضلوا ذلك الخائف ، المذعور ، ابن أجريبنا الثالث من جرمانيكوس ، على ابن الإمبراطور نفسه جيميلوس (Gemellus) ويعضد هذا الاختيار رئيس الحرس الإمبراطورى ماكرو (Macro) ، وذلك لإغلاق الباب على كل ما كان قد أثير حول أسرة تيبريوس كلها من لا أخلاقيات مزعومة .

لقد تأكد الآن ولأول مرة من أن قيادات الحرس البرايتورى هم صناع الأباطرة على عرش روما .

---

1 - Sinnigen , W.& Book, A., A History of Rome, 6th edition New York , London, 1977, p. 287 .

ولكن هيهات لهؤلاء القادة العسكريين أن يبقوا علي هذا الحال مع شاب لا مبادئ عنده ولا خبرة وذى نفس محطمة ، ومضطرب عقليّا[1] إنه فى عام ٣٩م ، تم تحول هام فى سياسة كاليجولا الذى كون قوة ، باعتباره إمبراطوراً ، معارضة لكل سياسات السناتوس . وما أكثر المفاجآت بعد ذلك ، فقد ثبت للإمبراطور قيام أحد الذين يثق فيهم - وهو حاكم ألمانيا العليا- بعمل مؤامرة ضد العرش ، وتوالت المؤامرات مما أجبر الإمبراطور كاليجولا على القيام باعتقالات واسعة وإعدام الكثيرين وتعذيب أعداد كبيرة من الشخصيات الهامة من المجتمع الرومانى فى روما [٢].

وعندما تحول عن بعض مشروعات حملات ضد الألمان والإنجليز فى الولايات الشمالية رجع إلى روما عام ٤٠م ، وعبر صراحة عن تغيير نظام الحكم الأوغسطى الذى ورثه ، وكان يبغى قيام نظام أوتوكراتى (autocratic) ، على غرار نظام حكم الفرد المطلق فى اليونان . وكذلك وجد فى انتظار سفارتين للسكندريين واليهود فى انتظار رده حول اتهام كل منهما للآخر بسبب الفتنة التى وقعت بينهما منذ عام ٣٨م وقيام الوالى الرومانى على مصر ، آنذاك ويدعى فلاكوس (Flaccus) بمحاباة السكندريين ضد اليهود .

هنا جدير بالذكر أن نعرف أن هذا الإمبراطور المخبول تحامل هو الآخر على اليهود ، لأنهم رفضوا أن يألهوه ، وكان أن وصفهم بأنهم : « **قوم كفرة لا يؤمنون بألوهيته التى آمن بها غيرهم من الناس** » ، ثم راح يتحداهم ويسألهم عن سبب رفضهم لأكل لحم الخنزير ، مما أربك اليهود وأسكتهم وصرفهم قائلاً :

« يبدو لى أن مَن تَبلُغ بهم الغَبَاوة حَداً لا يؤمنون مَعَه بألوهيتى ، هم أجْدَر بالرثاء منه بالعقاب »[٣] .

وفى عام ٤١م ، ازدادت المؤامرات من حول شخص الإمبراطور وقام بأغلبها ضباط من الحرس البرايتورى الذين اعتبروا تأييدهم السابق له كان مخاطرة سيئة ، وقررت مجموعة منهم، على رأسها أحد حراسه ويدعى « كاسيوس خايريا » ، قتله ، وظلوا يطعنوه حتى فارق الحياة .

---

1 - Whit & Kennedy, op. cit., p. 128 .

2 - Grant, M., Op. cit, p. 227 .

٣ - عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ ، ص ١٠٠ .

ولما كان كاليجولا قد انهمك فى ملذاته ورفقاء السوء من أصدقائه اليونانيين والعتقاء الذين أحَلّوا له الرذيلة وحتى الزواج من شقيقته دروسيللا (Drusilla) ، التى رفعها إلى مصاف الآلهة بعد وفاتها ، كل ذلك جلب عليه نقمة غالبية الناس ، فضلاً عن الخراب الذى حَلّ بالأغنياء الموسرين عقب تأميم أملاكهم ووشاية المخبرين عنهم .

إن كاليجولا لم يترك أية بصمة إصلاح فى إدارة الإمبراطورية الرومانية سواء في روما أو فى الولايات ، إلا أمره بتحويل قيادة الفرقة الإفريقية من رتبة بروقنصل إلى رتبة جنرال (legatus) ، يكون مسئولاً مباشرة أمام الإمبراطور [١].

لقد كان كاليجولا وما قام به من مهازل ، وصمة عار فى جبين روما وتاريخها المجيد ، ولذلك كان قرار من نصبوه إمبراطوراً بأن يضعوا حداً لهذه المهزلة ، فطعنوه وقتلوه هو وزوجته وابنته الصغرى [٢].

ثالثا : كلاوْدِيوس (٤١ - ٥٤م) :

للمرة الثالثة - فى مسلسل سخرية القدر من تاريخ روما المجيد - يأتى إلى عرش الإمبراطورية الرومانية فى روما ، رجل أبله ، وغبى ، وجاوز الخمسين (٥٠) من عمره . ولكنه لم يكن يخلو من الحكمة ، وذو إحساس ذكى بالذوق العام وذو خيال واسع لم يتمتع به لا أوغسطس ولا تيبريوس [٣].

كان كلاوديوس ، عم الإمبراطور الراحل ، مضحكة القصر وموضع احتقار كاليجولا ، وقد أمسك به أحد حراس القصر من خلف الستائر داخل غرفة الجريمة عند مقتل الإمبراطور السابق ... وليتخيل القارئ لحظة الإمساك به وقد أخذ يُتهته خوفا على حياته كما رأى بعيني رأسه المشهد التراجيدى المريع . ومرت لحظات ، تبادلت مجموعة الحرس البرايتورى فيها النظرات وفاجأ أحدهم الجميع وتوجه إلى كلاوديوس حاملاً إياه على أكتافه وهاتفا بحياته إمبراطوراً جديداً خلفًا لكاليجولا : فماذا يمكن أن تكون مشاعر هذا الرجل الصامت ، العجوز ، المعوّق ،

---

1 - White & Kennedy, op. cit., p. 128 .

2 - Grant, M., Op. cit, p. 227 .

3 - Whit & Kennedy, op. cit., p. 129 .

الذى أثارت قصة حياته ومماته خيال الأدباء فى كل العصور وراحوا يتخذون من قصته الروايات والسير المسلية دراميًا (١).

وفى وصف دقيق لأخلاقيات المجتمع الرومانى فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ روما [والذى بدأ فى الأفول ، بعد موت المؤسس الأول للإمبراطورية ، أوغسطس ، المؤلة] جاء فى تعقيب الناشر لقصة كلاوديوس والتى كتبها R. Graves (انظر هامش (١) ، ما يلى :

"The action is strange, tragic, and ludicrous for Rome herself under a long-standing curse-the curse of the gods with whom she broke faith when she destroyed Carthage-and has lost all moral self-control, Poison, blasphemy, treachery, incest, black magic, and unnatural vice flourish. Insane Cruelties are committd. And through it all moves the stange, lovable figure of Claudius himself, despised, neglected and apparently ineffective, but destined in the end to become Emperor against His will "(٢) .

ويذكر الأستاذ الدكتور سيد الناصرى كثيراً من أوصافه ، وكثيراً من المراجع حول شخصيته وحياة هذا الإمبراطور ، ويقول (٣):

" كما تمتع كلاوديوس بموهبة عجيبة فى كسب عطف الناس ، فلقد بلاغ سينيكا وتاكيتوس(٤) فى وصفه بالغباء ولكن أعتقد أنه كان يتغابى ولم يكن غبيًا ، وذلك لأنه ظهر فى كثير من المشكلات دبلوماسيًا ماهراً ، ولكن طيبة قلبه هى التى جعلته يتساهل فى بعض الجوانب خاصة مع زوجاته وأصدقئه وموظفيه وعتقائه " .

---

١ - كتب العلامة Robert Graves قصة كلاوديوس وأسماها "Claudius the God" ونشرها لأول مرة عام ١٩٣٤ ، وأعيد طبعها ما يقرب من (٣٠) مرة حتى سنة ١٩٧٩ ، والجدير بالذكر أن التليفزيون البريطانى BBC T.V. أخرج هذا العمل الدرامى الممتاز الذى اعتمد على كل المصادر التاريخية فى كتابته لكل تفاصيل هذه القصة التراجيدية . إنها من أفضل الأعمال الأدبية فى القرن العشرين التى أعادت صياغة التاريخ القديم .

2 - Robert Graves, Claudius the God, Penguin Books, edition 1979, p. 447 .

٣ - تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، دار النهضة العربية ١٩٨٥ (الطبعة الثانية ص ١٥١ - ١٥٢) .

٤ - انظر كتاب الأستاذ الدكتور إسحق عبيد ، معرفة الماضى من هيرودوت إلى توينبى ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٨١م ، ص ص ١٥ - ١٦ ، لتقييم كتابات تاكيتوس التى يشك فيها كثير من النقاد " ... لكنه لم يكن مؤرخًا بأية حال من الأحوال .... وأفقه ضيق للغاية وهو منحاز صراحة لحزب المعارضة فى مجلس السناتو .... والخطورة فى كتابات تاكيتوس أنها تشوه التاريخ .... " .

(أ) السياسة الداخلية :

وقع كلاوديوس ، للأسف ، ضحية جبهتى تأثير على شخصيته الطيبة ، وكانتا هاتان الجبهتان متعارضتين أو بالأحرى متناقضتى التأثير ، وقفت زوجات الإمبراطور فى ناحية وهن مسالينا (Massalina) وأجريبينا الصغرى (Agrippina)(١) وكانتا امرأتين لا خلاق لهما وأزعجتا الإمبراطور كثيراً واستغلتا ضعفه أمامهما ، ثم الجبهة الأخرى المكونة من ثلاثة موظفين عتقاء يديرون شئون القصر وهم :

1 - Narcissus ⟶ ab epistolis:للمراسلات -

2 - Callistus ⟶ a Libellis : وكان قائمًا -

على حفظ الشكاوى والالتماسات الموجهة إلى الإمبراطور من الأفراد العاديين ، ثم :

3 - Pallas ⟶ a rationibus : وكان قائمًا -

على حساب القصر والإمبراطور .

وكانت نتيجة الصراع فى صالح الجبهة الثانية من الرجال الذين استطاعوا إقناع الإمبراطور باتخاذ إجراء ضد مسالينا فأمر بقتلها بعد أن شاع فى روما سيطرة نساء القصر على كلاوديوس(٢) . وعن مسّالينا ودورها فى القصر الإمبراطورى ودسائسها ضد رجالات القصر والمجتمع الرومانى ، كتب تاكيتوس فصلاً كاملاً عنها (٣). لنقرأ هذا الجزء الخاص بوصول خبر مقتل زوجة الإمبراطور إليه :

"Claudius was still at table when news came that Messalina had died; whether by her own hand or anothers was unspecified Claudius did inquire. He called for more wine, and went on with his party as usual " (٣) .

كان ذلك فى سنة ٤٨ م ، وقرر السناتوس بعد ذلك إبعاد كل تماثيل هذه المرأة من الأماكن العامة وكان له ما أراد وكسب جبهة ناركيسوس الجولة ، وكانوا دائمًا ينصحونه بأفكار ماكرة ونصائح سديدة (٤).

---

١ - بنت أجريبينا الكبرى زوجة جرمانيكوس ، القائد الشاب المعروف .

2 - Dio Cassius, IX,2 :

3 - Grant, M. : Tacitus, The Annals of Imperial Rome, Penguin Classics, (revised ed.) 1971, pp. 231 - 251 .

٤ - ونأسف لعدم الحصول على النص نفسه . Ibid, p. 248

أظهر كلاوديوس احتراماً شديداً لسياسة أوغسطس واتخذ لقبه قسماً غليظاً لديه ، كما أظهر تبجيله للسناتوس ولكن القيادات الأرستقراطية ساءها اعتماد الإمبراطور على العبيد والعتقاء فى إدارة شئون الإمبراطورية واتصاله بهم مباشرة ، ولاسيما بعد أن تعارضت ، أكثر من مرة ، مصالح هؤلاء المحرومين وتلك الطبقة المعدومة بتطلعاتها المادية مع مصالح الطبقة الأرستقراطية ورجالات السناتوس . كان كلاوديوس يخطط لوضع نواة لجهاز تنفيذى جديد للإدارة المركزية فى روما على أساس فكرة الدواوين والوزارات ، تقوم على أكتاف طبقة العبيد والعتقاء ، كما عرفنا من قبل بخصوص وظائف الثلاثة مستشارين من الرجال .

وكان الإمبراطور كلاوديوس ، كذلك ، قد وجه ضربة قاسية للطبقة الغنية الأرستقراطية ، فى عام ٤٧م ، عندما أعاد إلى الوجود وظيفة الكنسور (Censor) الرقيب – ووضعها فى يده هو . وفعلاً استطاع أن يوقف بعدها مهازل طبقة السناتوس وتعدياتها على حساب المصلحة العامة ، كما أوقف العمل بقانون الخيانة العظمى (lex de maiestate) الذى أرهب الجميع .

كما اهتم الإمبراطور شخصياً بالشئون القضائية اهتماماً خاصاً ، وسيطر معه أمناء ومديرو الشئون المالية على السلطة الفعلية فى البلاد .

هذا بالإضافة إلى اهتمام خاص بحركة الإنشاء والتعمير فأكمل الإمبراطور بناء جسور المياه العلوية والمجارى (Lacus Fucinus) وافتتح طريق (Via Claudia Augusta) وبنى ميناء أوستيا (Ostia) ، وأشرف على إنشاء الطرق والمرافق العامة – كما ذكرنا – كما قام الإمبراطور بتسهيل إجراءات تفريغ ودخول البضائع إلى روما ، وشجع أصحاب السفن وأعطاهم امتيازات عدة لتوصيل الغلال إلى العاصمة من الميناء . وحرص الإمبراطور ، كذلك على تسهيل توزيع القمح الرخيص على عامة الشعب الرومانى ، وكان ذلك يتم تحت إشراف الإمبراطور شخصياً .

(ب) السياسة الخارجية :

لم يكن كلاوديوس تقليدياً فى إدارته للإمبراطورية الرومانية وعمل ما كان من شأنه تغيير صورة أباطرة الرومان السابقين عليه والذين فقدوا الثقة فى تيبريوس وكاليجولا ، وكان عليه عبء ثقيل ، مما جعله يعود بسياسته إلى سيرة أوغسطس الأولى ، بل وسياسة التوسع الخارجية فى عهد يوليوس قيصر الطموحة التوسعية .

لقد نجح كلاوديوس فى ضم كل من بريطانيا (Britannia) عام ٤٣م ، وكذلك موريتانيا (Mauretania) عام ٤٤م ، وفى عام ٤٦م أبقى على وضع الولايات الصديقة مثل ولاية ثراكى (Thrake) فى شمال اليونان ، وجعلها ولاية رومانية بعد موت ملكها . وكان كلاوديوس فى عام ٤٤م قد اعتبر مملكة يوديا (Iudaea) [يهودا] شبه ولاية رومانية ووضع عليها مسئول رومانى بدرجة "Procurator" .

كما حرص كلاوديوس على قيام علاقات وثيقة مع ممالك البحر الأسود ، وقام بتطهيره من القراصنة (Piratae) ، بهدف تحقيق أكبر قدر من الطمأنينة والأمان لقوافل التجارة البحرية ، فى منطقة القمح الأوكرانى الشهير .

ولم يفرق كلاوديوس بين رومانى روما وبين سكان الولايات فقد منحهم الجنسية الرومانية ، وخاصة شعوب الغال ، وقد عين بعض زعمائهم بالفعل فى مجلس الشيوخ كأعضاء وعاملين ، لهم نفس حقوق المواطنين الرومان فى العاصمة .

والمفاجأة كانت فى رد كلاوديوس على طلب السكندريين بعودة مجلس الشورى إليهم ، وفى رده كذلك على اليهود الذين أثاروا الفتن والاضطراب فى الإسكندرية مرة ثانية ، حيث نجد دليلاً لا يقبل الشك ، على دبلوماسية هذا الإمبراطور ومدى حرصه على مصالح إمبراطوريته وعاصمته على وجه الخصوص ويكفى أن نقرأ بعض الفقرات الخاصة بتلك الرسالة والرد الذى كتبه إليهم باليونانية :

" .... وحيث أن هذا مقترح جديد يثار الآن لأول مرة ولا يتضح إذا ما كان سيعود بالفائدة على المدينة وحكومتى ، فقد كتبتُ إلى أميليوس رِكْتوس (الوالى) ليبحث الموضوع ، ويخبرنى عما إذا كان من الضرورى إنشاؤه أصلاً ، وكيف ستكون طريقة إنشائه إذا تَبَيَّن أنه ضرورى " .

وفى رده على اليهود ، كان قويًا ، عالمًا بكل تفاصيل الصراع ، منذ البداية ، وهو - فى الحقيقة - يحاول ألا يغلق الباب تمامًا - كما فعل فى الموضوع الأول - بل يهدأ الخلاف ولكن يتوعد البادئ بالعدوان ، وينهى رسالته قائلاً : **« ولئن لم يعقلوا لأنتقمَنَّ منهم بكل الوسائل بوصفهم قومًا ينشرون الوباء الشامل فى أنحاء المعمورة . فإن كَفَّ كل منكما عن هذه الأعمال، ورضى أن يعيش فى تسامح وود مع الآخر فسوف أولى من جانبى اهتمامًا للمدينة التى تربطها بنا صداقة تقليدية قديمة »**[1] . وهنا لن أجد غضاضة فى نقل تعليق أستاذى

١ - عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ص ١٠٧ - ١٠٨ .

الكبير عبد اللطيف أحمد على، على هذا الرد ، حيث يقول : **« هذه الرسالة المتزنة التى تنم عن فطنة ولباقة دبلوماسية ، والتى أنصفت كلاوديوس من المؤرخين وغيّرت رأيهم فيه ، لم تُرْض اليهود لأنها قضت على أملهم فى الحصول على مزيد من الامتيازات ، ولم ترض كذلك الإسكندريين لأنها أقرت لليهود حقوقهم وامتيازاتهم القديمة ، وأدهى من ذلك أنها أرجأت البت فى طلب إنشاء مجلس الشورى وهو إرجاء لم يقصد به سوى التخلص من الحرج والتهرب من مطلب لم يكن يتفق ومصلحة الإمبراطور »** (١).

وتجد هذه الشخصية الخيِّرة نهايتها على يد زوجته الأخرى (أجريبينا الصغرى) ، القاسية التى دست له السم فى طعامه حتى تضمن لابنها نيرون (Nero) العرش - وإبعاد ابن زوجها الإمبراطور الطيب ، وكان ذلك فى عام ٥٤م .

رابعًا : نيرُون (٥٤ - ٦٨ م)(٢) :

في أسلوب أدبى جميل ، ملئ بالصور البلاغية ظهر فى الأسواق منذ نوفمبر سنة ١٩٨٦ - كتاب للأستاذ الدكتور محمود متولى جمع فيه مجموعة من طغاة التاريخ القديم والحديث على السواء ،وبدأ مادته العلمية بطاغية الرومان « نيرون » وهاكم بعض فقراته :

" وتعتبر دراسة (نيرون) دراسة لشريحة معينة من الطغيان ... لا تتكرر كثيراً فى التاريخ لما تحمله من شكل القسوة والجمود ... لقد كانت أيام حكمه عذابًا لا ينسى ولحظات سلطانه ذكريات لا تمحى إلى درجة يمكن القول معها أن التاريخ خجل مما فعله ، وأن الشيطان احتقر نفسه لأنه رأى أستاذاً له بين البشر " (٣).

ولكن هذا شئ ودراستنا لهذه الشخصية وغيرها شئ آخر ... إن دراستنا للتاريخ بصفة عامة ، وللتاريخ الرومانى بصفة خاصة هى كما أوضحنا عند پوليبيوس ، فى مقدمة هذه المادة

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

٢ - نيرون (هكذا باللغة العربية فى صيغة الفاعل . لا يقابل الأصل اللاتينى الذى ليس به حرف « ن » = Nero ولكن بقية الصيغ الأخرى المفعول والمضاف إليه الخ بها هذا الحرف فالكلمة قاموسيًا : كالتالى : Nero , Neronis(M.) كان لقبًا لاتينيًا وليس قاصراً على هذا الإمبراطور ولهذا فإننا سنظل نكتب الصيغة العربية المألوفة .

٣ - محمود متولى ، طغاة التاريخ ، كتاب مصر اليوم (١) ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١١ .

العلمية المتواضعة (انظر صفحات٣٢ - ٣٤) ، أو هى كما يقول هيجل بأن التاريخ هو تاريخ فكر وليس تاريخ أحداث ووقائع لكل صغيرة وكبيرة ، **وبالتالى فإن التاريخ ليس سيرة ذاتية للأفراد ، مهما كانت مناصبهم ولكنه سلسلة من العلاقات والتفاعلات بين الأحداث ، فى وقت ما ، وفى مكان ما ، وبطريقة ما ، ولا يمكن لكل أولئك أن يتكرر فى أى لحظة تالية للأحداث أى أن التاريخ لا يعيد نفسه أبداً .**

" فمثلا لمحاولة كتابة تاريخ الصراع السياسى بين الأباطرة الرومان والمعارضة فى مجلس الشيوخ فى القرن الأول ، يحتاج المؤرخ إلى التغلغل وراء الأحداث ليستشف الأفكار السياسية التى كانت تعتمل فى عقل الحزبين المتصارعين ، كما كانت قائمة بالفعل فليس المهم أن نعرف ما قام به الرومان من أفعال ، وإنما الأهم هو أن ندرك ما كانوا يفكرون فيه حتى أقدموا علي هذه الأفعال بالذات" [١].

عندئذ ، يجب علينا [تطبيقًا لمفهوم هيجل لمعرفتنا بالتاريخ وكيف أنها معرفة قَبْلية أولية (APriori) أو هى معرفة حتمية لتطورات لازمة الحدوث][٢] أن نجمع المادة التاريخية من الوثائق لكى نستشف ما وراء هذه الوقائع التاريخية الوثائقية من أفكار معينة ربطت بين تفاصيلها[٣] .

إن هذا هو ما نفعله ونحاول أن نطبقه على موضوعات التاريخ الرومانى الذى ندرسه الآن ، **وبالتالى ليس المهم هو تفاصيل الأحداث السياسية وحياة الأباطرة ، إلا بالقدر الذى يوضح ما وراء الأحداث من أفكار ومبادئ ، فى كل الميادين ، اجتماعية أو ثقافية[٤].**

وصل نيرون إلى العرش الإمبراطورى فى هدوء وذلك بمساعدة مربيه الكاتب الكبير والفيلسوف سينيكا (Seneca) وكذلك رئيس الحرس البرايتورى بورروس (Burrus) .

هكذا وللمرة الثالثة ، يلعب الحرس البرايتورى لعبة صُنّاع الأباطرة - التى ظهرت بعد أوغسطس ، ومازالت حتى الآن (٥٤م) - وهكذا ، أيضًا ، للمرة الثانية ، تزداد ضراوة

---

١ - إسحق عبيد ، معرفة الماضى ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٨١ ، ص ٨١ .

٢ - المرجع نفسه ، ص ٨٣ .

٣ - المرجع نفسه .

٤ - هنا نختلف مع هيجل الذى قصر الدراسة التاريخية على النظم السياسية .

السلوكيات اللا أخلاقية والتكالب على العرش والسلطة والنفوذ بأى سبيل ، ووصلنا فى ذلك إلى أن قتلت الزوجة زوجها .

شاب ، بل غلام ، مدلل ، ربته امرأة ، ذو ستة عشر عامًا ، يحكم إمبراطورية ، هى أقوى وأكبر كيان فى ذاك الزمان ، من أب نبيل عرف بأنه أغلظ الناس قلبًا وأقساهم طباعًا[١] وقام على تثقيفه فيلسوف عصره ، سينيكا وهيأه بالفعل - خلال خمس سنوات متصلة منذ عام ٤٩م - للقيام ، قدر المستطاع ، بأعباء الإمبراطورية داخليًا على الأقل . هذا كله بالإضافة إلى أن أمه متسلطة تريد أن تجمع كل الخيوط فى أيديها هى ، ولم تضع ابنها على العرش إلا صورة وغطاء يخفى ممارساتها الفعلية . فماذا يمكن أن نتوقع من كل هذا التضارب فى التأثير على شخصية غلام لم يكتمل نضوجه وليس لديه خبرة ؟ ! .

لقد استطاعت الأم أجريبنا (Agrippina) أن تسيطر على زمام الأمور بيدها لمدة قصيرة ، ولكن سرعان ما نهض الابن نيرون بأعباء الحكم الإمبراطورى ، وحاول القيام ببعض الإصلاحات انطلاقًا من بعض الأفكار الليبرالية فيما يخص تعديلات ضرابية ومنع ألعاب ومنافسات المبارزة الانتحارية (Gladiatores) ، التى كان يفضلها كلاوديوس .

وعندما ثبت عدم إمكانية تحقيق وتنفيذ تلك الأفكار ، فقد نيرون الرغبة فى الإصلاح ، واندمج فى اهتمامات أخرى تتفق وسنه ، مثل سباق العربات والموسيقى والمسرح وسهرات المجون والعبث ، مما أطلق يد سينيكا وبرووس لتسيير دفة الأمور فى الإمبراطورية ، ومن خلفها مساندة رجالات السناتوس الأقوياء .

هنا نشأ صراع بين جبهتين ، جبهة الأم وجبهة مستشارى الإمبراطور الصغير الذى بدأ يحس بمضايقات الأم فى كل تصرفاته ، وأراد أن يتخلص منها نهائيًا فأمر بقتلها ، وقت المؤامرة بإغراقها ، عام ٥٩ م ، وكانت هذه ثانى جريمة يقدم عليها هذا الصبى ليتخلص ممن حوله ويحاولون التأثيرعليه أو تحديد تصرفاته ، الجريمة الأولى كانت عام ٥٥م ، أى بعد عام واحد من توليه العرش ، وعندما خطط لمقتل بريتانيكوس (Britannicus) بن كلاوديوس الإمبراطور السابق ، ونفى كذلك ابنة الإمبراطور نفسه ، أوكتافيا (Octavia) حتى لا يبقى أى أثر لوراثة العرش الشرعية .

---

١ - سيد الناصرى ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

وعندما مات بورّوس عام ٦٢م ، وتقاعس سينيكا عن مساعدة الإمبراطور ، بعدما فقد مساعدة الأول ، وأدرك استحالة الاستمرار مع نيرون ، انزاحت من أمام نيرون كل المعوقات وبدأ يتصرف وفق هواه .

أصبح تيجلّلينوس (Tigellinus) مستشاراً جديداً للإمبراطور ، وكان رجلاً وصوليًا خطيراً عينه نيرون كذلك رئيسًا للحرس البرايتورى ولا يخالف للإمبراطور رغبة حتى أفلسَت الخزانة العامة من كثرة المصروفات والبذخ الخرافى ، مما ألجأه إلى مصادرة الأموال وتعيين مسئول من الحرس على الخزانة العامة ، بدلا من السناتوس ، فضلاً عن إرجاع قانون الخيانة العظمى إلى الوجود فعاد الوضع السيئ إلى سابق عهده إبان حكم كاليجولا ، وراح ضحية ذلك العديد من نبلاء المجتمع الرومانى بحجة الخوف من المؤامرات ضد العرش .

وفى عام ٦٣م أنجب من عشيقته بوبياسابينا (Poppaea Sabına) ، ابنة لم تعش طويلا، وكان قد تزوج بهذه العشيقة بعد طلاقه لزوجته الشرعية (أوكتافيا ، بنت كلاوديوس) وقتلها بفظاعة شديدة[١] .

وفى عام ٦٤ م ، كانت روما ق تعرضت لحريق كبير عاقبت الحكومة عليه الفئة المسيحية القليلة المتواجدة فى روما وكانت هناك شكوك حول اشتراك الإمبراطور فى إشعال هذه النيران بالمدينة ، ولكن هذه الشكوك زادت ووصلت إلى درجة اليقين[٢] ، عندما أدرك الشعب الرومانى أن الإمبراطور أمر ببناء قصر منيف له[٣] ، وتم بالفعل ، على نفس الأراضى التى احترقت وفى هذا الخصوص يؤكد د. سيد الناصرى أنه « لا يوجد دليل مادى واحد على صحة هذا الاتهام واختلف المؤرخون القدماء فى ذلك [٤].

---

١ - يذكر تاكيتوس (Penguin Classic, op. cit., p. 343) أن رجال نيرون ربطوا أوكتافيا وقطعوا كل أوردتها الدموية التى أجل الخوف والرعب تزيف دمها ، فوضعوها فى حمام بخار ساخن للغاية وخنقوها ، ثم ما هو أفظع فإنه قاموا بقطع رأسها وأخذت إلى روما حتى تراها بوبيا العشيقة .

2 - Grant, M., op. cit , p. 230 .

٣ - لقد بلغ البذخ حداً بعيداً لبناء هذا القصر الذهبى (Domus aurea) لما فيه من تماثيل ضخمة وحدائق كثيرة وبحيرات صناعية .

٤ - المرجع السابق ، ص ١٦٥ . وحول أحدث دراسة تحليلة للنص اللاتينى ، وربط لبعض المقدمات التاريخية ، والأحداث اللاحقة على الحريق ، راجع / السعدنى : " نيرون واليهود " ، مجلة البحوث التاريخية والأثرية ، العدد الثانى ١٩٩٥ ، ص ص ١ - ١٥ ، حيث يتأكد دور اليهود التخريبى والتآمرى للانتقام من الرومان بتدبير حريق روما وتوجيه أصابع الاتهام إلى الإمبراطور نفسه زوراً !!! .

وفى عام ٦٥ م ، تزعم أحد رجالات السناتوس مؤامرة ضد الإمبراطور الشاب ، وكان السناتور بيزو (Piso) ولكن انكشف أمره هو وأعوانه وكان مصيرهم الإعدام مثل كثيرين آخرين لاعتراضهم على الإرهاب الإمبراطورى ، عندئذ تدهورت سمعة الإمبراطور تدهوراً واضحًا فى روما ولاسيما عندما ظهر على المسرح ، أمام النظارة ، ليقدم أولى أعماله الفنية فى نفس العام ، وكانت هذه الفضيحة لإمبرطور روما (والتى صُعق لهولها رجالات السناتوس المحافظين) ه المحرك الأول للمؤامرة سالفة الذكر .

والأكثر غرابة أن نيرون أجبر كوربولو (Corbulo) [والذى كان قد أصبح بطلاً قوميًا ، بفضل انتصاراته العسكرية فى أرمينيا] على الانتحار وكذلك فعل نفس الشئ مع شخصيات أخرى مرموقة ، سواء قادة عسكريين أو رجال فكر ، مثلما فعل مع سينيكا . إنه كان يخالف أولئك جميعًا ، مما جعل الجميع ، على اختلاف مواقعهم ، يؤمن بأن دوام الحال من المحال ، وبالتالى فكروا جميعًا فى التخلص منه ، وأن يتغدوا به قبل أن يتعشى بهم .

هكذا كانت سياسة نيرون الداخلية ، إن جاز لنا أن نستخدم هذا المصطلح على هذا الخضم من الصراعات الدموية وعمليات الإعدام المستمرة لشخصيات رومانية كبيرة وكفاه هو حب الظهور والاهتمام بالثقافة اليونانية بما فيها ألعابها (١).

وحدث فى عام ٦٨م ، أن قامت ثورة بقيادة قائد يدعى (فِنْدكس) (Vindex) حاكم جاليا الوسطى ، ولكن جالبا (Galba) حاكم أسبانيا (الذى لم يكن على لاقة طيبة مع نيرون) كان قد اتصل بفندكس سراً ، ولحق به أوتو (Otho) (زوج بوبيا السابق ، عشيقة نيرون وزوجته الآن) ، ونادى به جنوده إمبراطوراً ، وقد أكد السناتوس ذلك فى روما ، وأعلن الحرس البرايتورى تضامنه مع جالبا ، عندئذ أدرك نيرون سوء موقفه ، فهرب ومعه بعض رجاله المخلص ، وفقد عقله وراح يصرخ قائلاً : واحسرتاه على ، أنا الفنان ، ألقى حتفى!! Qualis artifex pereo (٢).

ودفع بخنجره إلى عنقه ومات منتحراً ، فى يونيو عام ٦٨م .

هنا تنتهى آخر صفحات الأسرة اليوليوكلاودية أو - كما سميناهم نحن - خلفاء أوغسطس الأول .

---

١ - ذهب نيرون إلى اليونان وشارك فى الألعاب الأولمبية ، حيث تملقوه وفاز فى معظمها ، عام ٦٧م ، ولذلك أعطى اليونان حريتها واستثناهم من دفع الضريبة .

٢ - وعن آخر أغنية غنّاها نيرون قبل انتحاره . انظر : Suetonius , Nero, 471. 15 .

خامسًا : « عام الأباطرة الأربعة » أو عام الثورات (٦٨ - ٦٩م)

عاش أباطرة الأسرة اليوليوكلاودية حياة كلها ترف ولهو وعبث ، ينعمون بالسلام والاستقرار الذى وضع أوجستوس (Augustus) دعائمه ، واستمر حوالى مائة عام تقريبًا (من عام ٣٠ ق.م وحتى عام ٦٨م) .

ولكن لا يمكن للأمور أن تسير إلى الأبد على هذا النحو ، لأن الاستقرار سواء الداخلى أو الخارجى لا يكون إلا ثمرة قوة قبضة الأداة الحكومية إداريًا وعسكريًا ، ومن ثم فإن الأباطرة الذين خلفوا أوجستوس ، ولما كانوا لا يمكن مقارنتهم بعظمته وإنجازاته التى فرضت وخلفت ما عرف باسم « السلام الرومانى » الذى عم كل انحاء الإمبراطورية ، وراح الجميع يوغلون فى خيراته التى عمت كل فئات شعب مدينة روما ، تناسى الجميع ، كذلك ، واجباتهم فى الحفاظ على هذه المكاسب الضخمة .

نعم ، لقد كان أوجستوس على حق عندما أشفق على الشعب الرومانى من بطئ خليفته ، تيبريوس ، فما بالنا بالآخرين الذين جاءوا من بعد هذا الإمبراطور العظيم ، أوجستوس ، مؤسس ذلك النظام الدستورى الجديد ، الذى فصله تفصيلاً لحسابه الخاص .

لقد كان خلفاء أوغسطس أباطرة ضعاف ، لكل منهم نقيضة أو عيب خطير فى شخصيته ، وكانوا صنيعة قيادات الحرس البرايتورى داخل القصر الإمبراطورى ، وحقًا ، كانوا أباطرة الصدفة ، وكان الحراس هم صناع أباطرة تلك الفترة فى تاريخ روما القديم .

وفى عام ٦٨م ، وبانتحار نيرون ، تصارع على السلطة قيادات الجيوش الرومانية ، وصل إلى عرش روما الإمبراطورى ، أيهم أقوى وأكثر سنداً من غيره ، وذلك بفضل قادة الجيوش الأخرى .

إنه ، بعد أوجستوس ، ازداد ضعف الأباطرة لأنهم لم يكونوا على مستوى المسئولية الخطيرة لمن يجلس على العرش الإمبراطورى ، فظهروا أقزامًا أمام قيادات الجيش ، وفاض الكيل بهم واستبد بهم القلق على مصير الإمبراطورية كما زادت طموحاتهم فليسوا هم بأقل قدرة أو مكانة من أولئك الصبية الذين يتناوبون عرش روما ، وكلهم نقائص ، يلعبون بالمؤسسات المتعارف عليها ، وأهمها السناتوس ، ويكيلون الضربات للطبقة الأرستقراطية النبيلة (Patricii) التى كانت يومًا ما هى المسئولة عن مقدرات الشعب الرومانى السياسية ،

فكان منهم زعماء السناتوس ، وكذلك العسكرية إذ كان منهم أعظم قادة جيوش روما قبل ذلك .

آن الأوان ، إذن ، بعد مرور حوالى (١٠٠) عام على نظام « المواطن الأول Principatus » الذى لم يجرؤ قائد واحد على أن يقف أمامه ، ولكن الآن ، عام ٦٨م وبعد صور الفشل المتكرر والمهازل والفضائح الدائمة لأباطرة روما ورجالات القصر الإمبراطورى ، كان لابد من تدخل العسكريين لإنقاذ الموقف .

(١) جالبا (Galba)

جاء جالبا ، وقد بلغ من العمر (٧١) عامًا ، إلى عرش روما ، وكان بحق أول حاكم ، من خارج الأسرة الإمبراطورية ، يجلس على عرش البلاد كما قال بذلك جرانت : " and the fact he was the first ruler to come from outside that imperil house is his principal sigificance " (١) .

كان جالبا قد وصل بقواته ، فى هدوء إلى روما فى أكتوبر ٦٨م ، بمجرد انتحار نيرون ، ولكنه لتشدده ، وتطرفه ، أقدم على قتل عدد من البحارة كانوا قد جاءوا لمقابلته مما ترك أثراً سيئًا فى بداية حكمه ، فضلاً عن وضاعته أمام المال وسوء اختياره لمستشاريه ، كل ذلك ساعد فى الإسراع بإبعاده عن السلطة وإحساسه بعد الأمان ، وانترت الأنباء السيئة عنه وفى أوائل العام الجد ، عام ٦٩م ، تحرك جيش ألمانيا العليا ودمر تماثيل جالبا ، وطالب السناتوس والشعب الرومانى باختيار خليفة جديد ، ولكن قوات ألمانيا السفلى فى اليوم التالى كانت قد نادت بإمبراطور جديد ، لحسابها الخاص ، كما هو معروف ، وهو (فيتلليوس)Vitellius وقبلت قوات ألمانيا العليا هذا الترشيح الجديد وأيدته .

لقد صدق وصف تاكيتوس (Tacitus) لجالبا عندما قال « كان أفضل الشخصيات ، ولكنه يا ليته لم يحكم » .

ولكن جالبا ، لم يكن سهلاً عليه أن يسلم الأمور بمثل هذه البساطة ففر لأول مرة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، وسيصبح تقليداً فيما بعد كما سنرى في تبنى آخر ، كآخر أمل

---

١ - Grant, op. cit., p. 231 .

- لاسيما أنه ليس لديه أبناء - فى الخطوة أحزنت كثيراً صدقه ومسانده الأول القائد أوتو (Otho) - حاكم لوزيتانيا (Lusitania) (البرتغال حاليًا) ، مما زاد فى حنقه عليه ، ودبر مقتل جالبا بنفسه ، ليصبح أول إمبراطور رومانى يرتب عملية التخلص من سلفه ، وكذلك أتم القضاء على كل مستشاريه وبالطبع أعدم خليفته المزمع تبنيه على زيدى جالبا ، كل ذلك فى يوم ١٥ يناير عام ٦٩م . هكذا كانت بداية حكم أوتو درامية إلى أبعد درجة .

(٢) أوتو : Otho :

بعد الانتهاء من عمليات القضاء على أذناب جالبا وما تبع ذلك من إجراءات مرعبة ، هدأت الأحوال ، وبدأ أوتو حكمه بإظهار الاعتدال .

نال أوتو تأييد وموافقة القوات الرومانية المرابطة فى كل من مصر وشمال إفريقيا وفرق الدانوب والفرات ، وبالرغم من ذلك كان عليه أن يواجه تأييد الفرق الرومانية فى ألمانيا لشخصية أخرى هى فيتليوس ، والذى نادت به إمبراطوراً ، بل كان عليه أن يتصرف إزاء تحرك تلك القوات فى اتجاه الجنوب صوب روما .

تسرع أوتو فى مواجهة قوات فيتليوس القادمة عند نهر بو (Po) ولم ينتظر المساعدة من قوات الدانوب ، وكان أن هزم هزيمة نكراء فى بلد كريمونا (Cremona) ، مما اضطره إلى الانتحار فى ١٦ أبريل من نفس العام (٦٩م) ، وكان أن سهل بذلك المهمة أمام قوات القادم الجديد من الشمال الألمانى ، فدخلوا روما ، وجلس فيتليوس ، على عرش روما ، وسارع السناتوس بالاعتراف به إمبراطوراً جديداً .

(٣) ڤيتيليوس (Vitellius) :

إنه بالرغم من أن فيتليوس كان رجلا ذات قدرات عادية ، إلا أنه رفض أن يقلد سابقيه فى تقلد ألقاب « قيصر » و « أوجستوس » - كما فعل كل من جالبا وأوتو .

حرص هذا الإمبراطور الجديد - عقب صراع مسلح مع غريمه أوتو ، ضاربًا النموذج والمثل لثانى لصراع القادة العسكريين الدموى (لأول مرة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية بعد الحروب الأهلية فيما قبل الميلاد) - على أن يؤكد سيادة السلطة القنصلية ، ودوامها ، كأساس لحكمه ، واعتمد على قدرته فى تكوين أسرة سياسية جديدة ، عس سلفه ، ولاسيما أنه كان لديه ابن أكبر ، يورثه العرش .

1- Ibid., p. 239 .

ولهذا نراه يُبعد الحرس البرايتورى الذى كان على عهد أوتو ، ويُغيِّره بقواد من فرقه الخاصة ، ولكنه بمجرد أن وصل إلى العاصمة روما ، أحزنه ما علمه أن الفرق العسكرية الرومانية فى الشرق قد غيرت ولاءها وحولته إلى قائد آخر وهو ڤسباسيانوس (Vespasianus) حاكم يُودايا (Judaea) المملكة اليهودية التى ثارت فى وجه الحكم الرومانى .

وحملت الأيام كذلك أخباراً أسوأ ، فقد فعلت فرق الدانوب نفس الشئ . وهكذا فقد فرضت الأوضاع الجديدة ، بهذه الصورة على القائدين ، على أعتاب حرب أهلية رومانية جديدة وفى سبيل الوصول إلى عرش روما ، حربًا للمرة الثالثة لا محالة .

ويشاء القدر أن ڤيتليوس يُعطَى نفس الدرس الذى أعطاه لسلفه أوتو فتأتى هزيمته على أيدى أحد قواد ڤسباسيانوس ، يدعى بريموس (Primus) فى نفس المكان ، كريمونا (Cremona) ، الذى كان ڤيتليوس قد هزم فيه أوتو ، ويهرب ڤيتيليوس ويتم القبض عليه بواسطة الجيش الغازى لروما من قوات روما الخارجية فى الولايات الشمالية (ويالها من سخرية) ، وما أشبه الليلة بالبارحة ، عندما دخل يوليوس قيصر روما بالقوة رغمًا عن أنف السناتوس) !!! روما تُهزم على أيدى قوات رومانية !!! .

لقد استطاعت قوات موكيانوس (Mucianus) أخلص رجال ڤسباسيانوس له ، أن يحد من طموحات بريموس ، ويحكم روما باسم الإمبراطور الجديد لمدة حوالى ١٠ شهور إلى أن استقرت الأوضاع ودخل الإمبراطور الجديد (القادم من الشرق ، وهازم اليهود ومدمر ثورتهم) روما منتصراً .

(٤) ڤسباسيانوس Vespasianus (٧٠ - ٧٩) [١]:

إننا إذا أردنا أن نصف فسباسيانوس فى إيجاز شديد ، ولو فى جملة واحدة ، يمكننا القول بأنه كان صورة مصغرة من أوجستوس (Augustus) مؤسس الإمبراطورية الرومانية .

ولكن قبل الدخول فى سيرته الذاتية وأعماله ، يجب أن نسلط الضوء على ما يخص دور مصر ، فى صراع الأباطرة ، فإنها وقفت إلى جانب ڤسباسيانوس ، وهو موقف أغفله

---

١ - يذكرنا أستاذى الدكتور / عبد اللطيف أحمد على (مصر والإمبراطورية الرومانية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٣٩ ، أن فسباسيانوس حكم عشر (١٠) سنوات من ٦٩ إلى ٧٩م .

تاكيتوس ، ربما عن عمد ، ولكن القدر أعطاها حقها عندما تم كشف النقاب عن قصاصة بردية ، تحكى كيف أن الاسكندرية رحبت ترحيبًا كبيراً بتمرد ڤسباسيانوس ومناداة جنده له ليصبح إمبراطوراً على روما بدلاً من فيتلليوس وكانت الإسكندرية (كما يقول بذلك الدكتور العالم أستاذى الفاضل ، عبد اللطيف أحمد على [١]) . « **تحمل ضِغنًا لروما منذ أيام أكتيوم، فلما سنحت لها الفرصة شفت غليلها وتزعمت حركة التمرد على غريمتها** » .

وهاكم بعض ما جاء فى سطور بعض أجزائها [٢].

يقول الوالى الرومانى على مصر موجهًا حديثه إلى الإمبراطور : « تحيةٌ طيبةٌ ومَقْدِمًا سعيداً مولاى قيصر !! وترد الجماهير هاتفة أيها المنقذ الأوحد والمصلح فسباسيان ، أى مولانا الجليل الخير سرابيس ، وابن آمون ، فلتُبق لنا الوالى سنوات طويلة » .

لقد شاركت مصر بصورة إيجابية فى تنصيب الإمبراطور الأخير من عام الأباطرة وهو ڤسباسيانوس ، الذى خطط جيداً لتلك الزيارة لكسب مزيد من التأييد ، وصل إلى حد تأليهه[٣] ، وربما أيضًا لتهديد فيتلليوس ، غريمه على عرش روما بقدرته على قطع إمدادت القمح المصرى إلى روما [٤].

ومن الطريف أن تذكر المصادر التاريخية معلومات أخرى ، هى تطور لموقف السكندريين واليونانيين الآخرين فى ريف مصر . وكيف أنهم انقلبوا ضد الإمبراطور بعد ذلك – بعد أن تيقّنوا من أنه كغيره من أباطرة روما لا يهمه سوى الجزية السنوية التى يجب أن يدفعونها إلى خزانة روما ، وبعد أن خيّب ظنهم وفرض عليهم ضرائب جديدة وأخضعهم لضريبة الرأس كذلك امتهانًا لهم . وهكذا ذهب تعلق اليونانيين أدراج الرياح ، ولم يغير ترحيبهم فى الإسكندرية من مواقف المرشح الجديد ، لعرش روما ، ولهذا سلطوا عليه ألسنتهم وراحوا يصفونه بأقذع الألقاب ، مثل تاجر الأسماك المملحة [٥]، وأنه لا يعرف كيف يتصرف تصرف القياصرة [٦].

---

١ – مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٤١ .

٢ – لمرجع نفسه ، ص ١٤٣ .

٣ – لم يكن لقب « إله » (Theós) يُخلع على الأباطرة – فى الوثائق وهم أحياء .

4 - Grant, op. cit., p. 233 .

٥ – عبد اللطيف أحمد على : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

٦ – المرجع نفسه .

١ - سيرته الذاتية :

كان شخصية حازمة من أصل غير مرموق كأسلافه ، ينحدر من طبقة الفرسان ، وكانت له ميول واهتمامات واضحة يفخر بها .

يقول عنه جرانت : " He was a man who, although in basic matters autocratic enough, was easy to get on with and accessible. Yet he worked without stopping, and he decided methods, which made him things by prosaic, common-sense, one of the most effective of all the emperors "(١) .

إنه لم يكن قبيل الصدفة أن يعيش أسلافه لمدة شهور قلائل لكل منهم ولكنه هو الذى استمر يحكم لمدة (١٠) سنوات ومات ميتة طبيعية فى نهايتها .

« ولقد كان أفضل من أسلافه الثلاثة بكثير » .

كان إمبراطوراً ، أرسلته العناية الإلهية لإنقاذ روما فكان الرجل المناسب فى الوقت المناسب، بعد أن عمْ روما الخراب والدمار وساد التدهور أرجاء الإمبراطورية .

كان ڤسباسيانوس ، بحق ، قدوة صالحة لكل الناس ، فكان رمزاً للبناء والتشييد ، وكان يحمل التراب والرماد بنفسه ويساعد العمال ولم يهدأ أبداً ، وكان إداريًا ناجحًا ، دقيقًا ، حازمًا ، بخيلاً فى الترف ومقتراً فى الإسراف ، الذى عرف عن السابقين ، عمليًا إلى أقصى درجات الواقعية ، غير مهتم بالمظاهر . ولكنه أنفق على مشاريع العمران وترميم المبانى العامة وأعاد بناء الكابيتول ، واهتم بجدية جباية الضرائب ، حتى على المراحيض فى داخل روما .

كما أعاد منصب الريقب (٧٣ - ٧٤م) حتى يستطيع أن يطهر السناتوس من أعدائه وإدخال العناصر المؤيدة له .

ونهاية المطاف ، أشرك ابنه كخليفة له ، وحمّله مسئولية إخماد ثورة اليهود نهائيًا فى **أورشليم ، وفعلا تم له ما أراد .**

هكذا عرضنا لأهم مراحل تطور التاريخ الرومانى بإيجاز شديد ومن منظور دراسى مصرى ، يهمه - فى المقام الأول - الخطوط العريضة التى جعلت من هذا التاريخ {(لهذه المدينة الصغيرة

1 - Grant, op. cit., p. 230 .

التى لم تكن شيئًا مذكوراً وفى عدة قرون قليلة استطاعت أن تفرض سيادتها على كل إيطاليا، وتمد سلطانها على كل الأقاليم الواقعة حول البحر المتوسط ، وعندئذ حق لها أن تسميه « بحرنا » (Mare nostrum)} حلقة لا غنى عنها للباحث الذى يريد أن يلم بالحلقات الكاملة لتطور تاريخ المنطقة التى نعيش فيها ، وكان لحضارتنا القديمة على أرض مصرنا الحبيبة ، يومًا ما ، دور بارز فى تحديد مجريات الأمور والتوجُهات السياسية البارزة على خريطة العالم القديم

الخاتمة

(خاتمة حضارية)

المجتمع الرومانى فى العصر الجمهورى

(ملامح عامة)

تقديم أخير :

إذا كانت سياسة الدول ، فى كل زمان ومكان ، يمكن أن تتغير وتتبدل من حال إلى حال، يصل إلى حد النقيض وبمعدل ٣٦٠ درجة (!!!) ، إلا أن ملامح الحياة الاجتماعية ، بوجه عام، والدينية على وجه الخصوص ، لا تتغير بالقدر نفسه ، بل لا يمكن أن تساير درجة التطور الاجتماعى ، ثقافيًا وحضاريًا ، تطور الأحوال الاقتصادية بالضرورة .

لقد رأينا أن أوغسطس ، فى محاولته الأولى للإصلاح فى روما والإمبراطورية ، لم يُقدِم على قَلبْ الأوضاع رأسًا على عقب ، بل كان حذراً جداً ، ولم يقم إلا بمحاولة " للتوفيق " بين مصالح طبقات الشعب الرومانى الراسخة ، ووظّف الجميع لخدمة أهداف المصالح العليا الرومانية ، بالضبط كما فعل سولون(*) - فى القرن السادس ق.م - فى أثينا ، ونجح في ذلك نجاحًا ملحوظًا ، علمًا بأنه لم يُرْضِ أحداً بإصلاحاته التوفيقية التدريجية التى حافظ فيها ، لكل طبقة من طبقات الشعب ، على بعض ، وليس كل ، حقوقها .

ومن هنا وجدنا ضروريًا أن نعرض ، سويًا ، لأحوال المجتمع الروماني ، منذ العصر الجمهورى ، فى مجالات الحياة المختلفة ، لنتبين ملامح تلك الصورة العامة للإنجاز الرومانى ومدى تطوره ، وإصراره على إعلاء الصالح العام ، برغم اختلاف الاجتهادات الفردية وشيوع روح الأنانية وتضخم « الأنا » العسكرية ، وهيمنتها على مُقدرات السياسة الرومانية ، فى العصور اللاحقة ، فيما بعد أوغسطس ، وهو الداء الذى أدى إلى انهيار الإمبراطورية العظمى، فأكلت الأحقاد الشخصية ، والأمراض الاجتماعية ، ما زرعه الأجداد قرونًا طويلة بتضحيات عظيمة !!! .

---

* - عن إصلاحات سولون وتقييمه هو لنفسه وشهادة أرسطو عنه ، راجع كتابنا : تاريخ الحضارة الهيللينية ، الرياض ، ١٩٩٧ / ١٤١٧ هـ ، ص ص ٢٣٣ - ٢٣٦ .

أولا : الزراعة :

ظل المجتمع الرومانى كما كان مجتمعًا زراعيًا أولاً وأخيراً وقد ساعدت فتوحاتهم خارج حدود مدينة روما ، ومنها الأقاليم الأخرى فى إيطاليا ، على زيادة رقعة المساحة العامة للأراضى (Ager Puplicus)والتى كانت الدولة تملكها ، ثم تزرعها فى صورة إقطاعيات ، مثلاً ، بالإيجار ، لكن الأشراف بما لديهم من نفوذ وثراء كانوا يعتبرون ما يؤجرون من أراضى الدولة ضمن ملكياتهم وحيازتهم (Possessio) . وقد استغل المواطنون الرومان (Romani) أو اللاتين (Latini) عند إقامة مستعمرات (coloniae) ، عسكرية رومانية أو لاتينية ، المساحات التى كانت تخصص للاستغلال العام وكانوا يزرعونها بالمحاصيل التى تلائم الإقليم. كما كان الشائع كذلك ولا سيما ى حالات المستعمرات القريبة أن توزع مساحات من الأرض على المواطنين الرومان واللاتين الذين يرغبون فى الاستيطان بهذه المستعمرات الجديدة ، عندئذ تصبح هذه الأرض ملكًا لهم وذلك تشجيعًا لهم على البقاء والاستقرار فى هذه المستعمرات المدنية . والطريف حقًا هو أن الأشراف (Patricii) كانوا يحثون العامة (Plebs) على امتلاك هذا النوع من الأراضى حتى يتمكنوا من التخلص من العناصر المشاغبة داخل مجتمع روما .

ثانيًا : التجارة والحرف :

وكنتيجة طبيعية لما سبق الإشارة إليه آنفًا ، كان المجتمع الرومانى ، فى النصف الأول من عصر الجمهورية ، وما تلاه لا يستدعى أصحاب الحرف أو التجارة لأداء الخدمة العسكرية ولا يتم مثل هذا الاستدعاء إلا عند الضرورة القصوى ، مع مراعاة عدم الاعتماد عليهم فى فرق الجيش الرئيسية من مشاة (cohortes) أو فرسان (equites) وهذا يعنى كيف كان الرومان ... ينظرون إلى المهن الأخرى – خلاف الزراعة باعتبارها مهن أقل شرفًا ، وأقل ولاءً للوطن.

١ – وكانت تارنتوم (Tarentum) من أهم المراكز التجارية فى إيطاليا القديمة ويبدو أن الحرب قد أثرت تأثيراً سلبيًا واضحًا على عمليات التبادل التجارى بين المدن الرومانية بعضها البعض وبين تلك المدن والعالم الخارجى فلم تسفر الحفائر إلا عن أعداد قليلة للغاية من الآنية اليونانية التى تؤرخ بالقرنين الخامس والرابع ق.م .

وخير دليل على عدم اهتمام روما القديمة بالتجارة ، هى بنود الاتفاقية التى كانت روما قد عقدتها مع قرطاجة حيث سمحت بمقتضاها لهذه المدينة الفينيقية أن تحتكر تجارة غرب البحر المتوسط ، فضلاً عن تكاسلهم فى إيجاد عملة نقدية للتعامل التجارى حتى عام ٢٦٩ ق.م

بدلاً من المقايضة التى تُعَطِّل العمليات والنشاط التجارى . هذا بالرغم من معرفتهم وممارستهم لنوع من القواعد الموحدة لتقدير قيمة الأشياء . وكانت كلمة (pecunia) - التى هى مشتقة من كلمة (pecus) وتعنى (قطيع) - بمثابة الرمز عن النقود للدليل على تقدير ثمن الأشياء بما تساويه من ماشية وأغنام .

٢ - فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، بدأ الرومان فى استخدام كتلة من البرونز (aes rude) غير مسكوكة ، زنة كل منها رطل أو (١٢) أوقية . وفى النصف الثانى من القرن نفسه ، صدر قانون يقضى باعتبار الثور الواحد أو عشر أغنام تساوى عشرة أرطال (asses) من البرونز .

٣ - وفى عام ٢٨٩ ق.م ، صدر قرار بضرورة استخدام العملة ، وتكوين لجنة ثلاثية تشرف على دار سك هذه العملة ، سمُوا بـ (Triumviri monetales) وكانت أول عمل لهم هو إصدار سبائك مختومة (aes signatus) تزن كل وحدة منها حوالى ٦ أرطال وهذا يعنى أن أول إنتاج لتلك الدار لم يكن نقوداً بل مجرد عملات . الحقيقة أن أول انتاج لأول نقود سكتها روما كانت في عام ٢٦٨ ق.م ، بين فئتين : فئة الدراخمة الواحدة وفئة ذات دراخمتين . وكانتا تقليداً للعملة البطلمية ، الذهبية ، التى كان بطلميوس فيلادلفوس قد سكها بمناسبة تخليد ذكرى زوجته وأخته أرسينوى فى ٢٧٠ ق.م ، واضعين فى الاعتبار السفارة المتبادلة بين مصر وروما حوالى عام ٢٧٣ ق.م . وتجدر الإشارة إلى وجود نوع آخر من النقود ، ولكن من البرونز وتسمى عملته بالآس (as) .

وفى عام ١٨٧ ق.م ، حدث أن تغير النقد الرومانى فأصبح على أساس الفضة فظهرت النقود الفضية الجديدة « الدينار » (Denarius) وعملة أصغر من الدينار قليلا هى «السيستر تيوس »(Sestertius) .

الحياة الاجتماعية :

سبق أن تكلمنا عن الأسرة وتكوينها وعلاقات الأفراد داخلها ولكننا لم ندخل فى تفاصيل كثيرة عن نظام حياتهم الاجتماعى الذى كان من أبرزه ما يلى من مظاهر :

(أ) الزواج : هناك منه ثلاثة أنواع :

ففى الأول : تنتقل العصمة للزوج بعد الزواج ، ويصبح هو صاحب السلطة عليها : Conventio in manus وتلازمه مجموعة أشياء :

١ - حفل دينى .

٢ - حضور (١٠) شهود وأحد كبار المعبد ليبارك الزواج بتلاوة عبارات مقدسة (solemnia verba) وكان هذا النوع منتشراً بين الأشراف (patricii) ويعتبر من أقدم أنواع الزواج الرومانى

أما النوع الثانى : فكانت سلطة الزوج تتحقق على الزوجة ، عقب توقيع صفقة بيع صورية (Coemptio) وهذا نوع قديم كذلك ولكنه انتشر بين أوساط الطبقات الشعبية (Plebs) وكان لا يلزم إتمامه إلا حضور (٥) شهود . كما لا يُلزِم أى طرف بإقامة احتفال دينى من أى نوع .

والنوع الأخير (الثالث) : يعتبر أبسطها جميعًا ، ويقوم أساسًا على اتفاق الزوجين على أن يعاشر كل منهما الآخر ، فى ضوء حقوق متساوية للطرفين ، كما كان الزوج يمكنه ممارسة سلطته (manus) على زوجته ، إذا عاشرته معاشرة زوجية متصلة (ouas) لمدة عام كامل ، دون انقطاع ، حتى ولو لمدة (٣) ليالى خارج منزل الزوجية .

وكان الحد الأدنى في هذه الزيجات الثلاثة ، هو الرابعة عشرة للرجال والثانية عشر للإناث، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الزواج لم يكن له قاضى خاص للأحوال الشخصية ، ينظمه، بل كان مسألة شخصية بحتة ، شأنه فى ذلك شأن الحفلات التى كانت تصحبه فى النوع الأول منه ، وكذلك الطلاق الذى كان يسيراً ولكنه كان نادراً لشدة حرص الشعب الرومانى على تحقيق الوفاق العائلى وكيان الأسرة وكما هو الحال عادة فى الأسر الريفية فى كل مكان من العالم ، قديمه وحديثه على السواء .

وعندما نتناول دور الفرد فى الأسرة ، فنجد اسمه يرتبط باسم العشيرة (gens) واسم الأسرة (cognomen) مثل :

	Scipio	Cornelius	Puiblius
	3	2	1
فباللاتينية :	Cognomen	Nomen	Praenomen
وبالإنجليزية :	Surname	Name	Forename

أى أن اسم الشخص نفسه هو : پُوبْليوس .

واسم العشيرة هو : كورنيليوس .

واسم أسرته (لقبه) هو : سكيبيو .

وكانت لكل عشيرة طقوسها الدينية الخاصة بها (Sacra gentilica) لتكريم وإرضاء الآلهة التى تحميها ، كما كان هناك مجلس لكل عشيرة يتكون من آباء لأسر فيها ، للفصل بين المنازعات ودراسة أحوال العشيرة ، أما الأتباع فى كل أسرة فكانوا يعتبرون أتباع لكل العشيرة تضمن حمايتهم وتربطهم بها علاقات متينة .

كان نظام العشائر - فى العهد الملكى - قاصراً على الأشراف ، ولكن النظام الجمهورى ، وبفضل كفاح العامة ، أوجد هذا النظام بين أسر عامة الشعب ، الأكثر ثراء ، ولما حصل تقارب بين أولئك وهؤلاء ، خلقت الأوضاع الجديدة والتقاء المصالح بين الفئتين طبقة جديدة تماماً ، هى طبقة أرستقراطية من نوع جديد مما أثر على شكل السناتوس ، والعديد من الوظائف العامة .

(ب) الدين :

كانت الديانة واضحة تمامًا فى عبادة الأسرة الرومانية لمجموعة من الآلهة الرومانية الخالصة فى العصر الملكى ، ولكنه بتقدم العصر الجمهورى دخل عدد من الآلهة اليونانية إلى عالم المعبودات الرومانية ، عندما دخلت عبادة الـ Dioscuri فى عام ٤٨٤ ق.م [(١)].

وفى عام ٢٩٣ ق.م ، بسبب تفشى الطاعون فى روما ، استقدم الرومان الإله الإغريقى اسكليبيوس (Asclepius) كما ازداد اهتمامهم بالموافقة على دراسة علم النبوءة على أسس التعاليم الإتروسكية (disciplina Etrusca) .

ولما كان الروماني مادى بطبعه ولا يعرف للخيال مكانًا فى عقله فإنه يتضرع إلى الآلهة أن تمنحه خيراً ماديًا وليس معنويًا . وذكر د. إبراهيم نصحى ثلاثة أسباب لتمكن الدين وسيطرته على العقلية الرومانية[(٢)] وهى :

١ - دور الدين فى تحقيق المودة بين أفراد الأسرة والدولة كذلك .

٢ - الإيمان العميق بقدرة الآلهة على تحقيق الخير لكل من يرضيها بالطريقة السليمة والطقوس الصحيحة .

٣ - الجرى على سنن الآباء (mos maiorum) والتمسك بها .

---

١ - انظر المؤرخ اللاتينى ليفيوس : Liv., II, 20, 12: 42, 5.

٢ - المرجع السابق ، ص ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(جـ) القانون :

من أهم ما خَلّفته العقلية الرومانية فى تاريخها كله هو مجموعة القوانين الوضعية التى كانت تصدر تباعًا لسد الفجوات ، بين فترة وأخرى وذلك لضمان تحقيق الصالح العام ، ودرءًا لاستغلال فئة لفئة ولضمان حسن سير العلاقات البشرية والجماعات الإنسانية .

لقد كانت قوانين « الألواح الاثنى عشر » ، قوانين أساسية للدولة الرومانية فى النصف الأول من عصر الجمهورية ، وتدل دلالة واضحة على ذلك الحس الخاص الذى تمتعت به تلك العقلية المادية ، في مجال القانون الخاص . فهى مثلاً فصلت فصلاً تامًا بين الدين والقانون واستبدلت بنظام الثأر تعويضات كان يجب على الجانى دفعها لأهل المجنى عليه .

وتعزيزاً لحق المواطن الرومانى إزاء الأحكام الصادرة صدر فى عام ٣٠٠ ق.م ، تشريع يعطى المواطن الحق فى استئناف كل الأحكام حتى لو كانت صادرة عن أى حاكم رومانى وقد سبق ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - قانون ٣١٣ ق.م ، الذى قضى على عادة رهن شخص المدين واستعباد المواطنين الرومان العاجزين عن دفع ديونهم .

(د) الفن :

الفن الرومانى ، بطبعه ، ميال إلى البساطة ، وتوفير سبل العيش السوية دون اللجوء إلى الكماليات إلا فى فترات الازدهار الحضارى العظيم ، فى العصر الإمبراطورى عندما فاءت عليهم مستعمراتهم الخارجية والولايات الأجنبية من خيرها الكثير . وهكذا اهتم الرومانى اهتمامًا خاصًا فى النصف الأول من العصر الجمهورى - بإنشاء الضروريات فقط ، مثل معابد الآلهة وأسوار مدينة روما وغيرها ، ووصف طرقها وشوارعها وحفر القنوات .

(١) وفى النحت - فى نفس الفترة ، كان الاهتمام قاصراً على عمل تماثيل للآلهة المعبودة داخل المعابد ، وكانت تصنع من الطين أو الأحجار ، ومنذ أواخر القرن (٤) ق.م ، تم عمل تماثيل تذكارية لتخليد كل من قدم خدمات جليلة لبلاده فى السوق العامة ، أمام المعبد ، كما حدث لقنصلى عام ٣٣٨ ق.م .

وتجدر الإشارة إلى أن صانعى تلك التماثيل - حتى فى نهاية القرن الرابع وأوائل الثالث ، لم يكونوا من الرومان بل من الإتروسكيين والإغريق الذين فرضوا وجودهم الفنى فى القرن الثالث ق.م ، ولم يكن هناك وجود للفن الرومانى الحقيقى فيما عدا فن التصوير الشخصى

(Portraits) قبل القرن الأخير من عهد الجمهورية ، تقليداً لنماذج الأقنعة فى الفن الإتروسكى .

(٢) وفى ميدان التصوير الجدارى ، بالألوان ، فليس لدينا أكثر من مناظر حربية تقليدية صورت دون عناية كبيرة على جدران مقبرة فى صخور تلال إسكويلينوس (Esquilinus) والتى تؤرخ بالقرن الرابع ق.م .

وحقيقة الأمر أن المستوى الفنى التصويرى عند الرومان فى القرن الرابع ق.م لم يصل بل لم يحاكى الفنون الأخرى وكان دونها بالكثير وهذا ما تدل عليه نماذج الصور على النقود الرومانية ، التى سكت فى عام ٢٦٨ ق.م وما بعدها .

(٣) أما عن المساكن : فكانت تعكس الوضع الاجتماعى لأصحابها فمساكن الريف عبارة عن أكواخ من البوص المغطى بطبقة من الطين - وما أشبهها بمساكن ريف الصعيد عندنا اليوم وبصفة خاصة ، أكواخ الطبقة الدنيا من أهل القرية المصرية ولكن بعض المساكن الأخرى ، ولا سيما فى روما فكانت عبارة عن غرفة واحدة أو غرفتين ، إحداهما إما خلف الأخرى أو فوقها كدور ثانى . وكان صاحب أى حرفة يتخذ من الغرفة الأولى أو السفلى مكاناً لحرفته أو تجارته. وعادة ما كانت هذه المساكن تبنى من الطوب اللبن والأخشاب .

(٤) وكانت المعابد قليلة ، فقد استكمل بناء معبد الثالوث المقدس (چوبيتر : Jupiter) وچونو : Juno ومنيرڤا : Minerva . بداية عصر الجمهورية كما أنشئت أربعة معابد إحداها عام ٤٩٥ ق.م للإله مركوريوس (Mercurius) إله التجارة والتجار ورسول الآلهة وآخر للإله أبولو (Apollo) عام ٤٣١ ق.م .

أما القرن الرابع ، فلا نعرف - بشكل عام - شيئًا عن إقامة أى معابد تؤرخ بهذا القرن بينما فى بدايات القرن الثالث ، حوالى ٢٤٠ ق.م أقيم معبد للإله أسكولابيوس (Asculapius) ، إله الطب (عند اليونانيين أولا) .

والدارس لعمارة تلك المعابد يستطيع أن يتبين فروقًا كبيرة بينها وبين المعابد اليونانية من حيث :

أ - ارتفاع قاعدة المعابد الرومانية عن مثيلتها فى العمار اليونانية .

ب - بروز تلك القاعدة عن بهو قاعة تمثال الإله (Sčkós) .

جـ - اختلاف طرز الأعمدة .

د - عدم وجود بهو الأعمدة الخارجى (Peristylio) ، (كما هو فى العمارة اليونانية والذى يحيط بالمعبد) .

وأخيراً ، فقد كانت المنشآت العامة ، فى النصف الأول من عهد الجمهورية ، قليلة منها :

(١) بناء سور حول روما عقب غزو الغال فى ٣٩٠ ق.م .

(٢) إنشاء طريقين هما :

أ - طريق لاتيوم (Vıa Latina) .

ب - طريق أبيوس (Via Appia) .

(٣) إنشاء قناتين لتوفير حاجة روما من المياه الصالحة ، هما قناة أنيوڤتوس (Anio Vetus) وقناة أبيوس كلاوديوس (Appius Claudius) .

(٤) رصف شوارع روما الرئيسية بالأحجار وإنشاء مجارى فيها . وجدير بالإشارة إلى أن منطقة المعبد (Templum) كان يوجد بها سوق مكان فسيح (Forum) حيث تجتمع فى جزء منه جمعية الكورياى (Curiae) والجمعية القبلية (comitia curıata et comitia tributa) فى مواجهة المنصة (Rostra) الرئيسية ، التى بنيت خصيصًا ليتحدث فوقها الحكام والأمراء، أما جزء باسيليكاى (Basilicae) فكان جزءاً هامًا من بين مهام إيواء المحاكم .

وفى عام ٢٢٠ ق.م أنشأ الكنسور فلافينيوس مضماراً جديداً لسباق الخيل والعربات فى ساحة الإله مارس (Circus) .

وهنا يجب ألا ننسى أن حياة الرومان منذ نهايات القرن الأول الميلادى وطيلة القرن الثانى كله تستطيع أن تعرف أدق تفاصيلها فى ساتيرات چوفينال Juvenalius : Satires, I-XVI فى أى طبعة أجنبية سوا فى سلسلة Loeb Classical Library أو فى سلسلة نصوص Oxfords الإنجليزية .

قائمة المصادر والمراجع

(حسب ورودها فى الكتاب)

أولاً : بعض المصادر الأدبية (وهى باليونانية أو اللاتينية) :

- پولیبیوس : - Polybius
- فرجيليوس : - Virgilius
- كاتو الأكبر : - Cato Maıor
- ليڤيوس : - Livius
- كاسيوس : - Cassius
- سويتونيوس : - Suetonius
- تاكيتوس : - Tacitus
- پلوتارخوس : - Pluarchus

ثانيًا : بعض المراجع :

(١) المراجع العربية والمترجمة (حسب ترتيبها الأصلى لأسماء مؤلفيها وليس حسب تقديم اللقب كمنهج الأجانب) :

١ - إبراهيم نصحى : تاريخ الرومان ، بيروت (د . ت) .

٢ - سيد الناصرى : تاريخ وحضارة الرومان ، القاهرة ١٩٨٢ .

٣ - » » : تاريخ الإمبراطورية الرومانية (السياسى والحضارى) ، القاهرة ١٩٨٥ .

٤ - عبد اللطيف أحمد على : مصادر التاريخ الرومانى ، القاهرة ١٩٧٠ .

٥ - » » » » : روما (الجزء الأول / تاريخ الجمهورية والإمبراطورية ، القاهرة ١٩٦٠ .

٦ - » » » » : مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ،دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥ .

٧ - بنيامين فارنجتون : مدنية الإغريق والرومان ، ترجمة أمين تكلا ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ .

٨ - رستوفتزف : تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ، ترجمة / زكي علي وسليم سالم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٦ .

٩ - أرنولد توينبي : تاريخ الحضارة الهيلينية ، سلسلة الألف كتاب (٤٥٨) ، القاهرة ١٩٦٣ .

١٠ - ماسون : الإمبراطور الرهيب " تيبريوس " تعريب / جمال السيد ، القاهرة ١٩٨٥ .

١١ - اسحق عبيد : معرفة الماضي ، دار المعارف (الطبعة الأولى) القاهرة ١٩٨١ .

١٢ - محمود السعدني : " نيرون واليهود " ، مجلة البحوث التاريخية والأثرية ، العدد الثاني ١٩٩٥ - الزقازيق .

(٢) بعض المراجع الأجنبية :

1 - Cary, M. - Scullard, H., A., History of Rome, 3ed edition 1975, Great Britain.

2 - Peet, T.E., The Stone and Bronze Ages in Italy and Sicily, 1909 .

3 - Rondall-Maciver, The Iron Age in Italy, 1927 .

4 - Dudley, D., Roman Society, Great Britain 1970 .

5 - Petrie, A., An Introduction to Roman History, Literature and Antiquities, (New edition 1956) .

6 - Grant, M., History of Rome, London 1978 (or Faber edition, London-Boston 1970) .

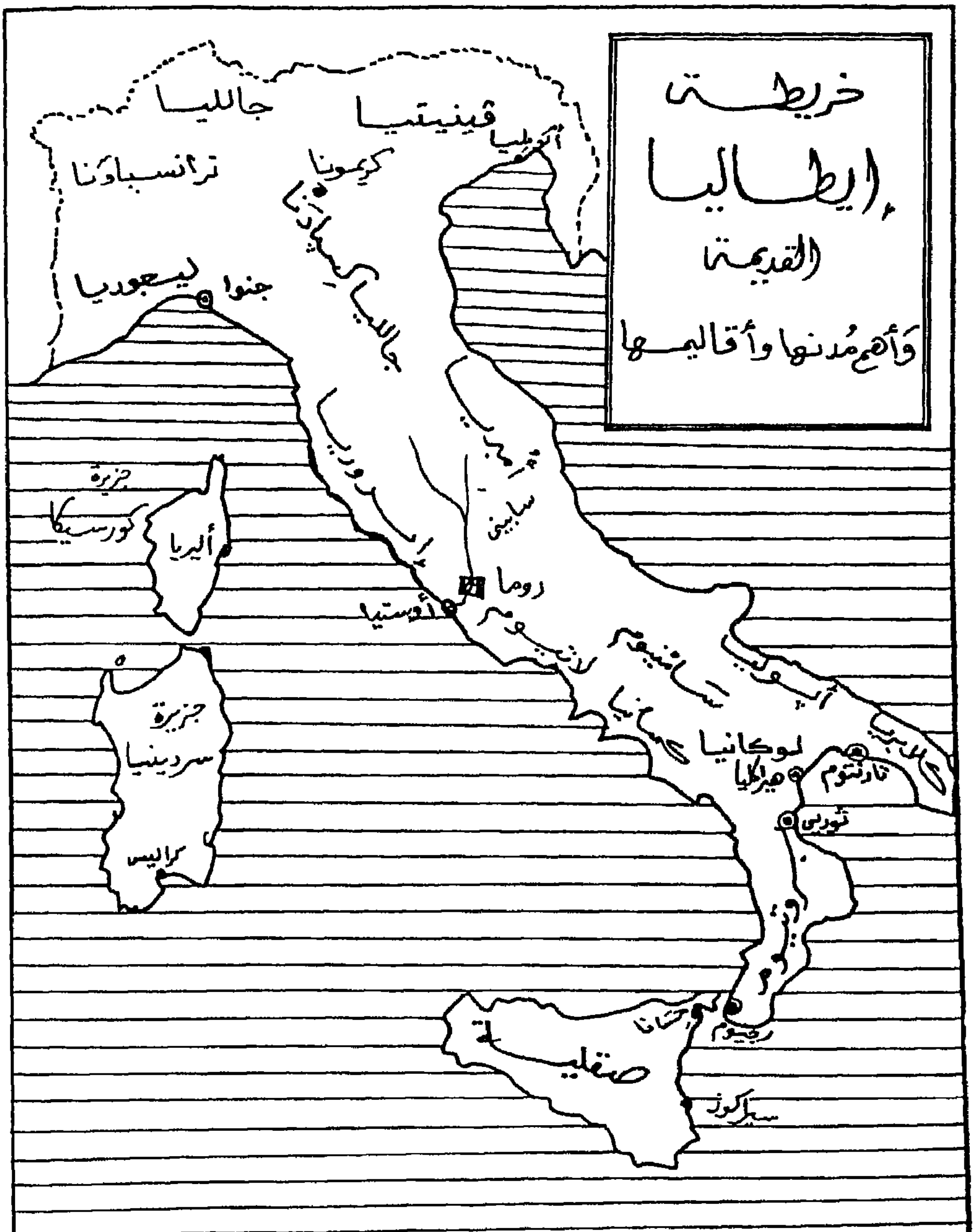
7 - White, G.W. & Kennedy, E. C., Roman History , Life & Literature, London 1942 .

8 - Salmon, E.T., " The Evolution of Augustus principate", Historia, VI (1956) .

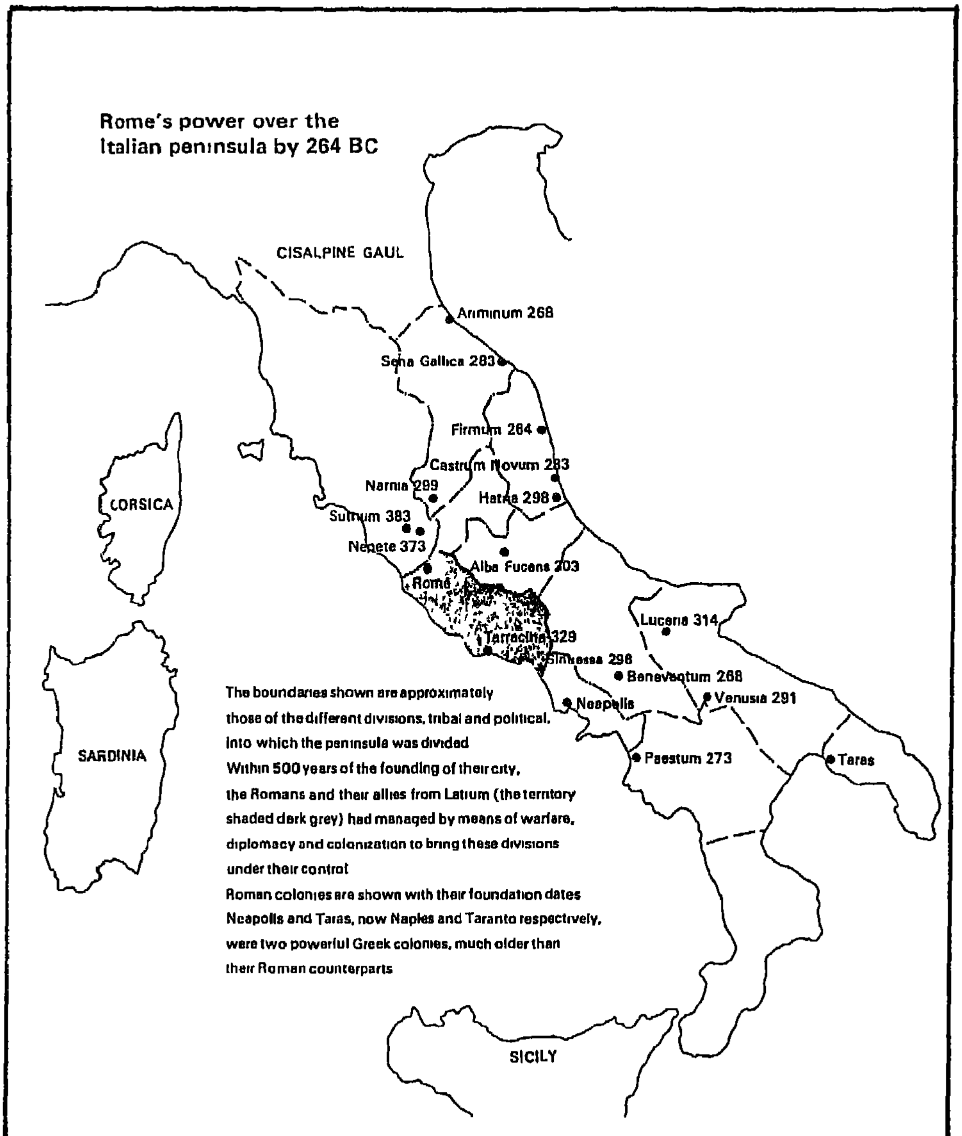
9 - Sinnigen, W. & Book, A., A History of Rome, (6th edition) , New York- London 1977 .

10 - Graves, R., Claudius the God, Penguin Books, edition 1979 .

الملاحـــــــق


خريطة
ايطاليا
القديمة
وأهم مدنها وأقاليمها
جالليا
ڤينيتيا
ترانسباونا
كريمونا
جنوا
جزيرة
كورسيكا
أليريا
سابينى
روما
أوستيا
جزيرة
سردينيا
كراليس
لوكانيا
هيراكليا
تارنتوم
ثوريى
ريجيوم
صقلية
سيراكوز

شكل (١)



شكل (٢)

خريطة الفتوحات الرومانية حتى ٢٦٤ ق . م

من أهم إنجازات روما السياسية فى العصر الجمهورى

(Res Publica : 509 - 30 B . C .)

سِلك الوظائف العامة : Cursus Honorum

(١) نقيب العامة (تريبونوس : Tribunus) :

* منذ عام ٤٩٤ ق . م .

* فرد واحد بالاختيار أو على هيئة مجالس ثلاثية أو سداسية لاسيما فيما بين عامى ٤٤٠ و٣٦٧ ق.م ، مثال / " الترابنة العسكريون ذوى السلطة القنصلية"

(Tribuni militum consulari potestate)

* أوقف العمل بها عام ٣٦٦ ق.م .

---

(٢) الكوايستور (Quaestor) :

* يعادل ، الآن ، أمين الخزانة أو وزير المالية .

* منذ عام ٤٤٩ ق.م ، بعد نصف قرن ، تقريبًا ، من بداية النظام .

* ينتخب لها رجلان إثنان برعاية الجمعية القبلية سنويًا .

* أصبح عدد موظفى تلك الوظيفة أربعة ، منذ عام ٤٢١ ق.م :

- اثنان للخزامة العامة (Quaestores aerarii)

- اثنان لتموين الجيش والرواتب (Quaestores militarii) .

* اقتصرت على الشئون المالية ، فقط ، منذ عام ٣٦٦ ق.م .

---

(٣) الرقيب (كِنْوسُور : Censor) :

* منذ عام ٤٤٣ ق.م ، للتخفيف عن القناصلة ، وموظفى المالية .

* يُنتخب لها رجل واحد ، فقط ، مشهود له بحسن السير والسلوك .

* المهمة الرئيسية عمل التعداد والإحصاء الشامل (Census)

- الكِنسوس - لكل شئ ولكل الناس فى روما القديمة .

(٤) البرايتور (Praetor) :

* تعادل - الآن الحاكم القضائى ، أو وزير العدل .

* منذ عام ٣٦٦ ق.م .

* كان يُنتخب لها اثنان : قاضى مدنى للرومان ، وآخر للأجانب .

(٥) الأئديلس (Aediles) :

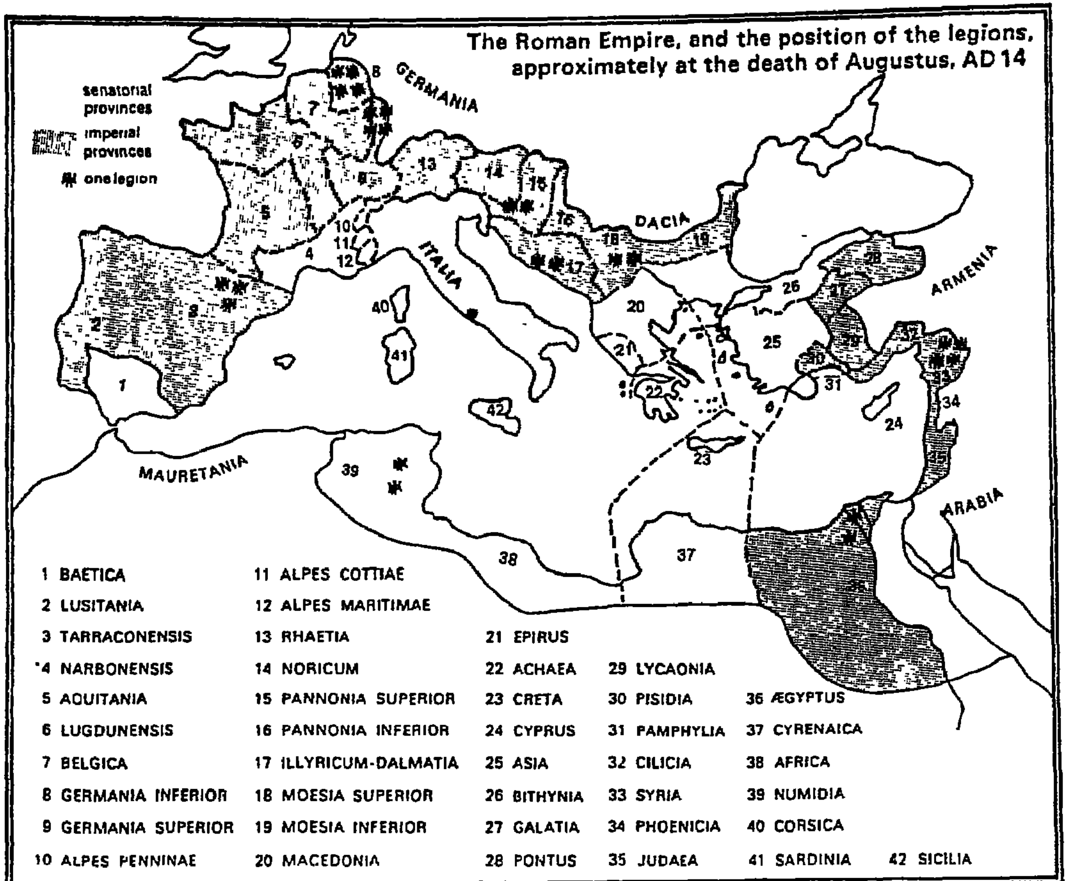
* منذ عام ٣٦٧ / ٣٦٦ ق.م .

* تعادل ، الآن ، وزير التجارة الداخلية والأمن العام .

* كان يُنتخب لها أربعة : اثنان من العامة ، واثنان من الأشراف .

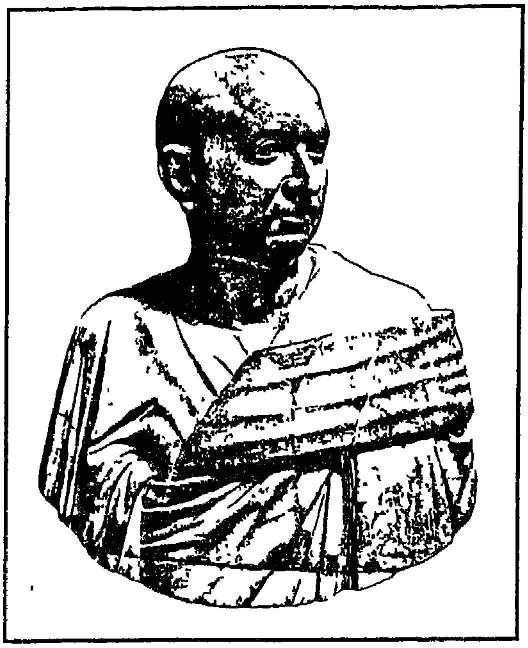
شكل (٣)

لوحة تأريخية لسلك الوظائف العامة فى النظام الجمهورى لروما القديمة



شكل (٤)

أملاك الإمبراطورية الرومانية الخارجية وتوزيع الفرق العسكرية الرومانية عند وفاة أوغسطس عام ١٤م تقريبًا



شكل (٥)

تمثال نصفى للقائد الرومانى « سبيكيو » قاهر « هانيبال »



شكل (٦)

تمثال نصفى للقائد القرطاجى « هانيبال » قاهر الرومان فى معركة «كاناى» عام ٢١٦ق.م

لوحة تأريخية مسلسلة

م	اسم المؤرخ	تاريخ كتابته أو حياته	ملاحظات هامة
١	پوليبيوس	حياته ٢٠٠ - ١١٨ ق.م	يونانى من الپلوپونير - أسره الرومان - كتب تاريخ روما - زار مصر ضمن بعثة رسمية عام ١٣٦ ق.م (؟) فى عهد يورجتيس الثانى .
٢	ديودوروس	كتابته ٦٠ - ٣٠ ق.م	ولد فى اجيريوم فى صقلية عام ٩٠ ق.م تقريبًا . مؤرخ ذو فسلفة رواقية جعل روما مركز كتابته وتاريخه " المكتبة التاريخية " سافر كثيراً " حتى أنه زار مصر . مصدر رئيسى أدبى عن الفترة من ٣٢٣ حتى ٣٠٢ ق.م .
٣	سترابون	حياته ٦٤ ق.م - ٢١ م (على الأقل)	جغرافى ومؤرخ . يونانى من بنطوس الآسيوية ، زار مصر ومكث بها طويلا (٢٩ ق.م - ١٩ ق.م) . أفرد كتابه (١٧) من جغرافيته لوصف مصر . كان صديقًا للوالى الرومانى الأول على مصر .
٤	روفوس	كتابته ٤١ م - ٥٤ م	مؤرخ وخطيب . كتب فى عهد كلاوديوس . ربما كان قنصلا عام ٤٣م ، أو فى عهد فسپاسيانوس (حوالى ٧٠ - ٧٩م) . كتب تاريخ الإسكندر فى عشرة كتب . غلب فلسفته المشائية على صورة الإسكندر .
٥	پلوتارخوس	حياته ٥٠ - ١٢٠ م	كاتب سير أخلاقى . يونانى من خايرونيا . زار مصر وإيطاليا . كان كذلك فيلسوفًا أفلاطونيًا . كتب سيره حوالى خمسين شخصية قديمة من مشاهير الحكام والأباطرة والقياصرة . أكد على الفضائل والرذائل فى حياة شخصياته .
٦	أريانوس	كتابته ١١٧ - ١٣٨ م	يونانى من بيثينيا الآسيوية . حكم كاپادوكيا فى عهد هادريان . أهم كتاباته " اناباسيسل الإسكندر " ، على غرار كسينوفون . ميز بوضوح بين مصادره الأصلية وبين ما يقال .

م	اسم المؤرخ	تاريخ كتابته أو حياته	ملاحظات هامة
٧	پاوسانياس	كتابته/ حوالى عام ١٥٠م	رحالة جغرافى من ليديا (؟) . عرف مصر وفلسطين . كتب وصفًا تفصيلاً لأهم مواقع اليونان التاريخية القديمة فى جغرافيته : " رحلة حول اليونان " ، مصداقيته هى فى الآثار التى وصفها وتم الكشف عنها .
٨	أپيانوس	كتابته / ١٣٧ - ١٦١م	سكندرى ، حصل على المواطنة الرومانية وعمل محاميًا فى روما . كتب تواريخه عن روما (Romaiká) عهد انطونيونوس بيوس . ما كتبه عن فتح مصر على زيدى الرومان . أسماه " الشئون المصرية " " Tá aigyptiaká" ، وضم كتبه من ١٨ - ٢١ .
٩	ديوكاسيوس	كتابته /١٩٤ - ٢٢٩م	من نيكايا (بيشينا) الاسيوية . أصبح پرايتوراً عام ١٩٤م ، وقنصلا على ٢٠٥م و ٢٢٩م فى روما . غلب الطابع السياسى على كتاباته . أفرد الكتاب الـ (١٥) من تاريخية (Tá Romaiká) لرد وقائع هزيمة أنطونيوس وكليوپاترا أمام أكتاڤيوس (أوجستوس) عام ٣٠ق.م استغرق تاريخه عشر سنوات للإعداد واثنتى عر سنة للكتابة . اعتمد على مصادر رومانية من العهد الجمهورى ، مثل نيڤيوس . به خيال كثير وتاريخه ليس فوق الشك .

شكل (٧)



شكل (٨)

خريطة أقاليم إيطاليا القديمة ، وتفصيل لإقليم كمبانيا أعلى اليمين



شكل (٩)

تمثال نصفى للقائد « يوليوس قيصر » صاحب أعظم فتوحات رومانية خارجية





شكل (١٠)

(أ) عملة من فئة الدراخم اليونانية تصور رأس القائد الرومانى « أنطونيوس » وتؤرخ بحوالى عام ٣٩ ق.م

(ب) عملة على غرار الدراخم اليونانية تصور «كليوباترا» آخر ملكة بطلمية على مصر . تم سكها فى عسقلان عام ٤٩ ق.م

رقم الإيداع ٩٨/٤٦٠٤

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 5487 - 89 - 7

دار روتابرينت للطباعة ت ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

Historia Romana

(ab urbe conita 753 B. C. - ´9 A . D.)

AB

Dr. : M . I . ElSaadani

Assistant Prof. of

Graeco - Roman History & Civilization

Zagazig University

Cairo

1998

عين للدراسات والبحوث الانسانية و الاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

د. محمود ابراهيم السعدنى

حضارة الرومان

منذ نشأتها حتى نهاية القرن الأول الميلادى

